25
26
Winter
Spring
2010

مجلة شبكة العلوم النفسية العربية
Arabpsynet e.Journal

نحو مدرسة عربية للعلوم النفسية

ملف العدد

سيكولوجية التطرف العقائدي

إعداد د. سامر جميل رضوان – سوريا

الإفتتاحية 1: سيكولوجية التطرف العقائدي – سامر جميل رضوان
التعصب التحليل النفسي لظاهرة مرعبة – سامر جميل رضوان
الملامح السيكولوجية للكره والاختلاف – صالح بريك
سيكولوجية المتطرف الانتحاري – عبد الودود خربوش
التطرف العقائدي و الارهاب ... مدخل المنظور النفسي – قاسم حسين صالح
وعى المجتمع والإرهاب: (فراغ جاهز للتفجير) – يحيى الرخاوي
التطرف و الإنحراف ... مقاربة نفسية واجتماعية – بوفولة بوخميس
الجذور النفسية لجرائم الابادة الجماعية – صلاح كَرميان
البنية النفسية للفاشية و الشخصية التسلطية – أحمد مصطفى جابر
ملامح سيكولوجية التعصب – قاسم حسين صالح
المنظور النفسي و الإجتماعي للعنف السياسي و الديني – علي إسماعيل عبد الرحمن
التشدد العقائدي و الوسواس القهري – كلثوم بلميهوب
Cognitive concepts applied to extremist ideology: A Suggested theoretical framework and practical implications – نعمان الغرايبة – يوسف الخوري

أبحاث و مقالات

مخاطر الترجمة بين تسطيح الوعي واختزال المعرفة – يحيى الرخاوى
تقنين قائمة آرون ت. بيك الثانية للاكتئاب – بشير معمرية
البنية الذهانية وأعراض الفصام النكوصية – مرسلينا شعبان حسن
مشهد علم النفس في السودان في نهاية الألفية – عمر هارون الخليفة – إنعام على أحمد
قياس الهوية الوطنية لدى العاطلين عن العمل في العراق – فارس كمال نظمي
معوقات استخدام الإنترنت لدى الطلبة – زياد بركات
Intelligence in Sudan and IQ gain between 1964-2008 – عمر هارون الخليفة
Factors Contributing in Marital Stability – كلثوم بلميهوب
Personality profile of effective police officers: An exploratory study – ع. العلي – ل. قامر – و. مقادلي

تكريم

عدنان حب الله ... محاولات دؤوبة لتوطين التحليل النفسي

مصطلحات العلوم النفسية

الأبجدية العربية "ث"، الإنكليزية " E"، الفرنسية " E" – جمال التركي

CONTENT

الفهرس

Volume 6- N°25-26, Winter & Spring 2010 - Download APNeJ-25-26 :http://www.arabpsynet.com/pass_download.asp?file=25

Edited by CISEN Computer Company All rights reserved - Copyright (c) 2010 -APNjournal@arabpsynet.com

بسم الله الرحمن الرحيم

Arabpsynet e.Journal
Electronic Arab Psy Review
Quartly Edition

المجلــة الإلكترونية لشبكــة العلــوم النفسيــة
مجلــة طبنفسيــة و علمنفسيــة محكّمـــة
تصـــدر فصليــــــــا

Subscription For Arabpsynet Services Pack

Registration for 2010

Psychiatrists & Psychologists

After Send CV

Via Cv Form

www.arabpsynet.com/cv/cv.htm

الإشـتـــراك في سلـــــة خدمـــــات الشبكـــــة

إشتراكـــات ســـنة 2010

خاص بالأطباء و أساتذة علم النفس

إرسال السيرة الذاتية

حسب النموذج التالي

www.arabpsynet.com/cv/cv.htm

الإشتـــــــــراك في خدمــــــات الشبكـــــــة

- تقدم الشبكة خدماتها (سنة 2010 لأحصائيي) و طلبة العلوم النفسية و الإنسانية دون معلوم مالي.
- يتم الإشتراك بعد ارسال السيرة العلمية و ملخصات الأبحاث و الأطروحة و المنشورات العلمية من خلال النماذج التالية:

www.arabpsynet.com\cv\CV.HTM
www.arabpsynet.com\paper\PapForm.htm
www.arabpsynet.com\these\ThesForm.htm
www.arabpsynet.com\book\booForm.htm

- تعتمد الشبكة مستقبلا لتنمية مواردها و لمواصلة أداء رسالتها إلى الدعوة لتفعيل وسائل الدعم التالية:
  - دعم "الوقــف للعلـــم" لحســاب شبكة العلوم النفسية العربية
  - دعم الجهات التي تعـرّف الشبكـة بخدماتهـا: مشافي الطب النفسي، أنشطة علمية خاضعة لمعلوم تسجيل (مؤتمرات، ورش العمل، ندوات تكوينية) و طلبات التوظيف،
  - دعم الأفــراد و الهيئـات و المؤسسات
  - الإعــلان بما تـوافـق و خــط الشبكــة و استقلاليتهــا

تتلقى الشبكـــــة عــــروض الدعم على بريدها الإلكتروني: arabpsynet@gmail.com

Journal Correspondence

E.mail : APNJournal@arabpsynet.com

P.mail :

Doctor Jamel TURKY

28 Habib Maazoun Street

TAPARURA Building Block "B" N°3

3000 SFAX - TUNISIA

مراســـــلات المجلــــة

بريــد إلكترونـــي: APNJournal@arabpsynet.com

بريــد ورقــــــي:

" الدكتور جمال التركي "

28 نهج الحبيب المعزون

عمارة تبرورة مدرج ب عدد 3

3000 صفاقس - تونس

Arabpsynet e.Journal
Electronic Arab Psy Review Quartly Edition
Towards an Inter-Arab Psy Academic Collaboration
Edited by Cisen Computer Company

EMERITUS PRESIDENT
Pr. Ahmed OKASHA (Egypt)
HONOROUR PRESIDENT
Pr. Yahia RAKHAWI (Egypt)
PRESIDENT
Dr. Jamel TURKY (Tunisia)
VICE PRESIDENT
Pr. Mohamed Ahmed NABULSY (Lebanon)

SCIENTIFIC BOARD :

Psychiatry :
Pr. Tarak OKASHA (Egypt)
Dr. Khalil FADHEL (Egypt)
Dr. Walid SARHAN (Jordan)
Pr. Zine OMARA (UAE)
Dr. Abdelaziz THABET (Gaza/Palestine)
Pr. Adib ESSALI (Syria)
Pr. A. IBRAHIM (Syria / Lebanon)
Dr. Tarak AL-HABIB (KSA)
Dr. Numan GHARAIBEH (Jordan / USA)
Dr. Rita KHAYAT (Morocco)

Psychology :
Pr. Kadri HEFNY (Egypt)
Pr. Abd. IBRAHIM (Egypt)
Pr. Naim ATIYEH (USA/Lebanon)
Dr. El Rhali AHARCHAOU (Morocco)
Dr. Adnene FARAH (Jordan)
Pr. Samer RUDWAN (Syria/Oman)
Dr. Bechir MAAMRIA (Algeria)
Dr. Boufoula BOUKHMIS (Algeria)
Pr. Khaled EL-FAKHRANY (Egypt)
Pr. Qassim SALIHY (Iraq)
Pr. Omar KHALIFA (Sudan)
Dr. Hafedh ELKhamiri (Yemen)
Pr. Salah ALSANIE (KSA)

JOURNAL SECRETARY :
Imen FEKI & Salwa WERTENI

مجلة شبكة العلوم النفسية العربية
مجلة فصلية طبنفسية و علمنفسية محكّمة
نحو تعاون أكاديمي طبنفسي و علمنفسي عربي
إصدار مؤسسة سيزن كمبويتر

الرئيس الفخري
أ.د. أحمد عكاشة (مصر)
الرئيس الشرفي
أ.د. يحيى الرخاوي (مصر)
الرئيس
د. جمال التركي (تونس)
نائب الرئيس
أ.د. محمد أحمد النابلسي (لبنان)

الهيئة العلمية :

الطب النفسي :
أ.د. طارق عكاشة (مصر)
د. خليل فاضل خليل (مصر)
د. وليد سرحان (الأردن)
أ.د. الزين عمارة (الإمارات)
د. عبد العزيز موسى ثابت (غزة/فلسطين)
أ.د. أديب العسالي (سوريا)
أ. د. عبد الرحمان إبراهيم (سوريا/ لبنان)
د. طارق الحبيب (السعودية)
د. نعمان الغرايبة (أمريكا/ الأردن)
د. غيثاء الخياط (المغرب)

علم النفس :
أ.د. قدري حفني (مصر)
أ.د. عبد الستار إبراهيم (مصر)
أ.د. نعيم عطية (أمريكا/لبنان)
أ.د. الغالي احرشاو (المغرب)
د. عدنان فرح (الأردن)
أ.د. سامر رضوان (سوريا/عمان)
د. بشير معمرية (الجزائر)
د.بوفولة بوخميس (الجزائر)
أ. خالد الفخراني (مصر)
أ.د. قاسم حسين صالح (العراق)
أ. د. عمر هارون الخليفة (السودان)
د. عبد الحافظ الخامري (اليمن)
أ.د.صالح بن إبراهيم الصنيع (السعودية)

سكرتيرية التحرير :
إيمان الفقي و سلوى الورتاني

العدد 25-26: شتاء و ربيع 2010

الملف: سيكولوجية التطرف العقائدي — 5

سيكولوجية التطرف العقائدي	سامر جميل رضوان	6
التعصب التحليل النفسي لظاهرة مرعبة	سامر جميل رضوان	9
الملامح السيكولوجية للكره والاختلاف	صالح بريك	21
سيكولوجية المتطرف الانتحاري	عبد الودود خربوش	31
التطرف العقائدي و الارهاب ... مدخل منظور نفسي	قاسم حسين صالح	36
وعي المجتمع والإرهاب: (فراغ جاهز للتفجير)	يحيى الرخاوي	41
التطرف و الإنحراف ... مقاربة نفسية واجتماعية	بوفولة بوخميس	46
الجذور النفسية لجرائم الابادة الجماعية	صلاح كَرميان	51
البنية النفسية للفاشية و الشخصية التسلطية	أحمد مصطفى جابر	57
ملامح سيكولوجية التعصب	قاسم حسين صالح	63
المنظور النفسي و الإجتماعي للعنف السياسي و الديني	علي إسماعيل عبد الرحمن	67
التشدد العقائدي و الوسواس القهري	كلثوم بلميهوب	70
COGNITIVE CONCEPTS APPLIED TO EXTREMIST IDEOLOGY: A SUGGESTED THEORETICAL FRAMEWORK AND PRACTICAL IMPLICATIONS	نعمان غرايبة، يوسف خوري	74

أبحاث و دراسات — 78

مخاطر الترجمة بين تسطيح الوعي واختزال المعرفة	يحيى الرخاوى	79
تقنين قائمة آرون ت. بيك الثانية للاكتئاب	بشير معمرية	92
البنية الذهانية وأعراض الفصام النكوصية ..."دراسة نفستحليلية"	مرسلينا شعبان حسن	106
مشهد علم النفس في السودان في نهاية الألفية	هارون الخليفة، إنعام أحمد	113
قياس الهوية الوطنية لدى العاطلين عن العمل في العراق	فارس كمال نظمي	129
معوقات استخدام الإنترنت لدى الطلبة	زياد بركات	144
INTELLIGENCE IN SUDAN AND IQ GAIN BETWEEN 1964-2008	عمر هارون الخليفة	157
FACTORS CONTRIBUTING IN MARITAL STABILITY	كلثوم بلميهوب	168
PERSONALITY PROFILE OF EFFECTIVE POLICE OFFICERS: AN EXPLORATORY STUDY	عمر العلي،لين قامر،وسام مقادلي	174

تكريم / HONNORING — 181

عدنان حب الله... السيرة و المسيرة	عدنان حب الله	183
من يقتل يلغ ذاته	عدنان حب الله	184
المرض العصابي في التحليل النفسي ودلالته	عدنان حب الله	185
قدسية العذرية و دنس الجنس	عدنان حب الله	189
لماذا الحب؟؟	عدنان حب الله	191
الغَيرة عند الرجل	عدنان حب الله	194
الخطاب الديني في التحليل النفسي وعلاقته بالآخر الكبير	عدنان حب الله	197
الهستيريا و خطاب الانوثة	عدنان حب الله	200
حرب المقدسات	عدنان حب الله	205

مصطلحات العلوم النفسية العربية / PSY TERMINOLOGIES — 208

المعجم الإلكتروني للعلوم النفسية العربية "ث"	جمال التركي	209
E.DICTIONARY OF PSYCHOLOGICAL SCIENCES "E"	جمال التركي	212
E.DICTIONNAIRE DES SCIENCES PSYCHOLOGIQUES "E"	جمال التركي	216

CONTENT

ملف العدد 25&26

سيكولوجية التطرف العقائدي

اشراف: سامر جميل رضوان

وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس

أبحاث في الملف...

الإفتتاحية: سيكولوجية التطرف العقائدي
سامر جميل رضوان
التعصب: التحليل النفسي لظاهرة مرعبة
سامر جميل رضوان
الملامح السيكولوجية للكره والاختلاف
صالح بريك
سيكولوجية المتطرف الانتحاري
عبد الودود خربوش
التطرف العقائدي و الارهاب ... مدخل من منظور نفسي
قاسم حسين صالح
وعي المجتمع والإرهاب: (فراغ جاهز للتفجر)
يحيى الرخاوي
التطرف و الإنحراف ... مقاربة نفسية واجتماعية
بوفولة بوخميس
الجذور النفسية لجرائم الابادة الجماعية
صلاح كَرمان
البنية النفسية للفاشية و الشخصية التسلطية
أحمد مصطفى جابر
ملامح سيكولوجية التعصب
قاسم حسين صالح
المنظور النفسي و الإجتماعي للعنف السياسي و الديني
علي إسماعيل عبد الرحمن
التشدد العقائدي و الوساوس القهري
كلثوم بلميهوب
Cognitive concepts applied to extremist ideology: A Suggested theoretical framework and practical implications
نعمان الغرايبة
يوسف الخوري

الإفتتاحيــــــــــــــة

سيكولوجيـــــــــــة التطـــــــــرف العقائـــــــــدي

أ.د. سامـــــــر جميـــــــــل رضـــــــوان – دمشـــــق، سوريـــــا

srudwan@hotmail.com

بســـم اللــه الرحـــــن الرحيـــم

الزملاء والزميلات: تحية طيبة وبعد

كان لي شرف تكليفي من الزميل الدكتور جمال التركي بالإشراف على عدد التطرف، وأحسست بالتحدي والمسؤولية الكبيرة، إلا أني كنت متفائلاً بدرجة كبيرة من أن المهمة ستكون سهلة إلى حد ما كون التعصب والتطرف من الظواهر التي أصبحت تكاد تكون متجذرة في بنية ذاتنا الاجتماعية وأن النفسانيين والاجتماعيين والأطباء المهتمون سيسهمون كل من زاويته بإلقاء الضوء على **ظاهرة من أخطر الظواهر التي عرفتها البشرية عبر العصور** و نظراً للجذور التاريخية والنفسية والاجتماعية للتطرف المنتشرة في المجتمعات البشرية ومن بينها مجتمعاتنا العربية، التي تعاني من **وصمة التطرف** وتسهم فيه بدرجات تبعث على القلق. إلا أن **الخيبة كانت كبيرة**؛ إذ أن الهمم لم تشحذ كما كان متوقعاً وما أرسل من مواد لم يكن من العمق ليرقى إلى حجم هذه الظاهرة، وبدا وكأن الأمر لايلفت نظر العاملين في هذا الميدان أو لايعد ميداناً يمكن للاعبين فيه أن يتحركوا ضمنه بدرجة من الحرية، وكأن الواقع ظاهرة خارجة عن إطار الوعي ليظل علم النفس علماً يمارس خارج إطار الذات. وما يلفت النظر أكثر هو ذلك الكم الكبير من التعليقات والطروحات التي نقرأها عندما يتعلق الأمر بقضية تدور حول ترجمة مصطلح ما أو حول قضية ثانوية، عندئذ تنبري الأقلام وتشحذ الهمم وتتصاعد الآراء وتتشكل المدارس، ونبدو وكأننا نريد اختراع العجلة من جديد. وتم تأجيل صدور هذا العدد لأكثر من مرة وتمت مخاطبة الزملاء للإسهام إلا أن الأمر لم يجد الصدى المتوقع. ولم يكن الحال أفضل بالنسبة لي، كمشرف على هذا العدد، فقد كانت كانت الأسئلة التي يطرحها التطرف من الناحية النفسية كثيرة ومتنوعة طرحها الكتاب الغربيون وحاولوا إيجاد الإجابة عنها كل من ميدانه:

لماذا يتحول البعض في المواقف الاستبدادية الاستثنائية إلى بشر متوحشين ساديين؟

لماذا ينشأ الإرهاب في بعض الجماعات المقموعة من الشعب و لا ينشأ في جماعات أخرى أكثر فقراً؟

- **لماذا يستجيب الشبان مرة بحساسية متطرفة إلى حد كبير و في مرة أخرى بلامبالاة متطرفة**
- **على الإغراءات الهدامة؟**
- **لماذا تصبح الأقليات العرقية أو الدينية أو المذهبية أو السياسية موضوعاً لتطرف العقائدي الذي يتم إسقاط الشر المطلق عليه؟**
- **ما هي القوى الشعورية واللاشعورية الكامنة خلف النزعة الإنسانية نحو التطرف؟**
- **ما الذي يجعلنا جميعاً نمتلك الاستعداد للتعصب؟**

- **كيف تحصل من جهة أخرى لدى عدد محدود من الأفراد تطورات تعصبية في الشخصية، ذلك التصلب و التضيق للهوية ليصبح الأمر مقتصراً على وجوب تنفيذ القناعات والواجبات التي تم منحها صفة القداسة؟**
- **وكيف يمكننا أن نصبح أكثر يقظة تجاه الكاريزما Charisma الهدامة ونحصن أنفسنا من الإغراءات المتجددة باستمرار للغوغائية Demagogy و إيهام الجماهير؟**

وكان علي أن أبحث عن الإجابة لديهم بداية، فكانت أعمال **بيتر كونسن** موجهاً لي سواء في كتابه عن التعصب أو مقالاته حول الموضوع نفسه، أو كتابه حول **إيريك إيركسون** الذي ترجمته للعربية وصدر تحت عنوان **"البحث عن الهوية"** في 2010.

لقد كان موضوع **التعصب والتصلب والجمود في الشخصية موضوعاً محورياً في علم النفس** منذ بداياته، وشغل جزءاً كبيراً من أعمال المحللين النفسيين الأوائل واللاحقين. ورأوا الجذور الكامنة وراءه في **التربية المتسلطة** القائمة على العنف والقهر، تلك التربية التي صبغت البشرية منذ فجرها بأشكال مختلفة من الحقد والكره الأعميين وسببت للبشرية عبر تاريخها الكثير من المآسي.

حتى أن بعض المتخصصين يرى أن **تاريخ الإنسانية هو في الوقت نفسه تاريخ التعصب**، وأن المتطرفون على اختلاف ألوانهم في عصورهم قد تسببوا بمصائب أكبر مما سببه كل الأوغاد و السيكوباثيين مجتمعين.

تعد المعالجة العلمية الجذرية لظاهرة التعصب و تفسيرها و الوقاية منها ملحة أكثر مما كان عليه الحال حتى الآن. فالعصبية مرتبطة بكل مظاهر الطبيعة الإنسانية، المريضة والسليمة، الشعورية اللاشعورية، المنطقية و غير المنطقية. و يمكنها أن تظل مغلفة أو تنفجر متأججة، تختار الأفراد أو الجماعات أو الجمهور كله. **وتنبثق النزعة للتطرف و للانقسام والإسقاط من أعماق النفس الإنسانية.** إلا أنه يتم **تشكيل الأفكار التعصبية من المجتمع و التاريخ**، وليس من النادر أن يتم تأجيجها من المؤسسات السلطوية و استغلالها لخدمتها. و ربما يكون التعصب هو الأكثر غموضاً من بين كل العواطف الإنسانية.

وعلى الرغم من الاهتمام علماء النفس الغربيين بظاهرة التطرف والتعصب العقائدي فإن علماء النفس العرب لم يولوا الاهتمام الكافي لدراسة هذه الظاهرة دراسة علمية موضوعية. وهناك أسباب كثيرة كامنة خلف هذا الموقف "النفسي"، تتمثل قلة الحيلة في تسخير العلم "الغربي" لدراسة ظواهر نفسية واجتماعية ضاربة في جذورها في بنية وصميم المجتمع وبنيته الأساسية، والخوف من مقاربة هذه الظاهرة وتحليلها التحليل العلمي حيث يمتلك الفكر التعصبي آلياته الإسقاطية والتأويلية الخاصة التي تهدد حياة كل من يحاول استثارة المكبوت وتوضيح أن **الفكر التطرفي المتعصب**، سواء أكان دينياً أم سياسياً أم قومياً أم عشائرياً لا يمكن أن يكون همه الأساسي القضاء على الشر الكامن في العالم وإعلاء كلمة الله أو استعادة كرامة الشعب أو تحقيق العدالة أو الحفاظ على وحدة الأمة وإنما هو **ميل أو اتجاه يحارب فيه المتطرف الشر والحقد الكامن في أعماقه نفسه، ذلك الشر الذي لا يستطيع مواجهته فيسقطه على العالم الخارجي**، في ثنائية قاطعة، يمثل فيها **الداخل الخير المطلق، والخارج الشر المطلق**، ويجد هذا الفكر في الدين أو الإيديولوجية الدوغماتية أو العشيرة **السماد الملائم ليمنح ميله شرعية مطلقة وقداسة لا يطالها شك.**

لقد تم حشرنا كعرب في دائرة الدفاع، فأصبحنا نجد أنفسنا في بعض الأحيان وبصورة لا شعورية في موقف المدافع عن ظاهرة من أخطر الظواهر الإنسانية، وتجلت ردود أفعالنا في محاولة الدفاع من خلال عزو الأمر إلى الظروف السياسية والاقتصادية وتسلط القوى الكبرى، وسحرتنا نظرية المؤامرة إلى درجة أننا أوهمنا أنفسنا بأننا مسيرين لخدمة أهداف سياسية

خارجية وراق لنا دور الضحية السلبية المنفعلة، فأصبحنا وكأننا لاشعورياً نبرر أو ندافع عن ظاهرة، ندرك نحن أنفسنا مدى خطورتها علينا وعلى مجتمعاتنا وأمننا الاجتماعي والنفسي.

أتقدم بالشكر للزميل جمال التركي، الجندي المجهول الذي لم ييأس بعد ومازال يواصل ما عجزت المؤسسات عن تحمله، ولتكليفي بالإشراف على هذا العدد الذي وجه اهتمامي أكثر نحو بحث أعمق وفهم أكثر من زاوية مختلفة أتمنى أن أجد من يتابعه. كما أتقدم بالشكر للزملاء الذين قدموا مساهماتهم التي أغنت العدد **لعلها تكون بداية محاولة أكثر تأصيلاً لظاهرة لم يعد بالإمكان التعامي عنها، تحت أي مبرر.**

والله من وراء القصد

جائـزة البروفيسـور" عبد الستـار إبراهيـم" لشبكـة العلـوم النفسيـة العربيـة 2010

يشرفني إعلامكم تأسيس **"جائزة شبكة العلوم النفسية العربية"** والتي تحمل دوريا اسم علما من **"أعلام العلوم النفسية العرب"** لتكون جائزة 2010 **" جائزة البروفيسور عبد الستار ابراهيم لشبكة العلوم النفسية العربية ".**

بالمناسبة نعلمكم فتح باب الترشح للجائزة في دورتها الأولى وفق الشروط التالية:

- تمنح الجائزة **لشخصية عربية مختصة في العلوم النفسية قدمت خدمات جليلة لتطور العلوم النفسية العربية** (طب نفسي- علم نفس) في **العشرية الأخيرة 2000- 2009**

- يرفق طلب الترشح " العمل الذي رشّح للجائزة " وتحديد مدى الإضافة التي ساهم بها عمله في تطور العلوم النفسية العربية، مصحوبا بسيرة علمية حديثة ومفصلة عن تنص نشاطه العلمي، منشوراته و مؤلفاته (مع ملخصاتها)

- تسند الجائزة مؤقتا **"كل سنتين"** وتسلم للفائز بها على هامش أحد مؤتمرات الطب النفسي أو علم النفس (لا تتحمل الشبكة مصاريف نقل وإقامة الفائز لحضور المؤتمر الذي ستمنح فيه الجائزة)..

- تتألف الجائزة من **"رمز للشبكة"** مع **"مكافأة مالية قدرها 1000 دولار".**

- يفتح باب الترشح لجائزة **2010 بداية من 2010/04/01 إلى غاية 30 /2010/07**

- **تقديم الترشح شخصي**، لا يقبل ترشيح الهيئات و المؤسسات لشخصيات دون علمهم أو بالنيابة عنهم

- يعلن على الفائز بالجائزة **نهاية سبتمبر 2010**

ترسل **ملفات الترشح باسم رئيس الشبكة** و تكون بالتزامن على عناواني الشبكة ورئيسها (لا تقبل إلا الوثائق الإلكترونية).

arabpsynet@gmail.com

turky.jamel@gnet.tn

تتكون **"لجنة تحكيم الجائزة"** من أعضاء الهيئة العلمية الإستشارية للشبكة

يحق لأعضاء الهيئة العلمية الإستشارية للشبكة الترشح للجائزة إلا أنهم يفقدون عضويتهم آليا من هيئة لجنة تحكيم الجائزة.

تحجب الجائزة إذا قدرت الهيئة العلمية للشبكة إن ما قدم من أعمال لا يرقى إلى مستواها.

تفضلوا تقبل أصدق مشاعر المودة والتقدير والاحترام

دمتم سندا والمعرفة

الدكتور جمال التركي
رئيس شبكة العلوم النفسية العربية

التعصـــــــــــــب: التحليـــــــل النفســـــي لظاهـــــــــرة مرعبـــــــــــــة 1

بيتـــــر كونتســـــــــن

ترجمـــــــــة: أ. د. سامـــــــر جميـــــــــل رضـــــــــوان – دمشـــــــق، سوريـــــا

srudwan@hotmail.com

Summary: The terrorist attack on September 11th, 2001 shattered the illusion that in a technical-rational world of the future fanatical hate will become a calculable factor. The coactions between fundamentalist spirit and weapons of mass destruction accrue to undreamed threatening scenarios. A profound analysis of the phenomenon "fanaticism" is today more urgently needed than ever before. This essay wants to give an overview about nature and contents of the fanatical, work out the unconscious motives behind extreme convictions. In the second segment an epigenetic theory is developed by the gradual growth of a radical potential in the stages of the life cycle as it can harden under special historical and biographic conditions in fanatical attitudes.

ملخص: زعزع اعتداء 11 سبتمبر عام 2001 الوهم المتمثل في أنه في عالم الغد التقني-العقلاني سوف يصبح الحقد التعصبي في عالم الغد التقني-العقلاني عاملاً محسوباً. فمن تفاعل ذهنية متطرفة و أسلحة التدمير الشامل انبثقت سيناريوهات تهديد غير متوقعة. و تبدو اليوم المعالجة الجذرية لجوهر الفكر التعصبي أكثر إلحاحاً من أي وقت مضى. و هذه المقالة تسعى إلى إلقاء النظر حول جوهر و محتوى التعصب وتوضيح الدوافع اللاشعورية الكامنة خلف القناعات المتطرفة. وفي الجزء الثاني سوف نقوم بتطوير نظرية تخلقية عن النمو التدريجي لاحتمالية التطرف في أطوار المراحل الحياتية، و كيف يمكنها تحت ظروف تاريخية و تاريخ حياتية محددة أن تتصلب إلى اتجاه تعصب.

تمثل الأصولية الدينية الممتدة عبر العالم و الأخبار اليومية المرعبة حول العنف الناجم عن الإرهاب إحدى الظواهر الباعثة على القلق في عصرنا. فأي حقد تعصبي غير معقول يدفع أناس، ينطقون باسم الله، إلى تحويل طائرة ركاب إلى صواريخ كروز أو يجزون رؤوس الأبرياء أمام الكاميرا أو يطلقون النار على ظهور أطفال مدرسة هاربين؟

يتملكنا الخوف و الغضب فيما يتعلق بتحقيق آخر إمكانات الشر. علينا أن نتعلم كره السلوك الشرير، من دون أن نتحول بأنفسنا إلى مبررين فظيعين أو قضاة زوريين (بارانوئيين). فجعل "القوى الشريرة" في العالم الثالث هي وحدها المسؤولة عن تفجر الوضع العالمي الراهن، وكأنه لم يحدث في أوروبا حرق للسحرة أو الهمجية الفاشية أو وكأن أسلحة الدمار الشامل لم تطبخ في مطابخ سم القوى الكبرى، سوف يمثل ادعاء خطيراً بالعصمة.

فالاعتراف بميولنا التعصبية كلها لابد وأن يشكل اليوم الشرط الأساسي لكل حوار إنساني.

ولكن ما الذي يكمن خلف النزعة الإنسانية للتعصب؟ كيف يمكن أن تتكرر باسم الدين أشد أشكال العنف، ما الذي يحول مناضلو الحرية إلى متعصبين قساة، هل تقود الجماهير نفسها إلى حتفها؟

و بغض النظر عما إذا كانت الجرائم و الضلال تبدو مرضية (باثولوجية pathological) أو جرمية، فعلينا ألا نقلل من قيمة جانب التأثر الديني المنحرف. ففي الكلمة "التعصب" تكمن 'fanum". وبالأصل كان "fanatici" هم الذين تحولوا في محيط المعبد من قبل عفريت إلى حالة من الحماس المستعر. فالأمر يتعلق بإمكانية رهيبة "للحالة الإنسانية Conditio humana"، بالانزلاق في شر لايرحم، قهري و مطلق إلى حد ما.

لقد شهَّر مفكرو التنوير و في مقدمتهم فولتير بعدم التسامح و الانتقام و عدم الحب عند المتعصبين والاندفاع المغلف بالكره للتعصب المقدس. إلا أن محاولة تحقيق النظام السياسي المحكوم بالمنطق بالقوة، أو فصل الروح عن جذرها اللاعقلاني–الغامض يوقظ أشباح جديدة.

ومع المحاكم الثورية وحفلات الردح القومجي في العصر الراهن و السيناريوهات الكابوسية للدول الشمولية و الحرب الشاملة حل التعصب الديني محل التعصب السياسي، و غالباً ما كان هذا التعصب الديني متجاوزاً التعصب السياسي بالبشاعة و الاستعداد البارد للتدمير. ويبدو أن الإرهاب الراهن قد اتخذ لنفسه منبعاً جديداً كلية، ويظهر بوحشية جبارة حاصداً عدداً كبيراً من الأرواح. فما العمل ضد ظاهرة تتنصل من كل قيم التسامح و اللاعنف؟. "فالحرب ضد الإرهاب" هي دمار مستحيل و تؤجج ذلك التعصب بالذات الذي تريد محاربته.

كما ينبغي للنضال ضد الفقر و الحرمان و فقدان المعنى ينبغي أن يتحول لواجب عالمي بمقدار الدراسة الأعمق لاستعداداتنا للتعصب والعنف اللاعقلانية. ولكن "من يده في النار غير الذي يده في الماء". إذ أن التعصب في الإنسان بالذات يتجلى بأشكال و ألوان مختلفة، ويرتبط بدوافع متنوعة و قد يتستر بمظهر حذق، بحيث يكون من الصعب الوصول إلى تعريفات وتفسيرات علمية موحدة أو حتى تقديم وصفات. ومن المؤكد أن نشوء وتفاقم الظواهر التعصبية يرتبط بدرجة كبيرة بالفقر و التفقير و الأزمات الاقتصادية، إلا أنه لا برجوازيي منظمة الألوية الحمراء ولا معتدو الحادي عشر من سبتمبر ذوي الأوضاع الجيدة كانوا مدفوعين بأية أزمة اقتصادية في أفعالهم الجنونية.

و مازال حتى الآن أولئك الذين يتحجرون بهذا الشكل إلى درجة أنهم يبدعون برؤية الموت والقتل وسيلة مشروعة لجهادهم بعض من قلة. و قد يستطيع التحليل النفسي وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا الثقافية و علماء التاريخ أن يقدموا مساهمتهم المثمرة في السؤال عن الاستعداد النفسي بالتحديد و عن الدوافع اللاشعورية الكامنة خلف الانفجار التعصبي المفاجئ إلا أنه يظل هناك شك في أن ينزلق المرء في خطر التقليل من هول الأمر و الإساءة للضحايا. ولكن ترك الظاهرة في مجال القوى الغيبية قد يعني الغدر بأحد أوجب المطالب للتفسير. ويظل واجبنا بفتح سراديب الفهم المنطقي في العواطف الإنسانية الأعمق و الأكثر وحشية، مع معرفتنا بأننا سنعثر يوماً ما على منطقة الشر المفجع.

جوهـــــر التعصـــــب –الشخصيـــــات التعصبيـــــة

هناك عدد كبير من الظواهر يتم اليوم التعبير عنها تحت مصطلح "التعصب Fanatic " أو "التعصبية Fanatism[1] فإرادة التحمل عند الرياضي المفرط، و الخطبة الورعة لمغال طائفي أو تبرم المواطن العادي، أو الشغب في ملعب كرة قدم غربي أو ردة الفعل الجماهيرية الغاضبة بعد صلاة الجمعة عند المسلمين. ولكن ما الذي ينتمي في السلوك المتطرف إلى التعصب الفعلي ومتى تتحول القناعة السليمة إلى أصولية fundamentalism متزمتة و هل التعصب هو نوع من الأصولية المفرطة، يشبه الهياج في جانبه العنيف؟

فجوهر التعصب هو الاستحواذ بقناعات عاطفية متصلبة بشدة، تعشش في لب الهوية و تتجلى نحو الخارج بعدم التسامح من دون أي استعداد للحوار و الحلول الوسط، و غالباً ما تترافق مع زوال الكبح نحو العنف المتزايد باطراد. و بشكل أكثر مما هو الأمر في الأصولية يتعلق الأمر باستكشاف الحقيقة عند الخصم، و مناقشته –بنفس مرتفع مطلق الذاتية، وتعقّبه و تدميره في الحالة المتطرفة. و قد ميزت أبحاث التعصب بين التعصب الفردي و الجماعي والجماهيري و التعصب الديني و السياسي و الأخلاقي، وصنفت أشكال التعصب من نحو التعصب "الحامي" و "البارد" و "الصامت" و "الصريح". أو بنى الشخصية "العميقة" و"الواضحة" (قارن Bolterauer,1989; Hole 1955; Conzen,2005). وعليه فإن **الاندفاعية المتعصبة** لدى **المتعصبين الأصوليين** هي وليدة الاستعداد الداخلي على الأغلب، أي سمات معينة من الشخصية بالتوليف مع مصير دافعي أو أسري محدد. وغالباً و في موقف داخلي أو خارجي متأزم تداهمها رؤية أو تكليف أو رسالة متحيزة ثائرة. إن الإحساس بأن الإنسان هو وسيلة لقوة عليا، أنه صوت الله، كثيراً ما يمنح ظهوره إيحائية عالية. فكثيراً ما كان التأثر الحار بالأفكار قد حرك تغيرات فنية وسياسية و علمية. وطبقاً للرأي الهيجلي بأنه لا شيء عظيم في تاريخ البشرية قد حدث من دون عاطفة (معاناة)، فلابد لنا من عدم إنكار مقدار الحنق و البحث عن التوافه في الشخصيات المقدسة و الكارزميين السياسيين. و من ناحية أخرى تجد البرودة و غضب الإرادة و الاندفاع بالكره لدى المتعصبين الأصوليين بواعث متجددة باستمرار لمآسي كبرى. و بالتحديد في مواقف الأزمات تتلقف الشخصيات الديماغوغية بمتلازمة النرجسية الخبيثة malign Narcism (قارن Kernberg ,1998) المبادرة، و تستمد من التأثير بمخاوف و استياء resentment الجماهير العريضة شعوراً شاذاً بالقوة، و تتحول دائماً في عصورها إلى مبشرة بالشر.

ويختلف عن ذلك المتعصبون الأصوليون: فهنا يتم غرس الخلجات– العاطفية من الخارج في هويتهم. و يحصل انفجار التعصب من خلال الاتصال بحركة متطرفة أو هيئة تبدو كارزمية و تحظى عندئذ بديناميكيتها الخاصة. و غالباً مايتعلق الأمر ببشر، مهددين بالفراغ النرجسي أو معذبين من أنا أعلى سادي، بحاجة عميقة للانتماء و الإيمان و إن كانت في الوقت نفسه مستحوذة بالاستياء. و بالتحديد في أوقات الأزمات والارتباك والشك ينبثق المتعصب الأصولي، الذي يعاش منقذاً، كالضوء، يعيد بضربة واحدة المعنى والاتجاه إلى الوجود المهشم المبعثر. و في نوع من "هذيان التفاهة" المتزايد يجعل مثل هؤلاء الأشخاص أنفسهم بلا شرط أدوات في يد جهة مؤلّهة، مستعدون لبذل كل الجهود والمكروهات في سبيل الحصول على الحماية والاعتراف. ويصبح موضوع الولاء التعصبي هو خدمة الجماعة، "القائد"، "الحركة". مع التنازل عن التفكير المستقل و الخلجات الضميرية المستقلة و ليس من النادر مع إزالة مطردة لكوابح النزوعات الجنائية.

و لا بد هنا من تمييز **متعصبو الواجب**، المستحوذون بالعاطفة، الذين يرون أنه من يصونون شيئاً ما عظيماً، فكرة قائمة، اعتقاد ما أو أخلاقاً معينة و يدافعون عنه و يعملون على نشره بتأثيرهم المتحمس. فكل شيء ينبغي له أن يسير مائة بالمائة بشكل دقيق وأصيل، عندئذ يمكن للفكرة أن تتفتح بكمالها الكلي. ولنتأمل الولاء المطلق للشكل لدى الفنانين والإيمان الحرفي لدى المرائين بالدين و العناد أو الاستبياع، الذي يحاول فيه الإيديولوجيين إخضاع الواقع المنفر لطوباويتهم. و هنا يتجلى بصورة خاصة أحد مصادر التعصب المتمثل في الانقسام بين الأجزاء الناضجة و الأكثر بدائية للضمير. فمتعصبو الواجب غالباً ما يمتلكون حكماً شخصياً متمايزاً و جمالية مرتفعة aestheticism و إحساساً مرتفعاً بالقيمة. إلا أنه حتى أبسط الانحرافات، أقل أمر مرتجل Improvisation يستثير حنقاً شديداً و انتقاداً لاذعاً من الأنا الأعلى، غالباً وصولاً إلى نقطة يبدأ فيها الكره و الامتعاض resentment بافتراس قيمة الفكرة. ويمكن لأخلاقيو المبادئ المتعصبون في قمة الجماعة أن يحدثوا تطورات وخيمة العواقب. و يمثل كالفين Calvin أو روبسبير Robespierre[2] نموذجان أوليان لإثارة الوحشية الباردة في خدمة مثل أعلى طاهر تعصبي.

ولدى **المتعصبون القهريون** بالمقابل يظهر تعصب مستحث أو مستثار induce في شكله البدائي primitive الأشد وحشية على الأغلب. إنهم "الأتباع" التقليديون، الجلادون، مجرمو المكاتب و الأتباع المنفذون، الذين يوصون بفعل أي شي بلا شروط و من دون أي استناد معمق لعالم القيم و يحققون بهذا المعنى و الأهمية لوجودهم التافه. التعصب هو النزعة نحو إرضاء السلطة تحت كل الظروف، تنفيذ مهمة معطاة بأكبر سرعة قدر الإمكان، بفاعلية من دون أي تفكير. و غالباً ما ترتبط لدى هذه الشخصيات الإرادة الحماسية السادية بالطموح للسلطة و شهوة الكسب. و يختلف الأمر لدى متعصبو الواجب فهم أسرع استعداداً لتبديل الجبهات، و إنكار ماضيهم فيما بعد، إذا ما بدت لهم السلطة التي كانوا يقدسونها بشكل أعمى ضعيفة. وغالباً يشكل المتعصبون القهريون في الأنظمة الشمولية المصفاة الداعمة بين فكرة عصمة الطاغية infallibility ideal of dictator و بين الواقعية الفجة لعالم القتل، ينفذون من دون اعتراض، من دون أي إحساس بالضحية العمل القذر. فمن بين زبانية أمن الدولة النازيين في العالم الذهاني لمعسكرات الاعتقال كان هناك خبثاء[3] أذكياء intelligence Cynic و في الوقت نفسه سيكوباثيون متوحشون. جميعهم خضعوا بلا شروط "لإرادة القائد"، جميعهم أغلقوا المنطق النقدي، الذي كان يفترض له أن يسجل مباشرة جنونية أعمالهم. ورؤية هؤلاء البشر على أنهم مجرد عجلة صغيرة في آلة كبيرة قد يعني التماهي مع تبرير أنفسهم الشاكي. لقد كان محترفوا الوحشية من نحو هوس Hoess أو آيشمان Eichmann كمال الشر Perfectionist of Evil، سخروا كل طاقتهم و خيالاتهم الشاذة في تنظيم المذابح الجماعية.

التعصـــــب الجماعـــــي والجماهيـــــري

يوجد **التعصب الجماعي** في كل مكان تمثل فيه الاتجاهات والأهداف المتطرفة جوهر إيديولوجية المجموعة و متبنية باطراد متزايد العنف نحو

الداخل والخارج. و المبدأ الساري هنا هو المبدأ المطلق في مكافحة الشر باعتبار المجموعة رأس حربة الخير، ومن أجل ذلك لابد للفرد أن يخضع، أن يسخر كل طاقاته ويضع نفسه تحت تصرف المبدأ المشترك. وبالتحديد في الطوائف أو المذاهب الدينية والسياسية أو في دوائر القيادة في السلطة المطلقة نلاحظ تضارب وخيم بين التعصب الأصولي originary Fanatism للزعيم و بين التعصب المستحث (المُحدَث) induced Fanatism لأتباعه. فهؤلاء الأتباع يدعمونه في هوامات العظمة و في التحريف الزوري (البارانوئي) للواقع، يستغلون مخاوفه وضعفه، يتنافسون في تنفيذ إرادته بطاعة متعجلة. مقابل هذا تتم حمايتهم من القائد، وتعزيزهم ويمكنهم أن يعززوا من قيمة أنفسهم بشكل نرجسي مصطنع تحت ألق عزه الهدام. وبما أنه لا يمكن على الإطلاق تحقيق هدف العدالة الكاملة، تصبح الحرب ضد صورة العدو أشد وحشية باطراد، و فقدان الإطار الواقعي أكثر بروزاً. وليس من النادر أن يتوه تعصب الجماعة في حيرة ويأس وينفجر –ولنتأمل الذبح الجماعي لطوائف "نهاية الزمن" أو حمامات الدم التي يسببها القاتل الراكض (آموكAmok)- في تصفية أخيرة مدمرة.

وهناك مجموعات متطرفة أخرى تعتبر نفسها على أنها منظمات نضال و مؤسسات تأهيل وشبكات خلاقة creative Network في الوقت نفسه. و تسعى بعناد نحو هدف التحرر من السيطرة الخارجية و تقرير المصير الوطني و غالباً ما لا يستطيع المرء في البداية وصف أعضاء مثل هذه الجماعات بالمتعصبين العميان. فبعضهم يوحي مظهره بالهدوء و الذكاء والمتعاطف ولا يطالبون إلا بالعدالة لأنفسهم ولشعبهم المقهور. إلا أنه بداية عندما يشتعل موضوع الكفاح تتفجر فيهم القسوة النفسية.

و التعصب الجماعي المدعوم و المنمى منهجياً من المنظمات الاستبدادية غالباً ما يكون وحشياً و غداراً. و لنتأمل هنا فرق البلطجة شبه العسكرية ووحدات الدعاية و المراقبة و التصفية لأمن الدولة النازي أو الألماني الشرقي أو الأجهزة الأمنية الأخرى الذين قاموا بتصفية كل المعارضين والمقاومين وغير المرغوب فيهم، ومن ثم عملوا على تأمين الهدوء للدكتاتور. وغالباً حتى ضحايا الإهانة و التدريب العسكري يأتي يوم يتماهون فيه مع أعضاء مثل هذه المنظمات بصورة شبه إلهية– مستكبرة مع هوامات السلطة المطلقة، جاعلين من ضحاياهم مساحات إسقاط[5] للخجل و مشاعر النقص التي يبدو "بحق" أنهم يلاحقونها و يعذبونها ويدمرونها في ضحاياهم.

و نتحدث عن **التعصب الجماهيري** عندما تستحوذ على مجموعات كبيرة من الناس حالات مشاعر عاطفية هائجة و قناعات عمياء. و قد يكون التوكيد مرة أكثر على الحماس الهوسي في لحظة الحمية و الهياج و الحماس والصخب –بدءاً من الغاضبين الراقصين في العصور الوسطى و انتهاء بطقوس العربدة التضحية بالنفس في العروض الغنائية الإليكترونية لعصرنا. أو يغمر الاستنكار والغضب و الحقد على الجمهور، الذي يمكن أن يتحول بسهولة إلى عنف فاسق و سعار تدمير. و في حالات الجمهور يكون خطر العدوى بالخوف من المتعصبين أكبر ما يكون. فأي بؤرة أو دوامة جماعية من المشاعر البدائية تكتسح المشاعر الأخلاقية وتعطل المنطق. وكل ما تم بناؤه وتشكله عبر عقود من الهوية المتمايزة في الشخصية يبدو في ضربة واحدة في مهب الريح (قارن Mitscherlich, 1977). إن ما يقلب الجمهور في الأوضاع الاستثنائية ليس الشعور بالصلة أو الارتباط الليبدوي (Freud,1922) فحسب، وإنما كذلك نرجسية مفرطة الشدة، قدسية تقريباً، "الذات الجمعية المتضخمة grandiose Groups-Self" (Kohut,1973)، و ارتفاعها من خلال الإحساس بالقرب الجسدي و مشاعر قوة "المجموعة الفيزيائية" (Kakar,1997). ولكن الشعور الجمعي بالقوة بالذات سرعان ما ينتهي على سبيل المفارقة باستعداد تخديري للخضوع. لقد كان تحويل الجماهير إلى قوة صادمة سياسية وتعصبية حماسية هدف كل الديماغوجيات[6] demagogy (مهيجو الجماهير) في جميع العصور و أخذ في القرن العشرين صفة التجربة العلمية – لاعقلانية التقنية المتطورة the High tech irrationalism للاجتماعات الثقافية الفاشية–.

التعصـــــب الدينــــــي و السياســــــي و الأخلاقــــــي

يبدو **التعصب الديني** الذي يستنزف نفسه في مكافحة الشك و استئصال الشر، وكأنه الشكل البدائي أو الأصلي للتعصب الإنساني و شعلة التاريخ. و بالذات فإن جهاد الديانات التوحيدية monotheist Religion في سبيل الدين الوحيد الصحيح كلف مجازر hecatombs و دماء وخلف جراحاً عميقة في النفس الجمعية لليهود و المسيحين والعرب. و لكن حتى الديانات الآسيوية التي تبدو متسامحة –ولنتذكر هنا المذابح بين السيخ والهندوس أو إرهاب طائفة الأوم Aum-Sect– أظهرت انحرافات عميقة في الميل البشري للإيمان. ومن المؤكد فإن جزء كبير من الشطط يقوم على سوء استخدام instrumentalization التعاليم الدينية لأغراض غير شريفة أولاً وأخيراً. و ليس هناك من شيء يمكن تهييجه واستثارته في أوقات الأزمة مثل جرح المشاعر الدينية؛ فليس هناك أي مطلب بالسلطة أو أنا الجماعة أشد منعة من تلك التي يتم تشريعها من الله؛ و ليس هناك من صورة للعدو يمكن تشويهها أكثر من رميها "بالكفر" أو "الإلحاد" أو "باستحواذها بالشيطان". يضاف إلى ذلك أنه يكمن في جوهر الخبرة الدينية ذاتها شيء من التطرف، في شكل لا يجيز أي شك أو تشكيك على الإطلاق. ومن يؤمن بحقيقة الله فإن الدفاع و نشر الدين غالباً ما يصبح ملزماً بالنسبة له. ولكن متى تتحول العقيدة إلى الخرافة، و التدين الصحي إلى التطرف، و الزهد إلى مازوخية معذبة لذات؟

فمن حيث المبدأ إذا كانت التعاليم الدينية تريد تقوية الحياة، تقوية مبدأ التوالد Generative ضد الشذوذ الممكن لطبيعة الدافع الإنسانية (قارن Erikson, 1981)، فإن الدين بالأصل كما يرى شاسيغوت–سميرغل Chasseguet-Smirgel (1989) أقوى حصن ضد سيطرة وسيادة الشر. إلا أن النزعة بالذات نحو تصوير و تجسيد الشر على هيئة الجن و الشياطين والأرواح الشريرة يمكن أن يؤدي إلى انقسامات خطيرة. إذ أنه يصبح من السهولة بمكان إطلاق شبهة الارتباط بقوى الشر على الأشخاص أو على جماعات إنسانية كاملة غير محبوبة و يصبحون وقت الجد معرضون للانتقام البدائي. والنصوص الدينية المقدسة تحث على الإيثار وحب الغير و التسامح و الرحمة و تحذر من ادعاء العصمة و سوء استغلال السلطة والإسقاط سيء النية، وهي نصوص دائماً ما يتجاهلها المتطرفون على سبيل المفارقة. فلا يوجد أي دين يستطيع منع أن يقوم أفراد متطرفون بنسج صورة للعالم من قطع دينية، يتحول فيها الله من حقيقة محبة–متسامحة إلى هيئة والدية مرعبة، وكأنه أنا أعلى سادي مسقط على السماء. وبشكل أقرب ما يكون للحتمية لابد للمتعصبين الدينيين أن يسقطوا الشر الكامن في صدورهم والشك الذاتي و نزوعاتهم الدافعية و نزعاتهم التمردية على الآخرين و يقاومونه هناك بالنيابة. فإذا ما شجعت تركيبة تاريخية ما على الجهاد، فإنهم يشاركون بوصفهم "عبيد أوفياء" لله على الخط الأمامي للجبهة. وما زالت حتى الآن برودة وغدر ملاحقة السحرة و الاستجوابات، و اليقين الراسخ للمدعي و هلع الضحايا و السادية المتصاعدة للممارسات التعذيبية و الاعتراف الإجباري و الاتهامات التي جعلت الهذيان يتحول إلى جائحة تتجاوز كل قدراتنا على التصور.

في النتيجة التاريخية الوخيمة للتعصب الديني، الاضطهاد و المذابح و الحروب المقدسة صهرت العقيدة –باعتبارها المالك الوحيد للحقيقة– الناس في اتجاه attitude عدم التسامح المتطرف، حيث يسري مبدأ الدفاع عن قضية الله، الدائمة التبني، ضد أعداء الدين. فيتشابك الكره مع السادية

اللامتناهية ضد "الكفار" و الأقليات و مجموعات الخصوم، التي ينبغي تحقيرها و إهانتها و استغلالها و تدميرها بلا تبصر بوصفها "المادة الحاملة للشر". فقد خطر على بال فولتير Voltaire في زمن فرسان الصليب "كل أوروبا تزحف نحو آسيا و طريقها مشرب بدماء اليهود". وفي الواقع فإن التعاليم الدينية قد جعلت الأمر صعباً في جميع العصور من خلال كبحها للميول التدميرية عند البشر. إلا أن مقاومة العنف تصبح أكبر بكثير عندما تشجع السلطات الدينية هذا العنف أو تسكت عنه على الأقل.

و على عكس ذلك يهدف **التعصب السياسي** إلى تحقيق أهداف دنيوية بالطرق المتطرفة–العنيفة، التي، بالتصاهر مع التعصب الديني، تكتسب صفة شيء جليل، عظيم، حتمي، سام بشكل صوفي mystic transcendence والتي تتم التضحية في سبيلها بانتظام، وعلى عكس كل التأكيدات، بحرية وكرامة الفرد. وسيان فيما إذا كان الأمر يتعلق بالعزة الوطنية أم بالتحرر من السيطرة الخارجية أم "بالحفاظ على النقاء العرقي" لعرق ما أم "بآخِر" كفاح ثوري عالمي –فإن التعصب السياسي في القرن العشرين خلق لنفسه شياطين جدد كان لابد من محوها في صراع على الحياة و الموت. فقادة مدفوعين بالاستبداد المطلق وبوعي إيديولوجي متعصب بالرسالة ، مثل ستالين أو ماو، سلبوا إرادة شعوب كاملة، استغلوا – بكل الإمكانات التقنية للحداثة– الجماهير لسيناريوهات هدامة، وبنوا أجهزة قمع وحشية. وبما أنه لم يكن من الجائز أن يعاني النظام الاشتراكي من نقاط ضعف، فقد كان لابد و بشكل حتمي من البحث عن الفشل في الأفراد، في "البعبع" المعادي للثورة الواجب تقصي أثره في كل مكان. ويشهد الترحيل الإجباري بلا تبصر و الفلاحين المجوعين، عمليات الاستعراض التي تظهر العقوبات الصارمة على الضحايا، الملايين من المرحلين و المصفين إلى معسكرات العمل – كل هذا يشهد بنظام مهول تنكر كلية لحرية و سعادة الأفراد. غير أن كل هذا لم يتجاوز حدثاً، ما زالت كل الكلمات حتى الآن تعجز عن وصفه– أوشفتز Auschwitz[7] – و الإزالة الصناعية الواعية لشعب كامل، ليس لسبب اقتصادي ما، وإنما كنتيجة وحيدة لهذيان عنصري. ولم يكن هناك أي وقت من الأوقات كان فيها شك بالنوايا مطلقة الشر "لإرهابي الإنسانية أدولف هتلر" (Stierlin,1975). وحتى اليوم لا يوجد اتفاق حول أي من أهدافه السياسية الهذيانية كانت أكثر إلحاحاً لديه، غزو "مجال حياة" أو النزعة، "الموضوع الشرير"، "عدو العنصر اليهودي"، تدميره في هؤلاء. أما طروحات الذنب الجمعية فلم يعد أحد اليوم ينادي بها. إلا أن الانتهازية opportunism والميل للانقياد الأعمى، الإنكار و المشاركة الحماسية لكثير من الألمان "العاديين" أثار فيما بعد الاستغراب بشكل مرعب.

ويقصد **بالتعصب الأخلاقي** المبالغة بالنزعة نحو النزاهة والزهد الأخلاقيين بالارتباط مع المكافحة الشهوانية و الميوعة والفسق. و ليس من النادر أن يعني الكبت الجنسي و ضغط المثل الأخلاقية المرهقة و عدم القدرة على الحب أو تحريم الحب الانزلاق في تطورات متطرفة للشخصية. و بالنسبة لرسل الأخلاق القهريين تتحول الحياة الدافعية إلى واقع دائم الكرب مشوب بلاخطيئة، و يمكن للمعبر نحو الذهان أن يصبح مطلاً على شكل هذيان بدائي archaic بالذنب أو إخصاء ذاتي استحواذي. ويعد التعصب الأخلاقي دائماً مكنون أساسي من التعصب الديني و يخدم كذلك في التعصب السياسي بانتظام في التمييز Discrimination ضد الخصم. فموضوع الكره عند المتعصب هو دائماً سطح إسقاط لكل ما هو قذر و شرجي ومقرف و التحقير اللفظي يجعل التغلب عليه يتحول إلى فعل "تنظيفي". لقد تم اتهام سحرة القرون الوسطى بكامل الطيف المقزز من الشذوذات الجنسية، وصولاً إلى النقطة التي بدأت فيها النساء الممارس عليهن الإرهاب المقيت بالتماهي مع الهوامات الشاذة للمدَّعي[8]. و كذلك الملاحقة السياسية و الحروب القرن العشرين الصليبية اعتبرت تبخيسياً Cynic "وقاية عرقية Race hygiene" أو "تنظيف عرقي ethnic cleaning". وفي القرآن نظمت العلاقة بين الجنسين بشكل صارم، حيث عدت و تعد الانحرافات و الفسق والتمرد و الجنسية المثلية على أنها مخالفة شديدة لله وأحكامه القطعية. و بشكل يكاد يكون أقرب للنمطية يقسم الإسلاميون الجدد بأن الغرب هو مكان الفساد والاختلاط غير الشرعي بين الجنسين promiscuity والتهافت، على أنه سم يحاول اختراق العالم الإسلامي الذي يخاف الله و "يفسده من الداخل. وفي الواقع يمكن للظهور المفاجئ للصرامة الأخلاقية الذاتية، وبالتحديد لدى الإرهابيين العرب، أن يكون علامة للطور الأولي من التعصب fanatical Prodromal Phases. فقد انسحب محمد عطا "العقل المنفذ" لاعتداءات 11 سبتمبر من الدراسة إلى عالم الصلوات والطقوس الدينية، وابتعد بشكل مربك عن النساء، و حدد في وصيته ألا تمس جثته امرأة. وهنا تظهر بوادر شك بدائي بالخوف من الجنسية و الحميمية و العطاء، جعله ينعزل و ربما أسهم في تصلبه التعصبي.

التعصب من وجهة النظر التحليلية النفسية بوصفه استبدادية بين نفسية

بغض النظر عن الكيفية التي نفسر فيها التعصب من وجهة نظر التحليل النفسي، سواء بوصفها انحراف وظائف العقاب للأنا الأعلى أو بوصفها تكوين عكسي ضد الحقد والكره والحسد أو الخجل، أو بوصفه نكوص جمعي عند وجود تهديد بفقدان التعاضد الجماعي –فإن ما يستثير الإحساس التعصبي شخصياً، يظل دائماً الشعور بتهديد الهوية. فالناس يستجيبون بتعصب خصوصاً عندما يتم الاعتداء على قيمهم الأساسية أو ولاءاتهم أو اتجاهاتهم الدينية أو التقليل من قيمتها. عندئذ سرعان ما تنفجر أنماط الاستجابات الراسخة في التطور العرقي phylogenetic، والتي هي أقل تخصيصاً و أكثر قابلية للاستغلال بشكل لا متناه لدى الإنسان من طقوس الدفاع–الهرب المطابقة لدى الحيوانات العليا. و بكلمات التحليل النفسي فإن الأنا في مواقف الخوف الشديد و الخجل أو الغضب ينقلب إلى مستوى الوظائف الدنيا للموقف الزوري (البارانوئي)–الفصاماني، و يقسم العالم، و أحياناً بطريقة عشوائية كلية إلى فئات خيرة وفئات شريرة. و كل ما هو إيجابي و حقيقي وموثوق يتم حصره بالذات أو في الإطار الداخلي للجماعة الخاصة؛ في حين يتم إسقاط كل ما هو متناقض و مهدد نحو الخارج على قوى الشر العميق، التي يتم تحميلها مسؤولية الشر كلها، التي تعد مقاومتها الحاسمة الخطوة الأولى من أجل ترميم ضياع الهوية المشلولة. ومثل هذه الاستبدادات البين نفسية تنتمي في تعكراتنا المزاجية و عنادنا إلى الحياة النفسية الطبيعية. فكل إنسان يمكن أن ينزلق في **استجابات انفعالية تعصبية** (Conzen, 2005)، في حماس غير عقلي أو في غضب انفعالي أو أن يتصلب في **طور عبور تعصبي** طويل (المرجع السابق). ولكن علينا ألا نتحدث عن تغير تعصبي في الشخصية إلا عندما تستحوذ على جوهر الذات قناعات راسخة لا تتزعزع وبصورة دائمة، و تستقطب كل الطاقة النفسية نحوها و تغير بشكل متطرف هوية الشخصية بنوع من خبرة رؤيوية apocalyptic مزمنة مفادها شيء ما مطلق الخير –إرادة الله، اللحمة الوطنية، مبدأ العدالة– مهدد بشيء مطلق الشر. ولايعود هناك مكان للتأجيل والصبر والانتظار و الحل. لا بد من محاربة الشر بكل الوسائل، و الانتصار للخير، عندئذ تصبح الحياة ممكنة بكرامة وحرية ولياقة. و بوعي مرعب بالرسالة و استياء رهيب في الوقت نفسه، يتابع المتعصب هدفه، ويتقوقع بشكل غير قابل للتعليم و التصحيح في صورة للعالم ، لا يوجد فيها أية أصوات رمادية أو أية تناقضات. ويصبح إسقاط كل الغضب، كل احتقار على مبدأ شرير واحد، و احد فقط، –بما يشبه نوع من البيت الزجاجي من الكره– جامداً كلية و حصرياً بالمطلق و ذهانياً تقريباً. وبما أنه لايعود يُسمح للمعلومات من الخارج التي يمكنها

أن تبرئ صورة العدو بالمرور، وتقوم صورة العدو بشفط "المواضيع الشريرة" للاشعور من الداخل في شكل من المغناطيس البين نفسي، يصبح الأمر أكثر تهديداً، ويتكاثف إلى غول محبب للخيالات. فتنشأ دائرة زورية (باناروئية) نمطية: فكلما أصبح العدو في الخيال أكثر شراً، فلابد من مقاومته بشكل أشد، و من جهتها تعزز ردة فعل العدو المعاكسة الإسقاطات الذاتية. وفي الوقت نفسه يتم بشكل مطرد إدراج مواضيع لا ذنب لها، والتي ترتبط بصورة فعلية أو مفترضة بصورة العدو –النساء، الأطفال، كبار السن– في تجسيد الشر وفي الحالة الجدية يتحولون إلى ضحايا نزعة لا ترحم للانتقام. وما يبدو للمحيط على أنه قمة انعدام الضمير، يعد بالنسبة للمتعصب تكليف إلهي، واجب مقدس.

وبالفعل فإنه يكمن في جوهر كثير من الانحرافات التعصبية للشخصية إمراضية (باثولوجيا) رهيبة للضمير، "السقوط الشيطاني" (Hole,1995) من مثل أخلاقي مرتفع إلى حقد لا حدود له. فعند وجود إدعاء هائل بالعصمة يتم انتزاع قيمة محددة من الطيف الكلي للقيم و الجري ورائها بتطرف شاذ، في حين تخفت القيم الأخرى كالتسامح و التعاطف و الرحمة. فلنتأمل حماة الحيوان المحاربين أو مناهضي الإجهاض الذين يبدؤون في النهاية بالقتل بأنفسهم، أي يفعلون بالتحديد ذلك الذي يتهمون به موضوع كرههم. فالأنا و الأنا الأعلى ينصهران معاً في دور المنتقم أو محرر الإنسانية أو محارب الله إلى اتجاه عظامي يحصِّن ضد التعاطف وكل مشاعر الذنب. وباسم أسمى مبدأ أخلاقي يلاحق المتعصب عدو رؤياه بالجزء البدئي من الأنا الأعلى الطفولي، و يتحول في إطار محكمة لا ترحم إلى المدعي العام و القاضي و الجلاد في الوقت نفسه. وفي أحسن الأحوال يعتبر القتل و الاغتيال كضرر مصاحب للكفاح الثوري، على أنه إزالة "واقية للعرق" "للحشرات" البشرية أو – على أقذر وجه على أنها –علاج للضحايا أنفسهم. و هكذا يقال أن ملاحق السحرة ريميغيوس Remigius قد اتهم نفسه في نهاية حياته بأنه قد أحرق أيضاً أطفال السحرة و طهرهم للحياة الأبدية.

و مهما شدد المتعصبون على نكراهم لذاتهم فيما يقومون به، فإن محركات أفعالهم الدافعية هي دائماً الحقد، الشعوري واللاشعوري، المفهوم وغير المفهوم، البارد و غير البارد. و بما يشبه الأمر في شذوذات الجنسية التي يتسلل إليها الحقد و السادية باطراد متزايد، يبدو أنه من الممكن أيضاً أن ينحرف التطبيق السليم للمثل الأعلى، وصولاً إلى نقطة لا يصبح فيها المثل الأعلى سوى حجة للتدمير. و من المؤكد، أن الحقد يظل في أشكال التعصب الصامت (الأخرس) و المعتزل مغلفاً، على عذاب المثل الأعلى الزاهد للذات، على الخوف المرعب من النار –أو من الانصياع للشيطان. وبداية عندما يتم التشكيك بالمنظومة الإيديولوجية لمثل هؤلاء الناس ينفجر البعض منهم بغضب نرجسي لا يكبح. و يميل التعصب الإنساني منذ البداية لمزيد من التصعيد الشرير، إذا ما أغلق المثل الأعلى، للتعويض عن الإهانة الشخصية أو الوطنية. وبغض النظر عن مقدار ما يكمن في "العداوات الموروثة"، في الصراعات الدينية والعرقية المزمنة من قيم من نحو الوطنية patriotism و الشرف و الكرامة و الاستعداد للتضحية، فإن الأمر الحاسم، إلى جانب الصراع على المكاسب الاقتصادية و الثأر والانتقام revanche thematic الدائمين، هو رد الإهانة للعدو المشيطن و السيطرة عليه بطريقة سادية وتحقيره. وبشكل خاص عندما تبدأ مجموعتان من الشعب، تدعي كل واحدة منها بأحقيتها لوحدها في البلد، باستغلال الله، فإن الصراع يهدد بالتصعيد إلى دائرة عبثية من النزعة للانتقام و الثأر والقصاص. و لا يمكن للصراع أن ينتهي بالنسبة للمتعصبين إلا عندما يتم سحق "الشر" الدخيل، "الكفار"، كلية من مجموعتهم نفسها ومن المنطقة ككل. و بما يشبه الاتفاق اللاشعوري يبدأ المتطرفون من كلا الجانبين بأول أعمال العنف، عندما تبدأ تلوح في الأفق بوادر المصالحة و نجاح مباحثات السلام. و في شكله الشرير المدمر يستغل التعصب الإنساني المثل Ideal فقط كحجة للنوايا التدميرية. فالعدو، موضوع الحقد، لا يجوز هديه، إيقافه عند حدوده، ,إنما لابد من تدميره منذ البداية باعتباره وصمة عار، طاعون مهدد. إنها تلك "الرؤى الفاعلة active apocalyptic رؤى هتلر و بول بوت، التي ما زالت تفتح أبواب الجحيم على طريق البحث عن عوالم مثالية، مطلقة الصفاء. و في الواقع يبدو أن دافع الموت الخالص، "وظيفة محو الموضوع Desobjectalization function (Green,2000) تمزيق كل عمليات الحياة، النصر على الشر و العبثية الكلية، هو المتصرف في مصانع الإبادة، في الحقول القاتلة killing fields".

فهل ما زال الاستحواذ بمثل هذه الأفكار الاستبدادية و التدميرية قابلاً للفهم بالمقاييس العلمية النفسية السوية، ألا يتعلق الأمر في النهاية بمفرز عملية نفسية ذهانية غير مفهومة كلية؟. لقد أثار هذا السؤال اهتمام كتاب سيرة هتلر بشكل خاص. فبمقدار ما تنساب أجزاء مرضية للإنسان في القناعات المتطرفة و تصبح في حالة الانحراف التعصبي دائماً مطردة القيادة – التعصب ليس مرضاً نفسياً منذ البداية. فالمعاناة العصابية تسبب التناقض و عدم الثقة والوهن، ويتجلى الهذيان الفصامي على الملاحظ الخارجي بشكل مستغرب، وهو يعزل المريض عن محيطه. في حين أن المتعصب بالمقابل، على الأقل الموهوبين منهم، غالباً ما يمتلكون إحساساً رهيباً برغبات و مخاوف الآخرين، ويعرفون كيف يجذبون الجماهير وتهييجها واستثارتها وفي الوقت نفسه كيف يُفسِدون، ويجيدون توريه تطرف نواياهم بحذاقة. و بالتحديد فإن القادة الهدامون يستغلون أجزاءهم المرضية (الباثولوجية) و نزعات الهو البدائية في خدمة رسالتهم. فيؤثر الهيجان الهستيري بشكل كارزمي، و التحريض القهري بشكل حزمي، و الصمود الزوري (البارانوئي) بشكل مقدس. ويكاد المرء يود الكلام عن "الهذيان السليم"، عن قناعة المآل الشاذة التي لا تتزعزع كلية، و التي تتم متابعتها بأقصى درجة من المنطق و الدقة. ويستطيع المتعصب أن يستخدم ببرودة الطاقة التي تنبثق من نفسه في خدمة رسالته، هنا يكون في قمة العقلانية. إلا أنه غير قادر على التشكيك بلامنطقية انقسامه الخاص، على التفكير بدقة بمبرراته. والنتيجة هي دائماً التأرجح المربك بين الحالات النفسية المختلفة، بين أشكال التفكير و آليات الدفاع الأكثر نضجاً و الأقل بدائية، تلك "الوثبة" من سلامة النية إلى الشك الغاضب، من التقويم المنطقي للوضع إلى الإسقاط البدئي للذنب. ولنتأمل ذلك الانقسام في جوزيف غوبيلز Joseph Goebbels ، الخليط من التوق الباطني للخلاص و اليأس العدمي nihilistic و الحيوية المحدثة ذاتياً self induced Euphoria و البعد الكلبي Cynical Distantination، وكره الذات و الامتعاض الناخر. وكواحد من أكثر قادة النازي جميعهم واقعية رأى بعد ستالينغراد حساسية وضع الحرب و ضعف هتلر الواضح، ليتمكن من تصحيح هذا الفهم في أقرب فرصة من خلال مزيد من التصديق.

الثقة البدئية المهزوزة بوصفها الطبقة الأعمق للتعصب الإنساني

لم تثمر حتى الآن كل محاولات عزو التطورات الشخصية المتطرفة بشكل صارم إلى صراعات طفولية محددة أو خبرات انصدامية أو تشكيلات أسرية أو تفويض أسري familiarly Delegation. إذ لن تتمكن أي نظرية علمية في يوم من الأيام في التحديد الشامل للعوامل الكثيرة و الصدف و التحولات التي تصب مثلاً في سيرة إرهابية ما. إلا أن ذلك لا يعني أنه ينبغي النظر إلى كل تحقيق للسيرة الذاتية على أنه عديم الجدوى–افتراضي useless-speculative.

تظهر المواضيع الأساسية، الآليات الأساسية للتعصب في أزمات النمو الاجتماعية النفسية للطفولة. ففي كل إنسان تتشكل منذ وقت مبكر بشكل تتابعي **قوة متطرفة radical Potential**، تتشبث أول مرة في المراهقة و المراهقة المتأخرة على رؤى انفعالية (عاطفية) وصور أيديولوجية

محترمة و يمكن أن تتأزم لدى القليل من الأفراد –ضمن ظروف حياتية وتاريخية خاصة– إلى تصلب تعصبي.

و يبدو أن الجذور المبكرة والأولية للحقد والتطرف الإنسانيين تعود إلى وقت مبكر جداً قبل تطور اللغة، إلى حالات الغضب و الاغتراب في سن الرضاعة. ففي سن الرضاعة تكمن رؤى المتعصب المثالية Vision of Fanaticers'utopia على نحو السلاسة النكوصية، البحث عن عـــالم التكافل الأصلي الأمومي النرجسي–الأولي primary-narcistic، الصافي كلية والمنسجم. و موضوع الحقد عند المتعصب في أعمق الأعماق هـــو الشيء المُهدِّد للتكافل "الطيب فقط"، الشيء المقتحم للتكافل، المسمم لـــه، المدمر. وقد أكد كل ممثلو التحليل النفسي على الهشاشة الرهيبة لبـــدايات وجود الأنا و إقامة الاتصال بالعالم. و فقط عندما يغلب جو من الأمـــان الحاني على المخاوف و حالات الألم التي لا يمكن تجنبها لسن الرضاعة، تنبت هنا تلك التفاؤلية الأصلية، تلك الثقة الأصلية بأن الإنســـان نفســه والحياة بخير، "كحجر أساس للشخصية الحيوية" (Erikson, 1981; P.98) أساس كل القدرة اللاحقة على الحب، كل الأخلاق و الأمل الديني. و علينا دائماً في صعوبات و أزمات الحياة أن نصارع ضد الشك الأصلي، ضـــد مشاعر اليأس و الحيرة و الغضب، التي من شأنها أن تولـــد الاســـتعداد للانقسام الأولي والتطـــرف والإســـقاط المشـــحون بالحقـــد و الإغـــواء الديماغوجي.

ويبدو وكـــأن النـــاس المتعصـــبين الممكنـــين potential-fanatical مضغوطين بشكل أكثر أولية elementary من قبـــل صـــراعات الثقـــة، وكأنهم قد عانوا مبكراً من صعوبات، أقاموا بصورة سليمة النية اتصالات ومشاعر عميقة. وليس من النادر أن يسبق الانفجار التعصبي فقدان شديد للثقة، فتزيد الميلانخوليا الداخلية و التمزق الخارجي الشعور المرتبـــك، الحائر، بعدم القدرة على مواصلة الحياة في عالم غير كامل بهذا الشكل. وتأتي مواجهة الفكرة المنقذة أو الشخص الذي يوحي بالكارزمية، بالأمل و المعنى إلى الهوية الممزقة كالبرق من جديد، ولـــيس مـــن النـــادر أن يوصف "بالحلول"، "بالكشف"، "بالإشعاع"، "بالولادة الثانية". ومنـــذ تلـــك اللحظة يرتبط قهر لا يرحم من الإيمان بالرؤيا الذاتية مع شك مرعـــب. والشيء المميز هنا هو تلك اليقظة الزورية (البارانوئية) الرهيبة، التـــي يتفحص بها الناس المتعصبون محيطهم على أقل علامة مـــن الفتـــور و الشك. وبعد راينهارد هيدريش Reinhard Heydrich، رئيس جهاز أمـــن الدولة، الذي كان متفوقاً على رئيسه هاينرش هيملر Heinrich Himmler في البرودة و القدرة الشكاكة cynical Efficiency "مبدع الشك الأعلـــى over suspect". وبالفعل فقد اتخذ في العوالم المستبدة الشك الأصـــلي و قهر التأكد و المراقبة و الوشاية سمات كافكاوية[9]. كل شيء مضطرب ، فوضوي، عفوي، منفر بالقوة مشكوك به، في النهاية الحياة بالمطلق تصبح مشكوكاً بها.

وفي جميع العصور كان الدين المنظم organize Religion هو أكثر من قوَّى الثقة الأصلية للإنسان بأمان واستمرارية الوجود الإنساني. –غير أنه تمكن كذلك في أوقات الأزمات من تأجيج شـــك أصـــلي مســـتعص . وبالتحديد فإنه يبدو أن الأنصار و المتعصبين كثيراً ما تنقصهم طمأنينـــة وسكينة الثقة الدينية الحقيقية. ويبحثون في التمسك القهـــري بالعقيـــدة و القواعد والطقوس عن الحماية من الشك و القلق الوجودي. وتبدو إشارات الخشوع و الخضوع، ذلك الذي يمارس بوصفه الطاعـــة لله و للســـلطة الدينية، بشكل لا شعوري دائماً على أنها نوع من طقوس المصالحة مـــع الوالدين المجتافين[10] المعاقِبين الشريرين. و يعني الانحراف و لو قليلاً عن مطالبهما، الرمي في عالم مرعب من عدم الأمن و الشك الأصلي. ومـــن ناحية أخرى يبدو أن لاتسامح ولا منطق التعصب السياسي يتغذى أيضـــاً من الهوامات والمخاوف المبكرة. إن ما يجمع كل الشوفينيين و العنصريين و المعادين للسامية من كل الألوان هو وهم العلاقة الطفولية الباكرة Relationship phantasma. فتعاش الجماعة الخاصة بشكل لا شعوري على أنها أمجية[11] أم حامية ومثالية، ينصهر معها المرء بجبروت تكافلي، يجعله عظيماً، سامياً، جليلاً، خالداً و ينبغي الدفاع عنها بكل الوسائل ضد تهديدات الأشكال "القذرة" و "المنحطة".

فتحدد الريبة الرهيبة، "قلق الاختلاط" خبرة العنصريين للعـــالم. ويمثـــل الغرباء، الأجانب، من خلال مجرد حقيقة اختلافهم فحسب، أذى للنرجســـية الذاتية، و إما عليهم الاندماج الكلي أو يكافحوا بقسوة و إهمال مطرد التعصب (قارن Bohleber,1992). و كثيراً ما نجد في "كفاحي"[12] صور عـــن اليهـــود بوصفهم سوس وقوارض وحشرات وطفيليات تهدد بـــاختراق العـــرق الآري "الصافي" و بتدميره من الداخل، استعارة مجازية من الحشرات، جعلـــت فـــي النهاية المذابح الجماعية تتحول إلى عملية "وقاية عرقية".

إنه لأمر مرعب، كيف نكصت جموع غفيرة من الجماهير من منظور الأزمات التاريخية في انقسامات و مشاعر ملاحقة المرحلة الفمية. و يبدو، كما يرى فولكان (Volkan,1999) وكأن الفرد في أوقات الهلع الجمـــاعي المتسلل ببطء يبحث عن الحماية في "خيمة" هوية–الجماعـــات الكبيـــرة، وكأن القائد، "عمود" الخيمة إذا جاز التعبير، قد انشغل (امتلأ) من جديـــد بالثقة الطفولية المطلقة. و في مثل هذه المواقـــف يطـــرح الغوغـــائيين (الديماغوجيين) أنفسهم بسهولة "كمجبِّرين للثقة الأساسية المجروحة". إنهم يروجون أساطير عن تجانس و لحمة و عظمة جماعتهم الخاصة، يوجهون الحقد بوعود ساذجة نحو صور الأعداء المختارين و يبدون من خلال ذلك بأنهم قد أزالوا كل الصراعات و التفكك كالبرق. و تتفجـــر التناقضـــات العرقية أو الدينية من جديد، الفروق الصغيرة والأصغر في الثياب، أو في الطقوس اليومية أو في اللهجة تستخدم لوضع خطوط الحدود بين الموثوق وغير الموثوق، الخير والشر. و يتحدث إيريكسون عن معبـــر الكلانيـــة النفسية إلى الاستبداد، النكوص إلى نوع من خبرة العصبية، التـــي يـــتم التأكيد فيها على الضيق limited المطلق: "بالنظر لتحديد معين عشـــوائي للحدود لا يجوز، لما ينتمي في الداخل أن يخرج للخارج، و ليس مسموحاً لما هو في الخارج، أن يدخل إلى الداخل" (1981,P.80). وغالباً ما تكفي إشارة صغيرة – هجوم عنيف، تحرك في منطقة "عدائية"–لينفجر عنـــف بدائي و تشويه هذياني للواقع. فلا يشعر الفرد نفسه عندئذ غير جزء من جماعته المُهَدَّدة، و يترك نفسه في الحالات المتطرفة تنجذب إلى الوحشية، إلى أمور لم يكن قادراً على القيام أبداً بها في الأوقات المعتدلة. و لنتأمل الحرب الأهلية اليوغوسلافية، حيث عامل الأصدقاء و الجيران بعضـــهم بين ليلة وضحاها كأعداء ألداء و تحول المجتمع متعدد الأعراق إلى جحيم القنص و معسكرات الاعتقال و الاغتصاب الجماعي. و أحياناً وبالسرعة نفسها يمكن للمجتمعات أن تتحرك من حالة الاستبدادية ثانية إلـــى حالـــة الكلانية. ولنتأمل هنا العودة الصامتة للألمان الغـــربيين إلـــى المبـــادئ الديمقراطية بعد عام 1945 و الاغتراب عن الماضي الدموي، على الرغم من أن بعض الاتجاهات التسلطية و القناعات المتطرفة قد ظلت عالقة في رؤوس الكبار ووَرَّثتْها بشكل مربك إلى الجيل التالي.

التعصـــــــب ونـــــــار الحيـــــــاء

إلى جانب الشك الأساسي هناك مصدر ثان للتطرف و التعصب فـــي الإنسان كامن بعمق في الحياة الروحية الطفلية infantile يتمثل في الشعور المعذب والمدمر بالحياء. فغالباً ما نجد خلف قسوة معارك الانتقام الخاصة أو الجمعية انجراحات نرجسية شديدة. يعد الإرهاب سلاح المستضعفين. و حول موضوع الحياء shame اللاشعوري لدى الديماغوجيين مـــن نحـــو أدولف هتلر هناك الكثير من الطروحات. لقد وصف المحللون النفســـيون من نحو فرويد Freud أو إيريكسون Erikson أو فورمسر Wurmser أو فولكان Volkan أو هيلغرس Hilgers الحياء على أنه الشعور المعذب

بالاستسلام و الخضوع و التنازل وتسويد الوجه و حددوا جذور الخجل في مشاعر الاستسلام و الصغر في السنة الثانية من العمر. ومن المؤكد فإن التخجيل المعيّر في التنشئة الاجتماعية الطفولية يمثل محفز نمو، و لايمكن التفكير بالكرامة الشخصية والاندماج الثقافي من دون الشعور السليم بالحياء. إلا أن التخجيل الشديد يترسخ لدى الأطفال و اليافعين على شكل جراح نرجسية مستعصية في الذات، ويمكن أن يصبح سبباً في الخجل المزمن و الامتعاض المتجذر عميقاً. و بعض الاتجاهات النمطية للمتعصب، الدفاع الصائر إلى تسارع عن الاستقلالية الذاتية، ووضعية العناد المطلق، و تجنب الحوار الكلي يبدو أنها تمتلك جذورها التطورية الفردية ontogeny في صراعات السلطة في السنة الثانية من الحياة. وغالبا، إذا ما حصلت عند الناس غير الملفتين للنظر كلية حتى ذلك الحين لامعاوضة تعصبية–سعُرية fanatical-aomk decompensation[13]، عندئذ ينفجر مقدار هائل من الحياء المتراكم.

يمتلئ الأدب العالمي بنمط المنتقم التعصبي. حيث يخرج المعني عن السكة نتيجة إساءة نرجسية ما، ظلم تهتز بنظرهم له السماء. ويبدو العالم وكأنه انقلب رأساً على عقب، و تتعطل كل مبادئ الحياة الكريمة. فتبدأ الرغبة بالثأر بالاستحواذ على كل التفكير والطموحات. ويصبح المستقبل غير ممكن التصور، إلا إذا تم جعل الآخر، عدو الحياة، نفسه في وضعية الاستسلام والانتصار عليه كشاهد مدى الحياة على التخجيل الذاتي. فقد جعل الظلم الموضوعي والشعور اللاحق باللاحول تجاه القضاء الفاسد ميشائيل كولهاس Michael Kohlhaas البار في حالة متطرفة من غضب الحياء. وعندما توفيت زوجته علاوة على ذلك خرج عن طوره بشكل زوري (بارانوئي) و بدأ حرباً خاصة في سبيل حقه، فأحرق في غضب نرجسي مسعور قرى ومدناً كاملة، اعتقد أن عدوه موجود فيها. إن تماهي كولهاس Kohlhaas مع رئيس الملائكة ميكائيل (ميخائيل[14])، وظهوره كمبشر للفقراء و المحرومين كان من الناحية الموضوعية تبريراً Rationalization لرغباته في الانتقام تدل على الانتفاخ غير المحدود لذاته الضخمة. وبداية و عند احتجاج مارتين لوثر أنهى طور عبوره التعصبي الشديد و فسح المجال أكثر للقوى النقدية–والنقدية الذاتية ثانية.

التربية المتسلطة بشكل متطرف التي تريد كسر عناد الطفل تعمل بكل أشكال الإذلال و التخجيل. وغالباً ما ينمو عندئذ لدى الطفل الرغبة الحارقة لأن يصبح هو نفسه كبيراً من أجل الانتقام من المواضيع القاسية. إن ما يدفع كثير من الدكتاتوريين في أعماقهم، يبدو موضوع حياء رهيب و انتقام. وليس من النادر أهم غالباً ما يعانون من انفصال طفولي شديد، تم جلد مشاعرهم المبكرة بالكرامة و تقدير الذات. نرجسيتهم الخبيثة، عدم قدرتهم على التعاطف و الإنسانية تؤثر بطريقة شاذة في مواقف الأزمة على الجماهير المرتبكة بشكل جذاب جداً. و بالتماهي مع ذات مرضية متضخمة عليهم إسقاط المشاعر التعصبية للطفل الصغير و العجز والتفاهة على مجموعات الأعداء العزل، و كأنهم يقاتلون و استئصال ذاتهم هم المخجلة في هؤلاء. كان أدولف هتلر طوال عمره غير قادر على الحب والحنان و المرح، كان يسيطر على نفسه بشكل مربك. حتى أشد المقربين منه لم يمنحهم أي مدخل إلى حياته الداخلية، ظهوره كان نوعاً من "الاستعراض الدائم أمام جمهور ضخم" (Fest, 1973; P.709) شكل رسالة تعصبية "الأساس الصوّاني"لعقيدته ، انتقامه بالانتقام من موضوع الكره لليهودية الاقتصادية العالمية، كبش الفداء لكل فشله الشخصي و في الوقت نفسه العار الهوامي "لعروسه" ألمانيا. و حتى في خطابات الحرب الثلاثة، التي لمح فيها هتلر إلى الهولوكوست، فقد ذكر أيضاً كيف أن "قهقهة اليهود"، قريباً ما سيتم "إخراسها"، في الوقت الذي لم تكن قد خطرت على بال أحدهم فكرة، السخرية منه (قارن Matussek et. al,2000).

و ليس من النادر أن تبرهن الإهانة النرجسية الجمعية في المواجهات مع الجماعات الكبيرة المتخاصمة على أنها أكثر أهمية من الحرمان أو الظلم الاقتصادي. فغالباً ما تتدفن ذكريات الهزائم الوطنية أو المذابح أو الفرض غير العادل للسلام أو مس الرموز الدينية عميقاً في ذاكرة الشعوب الجمعية المؤسطرة تعصبياً fanatic mythologize بوصفها تخجيل انصدامي، واجب ولاء للثأر. و بالتحديد في مواقف الأزمات يحرك الديماغوجيين "هذه الصدمة المختارة" (Volkan,1999)، التي تنبعث قي خبرة الجماهير على شكل نوع من "الانهيار الزمني Time Collapse" (المرجع السابق)، دفعة واحدة بشكل حي، وكأنها حدثت الآن. ويتم استعمال عدم السماح بهزيمة أخرى و تخجيل جديد من العدو، كنقطة اصطياد هلع متسلل و يمكن أن ينقلب بشكل مفاجئ إلى مزاج من الاستعداد للدفاع و الهجوم التعصبي.

ومن الطبيعي أن يسبب القمع و الاستغلال و الإملاء الخارجي الدائم حالة من الخيبة العميقة والخجل المزمن لدى البشر المتزنين. إذ ليس هناك من سيطرة خارجية، لا تتحول في يوم من الأيام إلى التهكم cynicism و التوحش. و مثل هذا العنف المقيت ينتج الإرهاب القومي والانفصالي العرقي، و الدافع الأساسي بداية الولاء المفرط للإطار المرجعي الخاص، وأمجية–الأم اللاشعورية التي قمعت و أخجلت و شوهت من القوى الشريرة. وغالباً ما يعد الإرهابيون أنفسهم على أنهم مندوبون من الأكثرية الصامتة، منتقمين لجماعتهم المهانة. إن الظلم المُكابَد يتوق إلى الارتياح الكلي، إلا أن الدور الخاص "كضحية متمتعة بامتيازات" يجعل كل عمل عنف يبدو مبرراً. و ليس من النادر أن يضيق نوع من "اليأس الحازم" منظور الحياة life Perspective عند المتطرفين إلى الكفاح الأبدي. و في سلسلة العنف المتصاعد و التخجيل المتبادل –لنتأمل سيناريو الصراع الغارق باليأس في المدينة المقدسة– تنزلق على الأغلب كل الشعوب في حالة عقلية رهيبة من الامتعاض المزمن. و يتحدث كانسيبر (Kancyper,2000) عن "مبدأ العذاب Principle of agony"، حيث تذوب الحدود بين الخير و الشر، الظالم و المظلوم، القاتل و الضحية.

التعصـــــب و مركـــــب أوديـــــب المتطـــــرف

يبرهن مركب أوديب المتطرف radicalize Oedipus Complex نفسه باستمرار كمصدر طفولي ثالث للعنف و التعصب في الحياة الإنســـانية. فحتى في تراجيديا العصور القديمة ظهر كيف يمكن للدراما حول الحـــب والغيرة و السلطة و المُلك أن تقلب الناس إلى جنون تعصبي. و بمقدار ما كانت نزاعات الأب–الابن، الأخ وأخيه تحدد التاريخ و ما زالت، فإن في النزعة نحو المطالبة المطلقة بالأحقية الذاتية و الإنكار الكلـــي للخصـــم تبرهن دائماً على أنها جزء من الديناميكيـــة الذاتيـــة للتنـــافس و الكـــره الأوديبيين.

فبالأصل رأى فرويد أن مكمن علاقة الحب الدراماتيكية بين الطفل ووالديه المحكومة بالفشل هو في مركب أوديب، الذي هو الخطوة المركزية للنضج و حجر العثرة الأساسي في الوقت نفسه في النمو الإنساني. ففي كل روح طفولية تترك التربية على مبدأ الواقع رواسب على العصيان و مشاعر الذنب كما تشحن (أي الرواسب) الصراعات الراهنة للإنسان من أجل القوة والسلطة والمنافسة بقوة تدميرية لاعقلانية. و في الواقع يمكن للغضب من الظلم الاجتماعي والسياسي أن يلاحق دائماً أشخاصاً محددين فقط، وليس القانونية الخاصة لعلاقات السلطة القائمة بذاتها أو البنى الاقتصادية. ودائماً، عندما تنزلق التناقضات الاجتماعية بين الفقر والغنى، بين ذوي الامتيازات و المحرومين في عنف مطلق، يمكن أن يكون قتل الوالدين أو الطفل النتيجة المأساوية النهائية. فخوف الطغاة من ثورة المقموعين حددت في المجتمعات ذات الفروق الاجتماعية و الطبقية الكبيرة بشكل خاص المناخ العام. إن ازدراع implantation

تعاليم صارمة في الأنا الأعلى بهدف إلى منع أفكار النقد بمشاعر ذنب شديدة، و كان الدور الذي لعبه الدين المنظم في هذا التحويل إلى قاصر مخزياً في الغالب. ناهيك عن أنه حتى السلطة القمعية لم تتمكن من استئصال شوكة الشك والاعتراض عليها كلية. ودائماً ما كثف مركب أوديب من الرؤى الثورية عند المتمردين. ومن خلال بقاء نقدهم واقعياً أو انزلاقه بكره تعصبي مطرد للأب، فقد تحدد مصير شعوب كاملة. ففي الثورات الكبرى، الدموية، يكون دافع الانتقام أشد من تحقيق الأهداف السياسية الأساسية. وسواء علناً في ميدان الكونكورد Place la de Concord أم مختبئاً في الأقبية القذرة ليكاترينبورغ [15] Yekaterinburg –ففي النتيجة يهدف الغضب الثوري إلى قتل الوالدين. فالثوريون يتماهون بالضبط مع تلك الاتجاهات التسلطية بالتحديد، التي كانوا قد حاربوها قبلاً ويشنون في طور من السعار هجمة من الرعب الانتقامي الذي لا يرحم. و باطراد متزايد يتحول الممثلين السابقين للطبقة العليا إلى مذنبين، أعداء الشعب، إلى مواضيع ينبغي تصفيتها، و كذلك المساعدين الصغار لهم، التي يكافح فيهم المرء بينه وبين نفسه الانتهازية الذاتية فيه هو. و بالذات فإن الشطط الجماهيري المتطرف، إشباع نزعة الكره، تخنق كل الهوامات السياسية، تقضي على طاقة التطوير البناء و تجعل من الفقراء و المحرومين من جديد كومبارس في لعبة السلطة.

وبالعكس فإن إرادة الدفاع الحاسمة عن السلطة المعاشة على أنها مقدسة هي كذلك بوابة دخول واسعة للتطور المتطرف للشخصية، و السؤال، من الذي سبب الويلات أكثر في التاريخ، الكره الأعمى للأب أم الإجلال الأعمى له؟. ففي كل مكان انتشرت فيه الصراعات الأوديبية بقسوة شديدة، و نمى الأنا الأعلى بشكل صارم جداً، بصورة حسودة ومتعصبة، ينمو الميل للخضوع الأعمى و التبعية العمياء. وبالتحديد فإن لدى المتحمسين جداً وشديدي الولاء والشديدي التدين تتقدم النزعة التعصبية الدفاع عن الموروث و الثابت و إرادة الله بكل الوسائل إلى محور الاقتناع الجامد– و غالبا ما يتم استغلاله من الطغاة بصورة خطيرة. فالحيرة من عقلية التبعية المشؤومة للفاشية جعلت من حركة 1968 تبحث عن الخير في مكافحة مبدأ السلطة بالمطلق. إذ لايمكن أن ينشأ "وعي نقدي جديد"، لا يترك نفسه تصاب بالعمى من سلطة مستكبرة، إلا في إطار تربية متحررة بالمطلق من السيطرة فقط. و بتخدير من الأيديولوجيات التي برهنت عدم صلاحيتها تاريخياً منذ أمد بعيد، رأي المرء نفسه قريباً جداً من هدف حضارة عالمية من الحب. و لكن عندما تفرقعت الأحلام، و انهارت كذلك حركة الاحتجاج بالسرعة نفسها التي انبثقت بها، تسلقت جماعة صغيرة نحو وعي مطرد التطرف بالرسالة بوجوب الإقدام على الثورة الآن. وبهذيان بحربٍ نهائية رؤيوية apocalyptic بين قوى الشر والخير، تحولت ما يسمى "بألوية الجيش الأحمر Rote Armee Fraktion" في إرهاب انتقامي متسع الرقعة، في برودة و دقة أعمال القتل إلى صورة (كاريكاتير) للظروف الفاشية تقريباً، التي ادعى المرء مكافحتها. فزعيم العصابة أندرياس بادر Andreas Baader، الذي ترعرع بدون أب، جسد كجانح صغير يافع كل نرجسية تضع كل سلطة موضع الشك. وعندما ترقى إلى قائد الإرهاب الألماني اليساري، لم يعد يتحمل أي تناقض. و اعتبر هو وعشيقته غودرون إنسلين Gudrun Ensslin أن الاعتراضات والاعتبارات السياسية عبارة عن نقص في الحزم الثوري. و الأمر الحاسم كان هو الإرادة المطلقة للفعل. وكل أعضاء الجيش الأحمر قد انتسبوا بالأصل من أجل تحرير الأنا من العبودية و الوصاية السلطوية، و تحملوا نغمة بادر Baader الآمرة الفظة. ومثل كثير من المتهوسين السياسيين لم يكن لتمرده التعصبي أي هدف ملموس، ظلت فلسفته الحياتية في النهاية متشبثة بمبدأ لاحدود له للذة. وفي النهاية ترقى بادر Baader باتجاه اهتياج agitation أوديبي مطرد عظامي، كان مقتنعاً من أنه سيتمكن بكومة من فلول الإرهابيين من تدمير نظام ألمانيا الاتحادية و الناتو و النظام الرأسمالي كله.

ومن الطبيعي فإنه علينا في هذا الموضوع بالتحديد أن نمتنع عن تعميم التفسيرات التحليلية النفسية بشكل غير نقدي على الثقافات غير الغربية، حيث أن الاستعداد للخضوع، الذي قد يصل في الحالات المتطرفة إلى التضحية بالنفس، يعد مكوناً بديهياً للتقاليد المشتركة. فالإنسان المسلم حتى اليوم يعد أكثر بكثير جزءاً من مجتمع و عقيدة عليه احترام قوانينه وتوزيع الأدوار فيه و لا يستطيع الانفصال عنه بسهولة. و الولاء المطلق للأسرة و السلطة الدينية واحترام وطاعة الابن للأب ليست تعبيراً عن "مركب أوديبي سلبي" أو شهوانية مثلية مستترة، وإنما أساس حامل لثقافة محافظة مطيعة لإرادة الله. ومن ثم فإن صراع الأجيال لا يحل كثيراً في التسابق والتنافس، وإنما في الانتظام والخضوع، في تماه مبكر، الأمر الذي يولد استعداداً كبيراً نحو إسقاط الصراع الأوديبي على الخارج. و في الواقع فإننا نعيش في الإسلامية Islamism الراهنة بالذات الانقسام المتطرف خصوصاً لصورة الأب. فكل المثل Idealization تتمركز في الله، الذي يعد ترتيبه للعالم هو الضمانة الوحيدة لبقاء الإنسانية. وكل الحقد يتوجه نحو "الشر"، و السلطة المستكبرة و الحكام الفاسدين الذين خانوا الله جميعهم، واستسلموا للفجور الغربي، وبشكل خاص على السياسيين الغربيين الذين يقودون بقيادة الرئيس الأمريكي جورج بوش حرباً صليبية جديدة على الإسلام و قيمه.

المراهقـــــــة و الصلـــــــة بالتطـــــــرف

واحدة من التحويلات الأخرى، والتي ربما تكون الأهم، بالنسبة للتطورات المتطرفة في الشخصية تحدث في المراهقة. فليس هناك أية مرحلة من مراحل الحياة يكون فيها الإنسان حساساً للرؤى المثالية Ideal Vision بهذا الشكل كما في هذه المرحلة، و في الوقت نفسه سهل الإغواء من خلال العقائد المتطرفة doctrine radical. ففي هيجان المزاج و التناقض بين الميل و النفور يمر المراهقون بكل الصراعات الطفولية في سبيل الثقة و الاستقلالية والخجل و الذنب ثانية. و التحمس للمثل العليا و الأفكار، و أحلام اليقظة بعوالم مثالية تعني سنادة للنرجسية الشابة المزعزعة ويمكن من ناحية أخرى تأزيم أزمة الهوية. و بالتحديد لدى اليافعين المرفوضين والمجروحين كثيراً يجلب التماهي مع الشعارات المتطرفة و القادة اللاتصالحيين الترتيب الاصطناعي إلى الهوية المتطرفة، و "يفرغ" في الوقت نفسه الفشل والضعف. ولنتأمل في التحزبات المشحونة بالحقد في تعاملات اليافعين، حيث يتم البحث عن العدوانية والعنف بشكل قهري إلى حد كبير. ففي نوع من "تكافل الخصم adversary-Symbioses" أو من "الرقص القاتل deadly dance" يتم إسقاط أجزاء الذات المحتقرة و غير المحمولة و الضعيفة على صورة العدو الخارجي المتضيقة إيديولوجياً، و محاربتها في الضحية المعتدى عليها وتدميرها (قارن Bohleber,2002). و عليه يعيد التعصب المخزون damp للمتطرفين اليمينيين الشبان و التماهي مع الشعارات المناهضة للسامية و الجنسانية sexist و العنصرية، ترتيب الذات من جديد على مستوى حدودي–ملائم Borderline-Kindly. إن الوعي بكون المرء ألمانيا، يعني نوع من إعلاء الشأن النرجسي المتكلف، و يصهر التضامن الهش في "حميمية من الحقد". فينتهي العزم على الحفاظ على هذا "الموضوع المثالي" "صافياً ضد "الطفيليات" الأجنبية و أعداء المجتمع بعقلية–برنامج، رغاءه الابتدائي إذا جاز التعبير، ما يربط في الصياغات المعقدة للمثقفين اليمنيين الحديثين بالحقد. و بالطريقة نفسها يقود الإسلام المتطرف بالنسبة لبعض الشبان العرب المقتلعين من جذورهم في المراكز الصناعية الأوروبية إلى التوجه في صراعات الهوية و الحميمية المكبوتة. ويقدم التماهي مع الله وتعاليمه تحديداً واضحاً للخير والشر، ويفتح اتصالات جماعية متماسكة، ويحول الشعور بالخضوع تجاه الغرب إلى اتجاه من التفوق superiority الأخلاقي الحانق. و بمقدار ما كان وما زال تطور الشبان الأوروبيين الذين يصحون فجأة على جذورهم الإسلامية

و ينزلقون في هوية إرهابية غير مفهوم، فإنه يتجلى دائماً في مقدمة التأثر من خلال دعاة متطرفين، انغماس في قناعة دينية متطرفة، و التقوقع في تعصب جماعي متضيق.

من ناحية أخرى فإن الحماس الإيديولوجي و اللاوسطية و الاستقامة عند المراهقين نوع من الإنعاش والحافز للتقدم. وتحتاج كل ثقافة إلى الشبان مختلفي التفكير–النقدي، الذين يكونوا غير راضين عن التناقضات و التطور التاريخي لمجتمعاتهم، والذين يثورون ضد الظلم "الطبيعي" و يلفتون النظر إلى مصير المحرومين و المستبعدين. و بالتحديد في الأوقات الاجتماعية الانتقالية يكون هؤلاء "المتمردون المخلصون loyal Rebels" (Erikson,1981) رأس حربة تحول الوعي الاجتماعي. إن عدم الرضا بالأوضاع السياسية والاجتماعية السيئة يستفز دفعة واحدة فصائل كاملة من الشبان، ويقود إلى عصيان و احتجاج واسعين. وهنا وفي الموقع الحرج بين الانزعاج المحق و الهياج المرضي، بين ضرورة الحفاظ على التقاليد وخطر التحجر المؤسساتي غالباً ما تقرر مسائل صغيرة (تافهة) المصير الاجتماعي اللاحق. فإذا ما تم تشويه مبدأ الاحتجاج الضروري للحياة من قبل السلطات الراشدة بشدة، فإن صراع الأجيال سوف يشحن بالخيبة و الإسقاط و الغضب، تحل هوامات العنف محل الاحتجاج الذي ابتدأ بشكل لعبي –كما هو الحال في تمرد الشباب في عقد الستينيات من القرن العشرين–. وبالتحديد عندئذ يمكن أن يحصل أن بضعة شبان ينزلقون في "هوية الحنق Identity of Worth" ويتوهون في وهم عنف تحرير الإنسانية وصولاً إلى فقدان الواقع. وتاريخ الجيش الأحمر الألماني RAF أو الألوية الحمراء الإيطالية أو الجيش الأحمر الياباني Japanese Red Army يظهر، مثله مثل المثل العليا التحررية أو البيئية أو السلمية (اللاعنفية Pacifism)، أنها تستطيع أن تنحرف في تعصب جماعي مسعور و رؤى تدمير سادية.

تمثل الظاهرة المتناقضة المتمثلة في استغلال قدرة الشباب على التحمس و الحماس الشبابي من خلال المؤسسات الاستبدادية و القادة المهوسين بجنون العظمة أحد الوجوه المأساوية لموضوعنا. فمن مراهقي الحملات الصليبية التي كانت تستغل الأطفال مروراً بشبيبة هتلر وصولاً إلى جنود آية الله الخميني من الأطفال –فقد كان دائماً يتم إصابة الشبان بعدوى الإيديولوجية المشحونة بالحقد و التضحية بهم بلا تبصر في الحسابات الباردة للسلطة. و من المؤكد، فإن جزء كبير من عمى البصيرة هذا هو نتيجة للدعاية وغسيل وحشي للدماغ. ولنتأمل هنا في الأطفال اليتامى المنتقين و الشبان العرب المجندين بشكل إجباري، الذين يتم إعدادهم في معسكرات خاصة للحرب المقدسة و تحويلهم إلى آلات للموت. إلا أنه من ناحية أخرى فإن رغبة الشبان هي الانطلاق نحو شيء أسمى، و أن يتم تمييزهم و"اختيارهم" من هيئة تبدو كارزمية، وهي رغبة يتم استغلالها بطريقة إجرامية (قارن Erlich,2003). و لنفكر هنا بأفلام الفيديو المصورة التي يقوم فيها الشبان الفلسطينيون بتوديع أهلهم قبل تنفيذ عملياتهم الانتحارية، الذين يقسمون بفخر، بأنهم لم يعودوا يتحملون إذلال الاحتلال الإسرائيلي، و أن حياتهم لم يصبح لها اتجاه و معنى إلا عندما التقوا بالسلطة الدينية. إن الوعي، بأن الأنا–المثالي Ego-Ideal يمثل مجتمعهم، بأنهم مصطفون من الله، من المثل العليا الدينية، يشبه "الإسمنت" (Volkan,1999)، الذي يعيد ترتيب الهوية المفتتة من جديد. إن طقوس الإيحاء الذاتي و الخطب الدينية حولت المرشحين قبل العملية إلى حالة من الوعي الخاص "للشهيد"، الخاضع كلية لإرادة الله. ناهيك عن أنهم بالنظر لموتهم يذكرون أصدقائهم وأسرهم أن يظلوا صامدين. و التضحية بالنفس تصبح وكأنها تتويج و ذروة حياتهم. و في الواقع فإن الأقارب ينكرون ألمهم و يفسرون العملية على أنها "عرس".

انبثـــــاق التعصـــــب و الارتقـــــاء التعصبـــــي

ولكن ما الذي يسبب لدى القليل فقط التصلب التعصبي الحقيقي، ذلك التبديل الشخصي غير المفهوم للاتجاه، ذلك التشرب الكلي للإنسان بطاقته المتطرفة؟ لقد استطاعت الفرضيات العلم نفس أعماقية و الديناميكية الأسرية و الطبية النفسية إلقاء الضوء على بعض من ذلك وطرحت من جهة أخرى ألغازاً جديدة. فدائماً هناك تفاعل خاص جداً بين الدوافع طويلة ومتوسطة وطويلة الأمد، وغالباً ما تحسم صدف صغيرة و أصغر، فيما إذا كان مصير إنسان ما سيتصلب باتجاه تطرفي أم لا. و غالباً ما نجد قبل الانبثاق التعصبي الفعلي **طور إنذاري** Prodromal Phases (Conzen,2005)، زمن التذبذب القاتل. و تستحوذ الخطة المقبضة على الشخصية، إلا أنه ما زال يوجد قوى معاكسة، وارتباطات بالمحيط الموثوق. ويزعم بأن زياد جرار، قائد طائرة القتل الرابعة في 11 سبتمبر قد تذبذب حتى اللحظة الأخيرة بين نمط الحياة الغربي و طريق الاستشهاد. و أحياناً يكتمل التصلب بشكل متسلل، كما حصل أحياناً في ساحة التطرف اليساري لسبعينيات القرن العشرين. وفي وقت من الأوقات، على سبيل المثال عند أول استخدام للسلاح، تنقلب فكرة اللاشرعية إلى جد دامي، يلاحظ المعني بأنه قد مضى في طريق لا عودة عنه. و في حالات أخرى يحدث تبديل مفاجئ للاتجاه. وما يكون جاهزاً كنمط معرفي، يستحوذ فجأة على الشخصية. ولنفكر هنا بهروب أرولريكه ماينهوف Ulrike Meinhof من معهد دالمر، تلك "القفزة" المشهورة نحو اللاشرعية. ومن ناحية أخرى يمكن لما يصفه المتعصبون بأنه انبثاق مفاجئ للرؤيا، أن يكون جزءاً من أسطرة الذات. و عليه فإن "خبرة باسيفالك" المزعومة لهتلر قد تم دحضها بوضوح في هذه الأثناء كقائد خرافة.

و من المنظور التحليلي النفسي يعني انبثاق التعصب إعادة بناء كلي للذات و لإدارة الطاقة النرجسية. فالقناعة التعصبية تزحف باتجاه لب الهوية، تصبح محور و مفصل خبرة متغيرة كلياً للعالم. وتزحف عناصر كانت حتى الآن هامشية و سلبية من الذات، أي عدم التسامح والغضب و الفظاظة إلى المركز، وتجعل من المطلب متطرفاً بشكل شديد. و ينقطع الارتباط بالأسرة أو الأصدقاء أو التصورات القديمة عن العالم، الذي ما زال يمسك بالمتطرف، وغالباً ما يتحول إلى احتقار لاذع. وينساب الليبيدو إذا جاز التعبير من المواضيع و يتمركز في رفع شأن المهمة الذاتية. و يتحول النجاح في الرسالة الذاتية إلى جوهر الأنا–المثال، أن يتذبذب، أن يفشل، يصبح النقد الوحيد تقريباً للأنا الأعلى. و يعمل الأنا هنا كمساعد تنفيذ بلا توقف، ولكنه لا يعود قادراً على الاعتراض النقدي و على تصحيح المسار. و بصورة غير مفهومة بالنسبة للمحيط فإن المعني قد سار في طريق بطولي منفرد. وتقفر القدرة على الحب بشكل كامل، هذا إذا كانت موجودة بالأصل. و على الزوجات إما أن يخضعن كلية للمفهوم الشاذ عن الواقع أو أن يتم صدهن بشكل مشحون بالكره. و لعله يمكننا أن نتحدث هنا عن توالدية Generativity منحرفة، لاقرار لها، تدفع الناس المتعصبين. إنهم يريدون إصلاح العالم في كليته، إلا أنهم يفتقدون للقدرة على الإحساس، على تحمل التناقضات، على عمل الخير الملموس، حتى لو كان متواضعاً. وكل الممثلين المشهورين للجيل الأول من الألوية الحمراء الألمانية ضحوا بعلاقاتهم بأولادهم في سبيل عظمة رسالتهم الذاتية. وفي حين أرادوا جعل أن العالم أفضل بالنسبة لأجيال المستقبل، فإنهم تخلو بشكل متطرف عن مسؤوليتهم الخاصة الأساسية.

و من غير الممكن التنبؤ بالكيفية التي سينمو التعصب فيها في مجرى حياة الرشد اللاحق، هل سيتفاقم أم سيصبح عادة أم يتلطف. فما زالت الشخصيات المتعصبة قادرة حتى اليوم تلقى الإجلال حتى اليوم بوصفها مثلاً عليا و شخصيات كارزمية، و قادرة على توكيد ذاتها و تضع ختمها على العالم. لقد مات هؤلاء شخصياً –"متلازمة بينوشيت Pinochet-Syndrome" بشعور من الرضا الداخلي، و استطاعوا تعتيم جوانبهم الهدامة، مثل أتباعهم، من ميزان حياتهم. وغالباً ما يتهذب التعصب بعد

تجلياته التهدمية–الشاذة. فكثير من الإرهابيين تخلوا بعد سنوات طويلة من السجن عن إيديولوجيتهم، ونظروا لهياجهم العنيف فيما بعد على أنه يشبه المرحلة غير الحقيقية في حياتهم. وبعضهم بدأ حياة جديدة كلية، وتـولى المسؤولية. و آخرين أصبحوا كسيحين، وتلاءموا مـع كبـر السـن، و عوضوا صراعاتهم الباكرة ثانية، أو انحدروا من جديد، مثـل إرهـابي الجيش الأحمر السابق هورسـت مـالر Horst Mahler فـي وضـعية إيديولوجية معاكسة بشكل متطرف. و في التطور الشاذ الواضح فإن التغير التعصبي في الشخصية هو "وجود نحو الموت". سافونارولا Savonarola أو روبيسبير أو هتلر أو أندرياس بادر أو سيد قطب، جميعهم أفرطوا في مطالبهم إلى درجة أنهم في النهاية قد قادوا أنفسهم إلى حتفهم بأيـديهم. و جزء مر وجزء بطولي قاتلوا حتى النهاية "مبدأ الشر" المطلـق، انتقمـوا بشكل لاشعوري من عالم برهن نفسه على أنه غير جدير برؤاهم.

خاتمـــــــــــة

هل ستستطيع البشرية استئصال نزعتها نحو التعصب و العنف، أو على الأقل صده؟ و هذا السؤال يبدو اليوم أشد مصيرية من حل التحديات الاقتصادية و البيئية الكبرى. فالوضع العالمي هو وضع متفجر، و المسألة الإنسانية القديمة جداً، من يتحالف مع من وضد من لتحقيق مسائل اقتصادية و التنفيس عن الحقد، لم تصبح في أي وقت أشد غموضاً مثلما هي الآن. وقلما يمكننا أن نستمر في الوقت الراهن تصور وجود سيناريو صراع عالمي كبير، "صراع الحضارات". إلا أن مجموعات صغيرة، و صغيرة جداً، تحمل قناعات دينية وشبه دينية شاذة يمكنها أن تسبب كوارث كبيرة. و يكاد المرء يجزم، بالمطالبة "بدكتاتورية الحكمة" (Freud,1927) ، ضد عاطفة لم نعد اليوم قادرين على تحقيقها. إلا أنه لن تقوم في المنظور القريب أية أخلاق مشتركة، أي هوية جامعة للشمل العالمي. بل على العكس فالنضال من أجل المواد الأولية الناضبة يحتمل أن يزيد من حماس الأنانيين القوميين و المتطرفين الدينيين. وكل شيء غير توقعنا لأزمات شديدة قادمة، سيكون نوع من تشويه الرؤية. إلا أنه ومع ذلك ليس هناك من بديل عن حوار الحضارات و الأديان، عن الدمقرطة التدريجية لهذا العالم.

و بمقدار تنوع التعصب و عدم القدرة على التنبؤ به في الناس و الجماعات، فإن آليات تشكيل الأحكام المسبقة و التمييز العنصري و الملاحقة تمتد عبر كل الحضارات و العصور دائماً بشكل مشابه. وقد توفرت للعقل الإنساني الكثير من المعرفة حول إمكانات الانزلاق الذاتي، ونحن لم نعد نستطيع اليوم أن نتعلل بالأعذار. فمن ينشر اليوم الخرافات، ويؤجج صورته الأعداء عليه أن يعرف ما الذي يسببه في حالة الجد. و ليس هناك من مفكر قد شعر بمسؤوليته نحو التنوير بحزم و في الوقت نفسه أبرز من دون أوهام عجز الحكمة مثل فرويد Freud. ففي عام 1930 كان قد تنبأ بشكل مسبق بمخاوف الإنسانية من طاقة تدميرها الذاتي: "لقد تمادى الناس الآن من خلال السيطرة على قوى الطبيعة إلى درجة أنه أصبح من السهل عليهم بمساعدتها، استئصال بعضهم بعضاً حتى آخر رجل. إنهم يعرفون ذلك، ومن هنا جزء كبير لتوترهم الراهن، لتعاستهم، لمزاجهم القلق" وبالطبع يتابع:

"but it is to be expected that the other of the two 'Heavenly Powers', eternal Eros, will make an effort to assert himself in the struggle with his equally immortal adversary. But who can foresee with what success and with what result? (Freud, 1930; P. 506).؟

ولكن من المتوقع أن يكون لأحد هاتين 'القوتين السماويتين'، إيروس الأبدية، أن تبذل جهدا من اجل إثبات ذاتها في الصراع مع عدوها الخالد مثلها. ولكن من يستطيع التنبؤ بالنجاح والنتيجة؟ (فرويد ، 1930؛ ص: 506)؟". فما الذي يمكن للمرء إضافته لكلمات فرويد في وضعنا الراهن أيضاً؟

المراجـــــــــع

- Auchter, T, Büttner, C, Schultz-Venrath, U, Wirth, HJ (Hrsg) (2003) Der 11. September. Psychoanalytische, psychosoziale und psychohistorische Analysen von Terror und Trauma. Psychosozial-Verlag, Gießen
- Bohleber, W (1992) Nationalismus, Fremdenhaß und Antisemitismus. Psychoanalytische Überlegungen. Psyche 46: 689-709
- Bohleber, W (2002) Gewalt in der Adoleszenz – Sackgassen in der Entwicklung. In: Schlösser und Gerlach: 557-572
- Bolterauer, L (1989) Die Macht der Begeisterung. Fanatismus und Enthusiasmus in tiefenpsychologischer Sicht. Edition discord, Tübingen
- Chasseguet-Smirgel, J (1989) Anatomie der menschlichen Perversion. DVA, Stuttgart
- Conzen, P (2005) Fanatismus. Psychoanalyse eines unheimlichen Phänomens. Kohlhammer, Stuttgart
- Erikson, E H (1981) Jugend und Krise. Die Psychodynamik im sozialen Wandel. Suhrkamp, Frankfurt aM
- Erlich, S (2003): Trauma, Terror und Identitätsbildung. In: Auchter et al. 219-230
- Fest, JC (1973) Hitler. Propyläen, Berlin
- Freud, S (1921): Massenpsychologie und Ich-Analyse. GW 13, 71-161
- Freud, S (1927): Die Zukunft einer Illusion. GW 14, 325-80
- Freud, S (1930) Das Unbehagen in der Kultur, GW 14, 419-506
- Green, A (2000): Geheime Verrücktheit. Grenzfälle der psychoanalytischen Praxis. Psychosozial-Verlag, Gießen
- Henseler, H (1995) Religion - Illusion? Eine psychoanalytische Deutung. Steidl, Göttingen
- Hole, G. (1995): Fanatismus. Der Drang zum Extrem und seine psychischen Wurzeln. Gießen: Psychosozial-Verlag
- Kakar, S (1997) Die Gewalt der Frommen. Zur Psychologie religiöser und ethnischer Konflikte. C. H. Beck, München

- Kancyper, L (2000) Das Gedächtnis des Grolls und das Gedächtnis des Schmerzes. Psyche 54: 954-972
- Kernberg, OF.(1998): Wut und Hass. Über die Bedeutung von Aggression bei Persönlichkeitsstörungen und sexuellen Perversionen. Klett-Cotta, Stuttgart
- Kohut, H (1973) Narzissmus. Suhrkamp, Frankfurt aM
- Matussek, P, Matussek, P, Marbach, J (2000) Hitler. Karriere eines Wahns. Herbig, München
- Mitscherlich, A. (1977): Massenpsychologie und Ich-Analyse – ein Lebensalter später. Psyche 31, 516-539
- Richter, HE (1995) Denken gegen Anpassung. Hoffmann & Campe, Hamburg
- Stierlin, H (1975) Adolf Hitler. Familienperspektiven. Suhrkamp, Frankfurt aM
- Volkan, VD (1999) Das Versagen der Diplomatie. Zur Psychoanalyse nationaler, ethnischer und religiöser Konflikte. Psychosozial-Verlag, Gießen
- Wirth, H-J (2001) Hitlers Enkel oder Kinder der Demokratie? Die 68-er-Generation, die RAF und die Fischer-Debatte. Psychosozial-Verlag, Gießen

مراجـــع النـــص

[1] العنوان الأصلي للمقال: (Fanatismus Fanaticism – Psychoanalysis eines unheimlichen Phänomens) Psychoanalyse of an eerie phenomenon.

مجلة: منتدى التحليل ا لنفسي Forum der Psychoanalyse. الناشر: Springer Berlin / Heidelberg. الرقم الدولي الموحد للدورية الناشرة: 0178-7667 (Print) 1437-0751 (Online). العدد Volume 23, Number 2 / Juni-2007- (99-119)

[2] لمصطلح Fanatism مرادفات عديدة حسب السياق: التعصب، الغلو (في المجال السياسي والديني)، المغالاة في الأفعال و التصرفات، الحماس المفرط، كما تطلق صفة Fan على المعجبين في المجال الفني والرياضي، أو الأنصار (المؤيدين) لفريق معين.....

[3] الكالفينية هي مذهب مسيحي بروتستانتي يعزى تأسيسه للمصلح الفرنسي جون كالفن، وكان هذا الأخير قد وضع بين عامي 1536م و 1559م مؤلفه (مبادئ الإيمان المسيحي) والذي يعتبره الكثيرين من أهم ما كتب في الحركة البروتستانتية.

سار كالفن على خطى بولس الرسول والقديس أوغسطين في التأكيد على ما اعتبره سمو الله وسيادته على كل شيء، وتتقاطع أفكاره مع أفكار مارتن لوثر في أن تبرير الخطاة والخلاص يحصل عن طريق الإيمان فقط وليس بالأعمال. ولكن كالفن كان يعتقد بالاختيار المسبق، أي أن الإنسان بعد أن يخطئ لا يستطيع أن يمتلك الإرادة الحرة للتوبة، أما كل الذين سينالون الخلاص فأن الله كان قد سبق واختارهم قبل إنشاء العالم.

اعتبر كالفن الكتاب المقدس بأنه المرجعية الأولى ذات الشرعية والسلطة والتي يجب أن تخضع لها السلطات الأرضية، وقد نجح من خلال هذا الفكر بتشكيل حكومة ثيوقراطية في جنيف عرفت بنظامها المتشدد.

في القرن الثامن عشر الميلادي قام أحد أبرز رجال الثورة الفرنسية روبسبير مكسيمليان 1794 -1758 ROBESPIERRE MAXMILIEN بالقضاء على خصومه السياسيين، وبدأ بذلك عهد حافل بالإرهاب حيث كانت نتيجة أعماله القضاء على أربعين ألف (40.000) شخص.

[4] نسبة إلى المذهب الكلبي. و الكلبي شخص عياب، شكاك في طيبة الدوافع البشرية. والمدرسة الكلبية في القرن الرابع قبل الميلاد , تأسست في اليونان المدرسة الكلبية أو مجموعة الكلبيين ,الكلبية هي سمة للشخصية التي تتميز بالاحتقار الصريح للقواعد الأخلاقية .

كانت تتخذ موقف الاحتقار من العادات والثقافة وقد دفعهم ذلك إلى انتهاك الفضيلة وبالتالي فإن الناس الذين يتجاهلون قواعد الأخلاق والفضيلة بلا حياء , أصبح يطلق عليهم اسم الكلبيين وترتبط النزعة الكلبية بنقص التطور الثقافي والأنانية وغير ذلك من السمات السلبية.

[5] الإسقاط Projection: يعرف الإسقاط بأنه إنكار الميول والأفكار الذاتية لما تسببه من مشاعر ذنب وعزوها للآخرين. فالمشاعر غير المرغوبة، كالعدوانية أو الصفات النفسية ذات القيمة السلبية كالبخل، أو الصفات الجسدية غير المرغوب فيها التي يمتلكها الشخص يتم إسقاطها على الأشخاص الآخرين ونسبتها إليهم. ويستخدم المرضى الإسقاط أكثر من غيرهم وهي سمة مميزة في الزور (البارانويا). غير أنه يمكن أن يكون في حالات محددة آلية مفيداً لتجنب مشاعر الألم والتهديد والرؤية المؤلمة للانفعالات السلبية الذاتية للشخص. ومن ثم يمنع الشعور بالنقص. فنقل الصراعات النفسية الداخلية إلى الخارج يحفظ إحساس الإنسان بقيمته، غير أنه من جانب آخر يقود إلى الإدراك المشوه والخاطئ ولإلى الأحكام المسبقة. أما الإنسان الناضج فهو يتعامل مع الإسقاط بمرونة وحرية ويساعده في نقد المحيط، ويدفعه للمقاومة، ويجنبه إمكانية استغلاله من قبل الآخرين. والإنسان الناضج يستطيع من خلال التأمل إدراك التشويهات والتقييمات الإدراكية وتصحيحها والبحث عن أسباب الإسقاط.

[6] ا الديماغوجيا : كلمة يونانية تعني شعب – قائد – السياسي المتلاعب – يدل على التقييم

الأخلاقي السلبي لنمط من الأفعال و التصرفات التي تشكل لونا من الرياء و النفاق في السياسة و التي تهدف إلى الاستحواذ على وعي الجماهير باسم أغراض أنانية و تتم عادة باستخدام وسائل الأخلاق ، و بين أهداف الديماغوجيا يأتي الوصول إلى السلطة و اكتساب الشعبية لدى الجماهير، وتحقيق المآرب الأنانية الطبقية و الشخصية و المتاجرة بمصالح الجماهير و تطلعاتها . و اللجوء إلى البواعث الوضعية و الرواسب المخلفة لدى الناس و حلف الإيمان الكاذب بالإخلاص للشعب ، إن القاعدة الاجتماعية للديماغوجيا هي وجود طبقات مستغلة تمارس سيطرتها على الكادحين لا بوسائل العنف المباشر بل و عن طريق الخداع السياسي أثناء الحملات الانتخابية و في الدعاية اليومية و تنظيم انتفاضات جماهيرية رجعية و الأعمال التخريبية .

الديماغوجية بالمعنى المستخدم اليوم القدرة على كسب تعضيد الناس ونصرتهم عن طريق استثارة عواطفهم واللعب بأحاسيسهم ومشاعرهم وليس عن طريق الحوار العقلاني معهم، والديماغوجي هو الشخص القادر على الوصول إلى السلطة السياسية مستخدماً مهاراته الخطابية ، حيث يستطيع أن يتحكم في انفعالات المستمعين إليه وأن يدفعهم إلى التحرك في الاتجاه الذي يريده هو بالرغم من وجود اعتبارات كثيرة موضوعية ترجح عدم التحرك في هذا الاتجاه ، ويرى العديد من المفكرين أن الديماغوجي لابد أن يكون متصفاً أصلاً بصفات كاريزماتية وبصفات قيادية ، وأن يكون شديد الثقة بنفسه وقادراً على أن ينقل ذلك الشعور بالثقة للآخرين بحيث يظهر لهم وكأنه مقتنع تماماً بصدق ما يقوله لهم رغم علمه التام بزيف ما يدعيه ، ودائماً ما يعزف الديماغوجي على وتر قدرته على الرؤية المستقبلية لأخطار تحدق بالشعب ولا يستطيع أن يراها ، فيدعو الناس للتكتل وراءه ليحارب بهم قوى الطغيان التي يعلم دونهم أنها تحاول قهرهم والسيطرة عليهم ، والديماغوجي يكون دائماً مهتماً بالوصول إلى السلطة أكثر من اهتمامه بالصالح العام ، ومن ثم يكون مستعداً دوما لتبني سياسات ذات عواقب وخيمة بالنسبة للشعب إذا ما كانت هذه السياسات ستحقق هدفه الشخصي في الوصول إلى السلطة أو البقاء فيها .

[7] أحد معسكرات الإبادة النازية

[8] النائب أو المدعي العام

[9] نسبة إلى الروائي النمساوي فرانس كافكا Franz Kafka نز (1883 ـ 1924) وقد تميّزت آثاره بتصوير قلق الإنسان الحديث.

[10] 2- الاجتياف introjection: عبارة عن تمثل خيالي لمواضيع وصفات تابعة لهذه المواضيع بحيث تصبح جزءاً من الأنا أو الأنا الأعلى.

الاجتياف يمكن تشبيهه بالامتصاص. والفرق بينه وبين التماهي هو أن التماهي نوع من التغليف الخارجي لبنية مزعزعة أما الاجتياف فهو تشريب هذه البنية داخلياً. وترى ميلاني كلاين أن الاجتياف عملية هامة ومفيدة في الطفولة، كونها تتيح للطفل استيعاب العالم، في البداية. ويوجد دائماً مع عكسه المكمل له، ألا وهو الإسقاط (أنظر أدناه). وترى كلاين كذلك أن الاجتياف والإسقاط هما أول آليتان يستخدمهما الطفل كأسلوب لإبعاد كل ما هو مؤلم عن الذات، وإن هدف الاجتياف جعل مواضيع العالم الخارجي غير خطيرة، من خلال إدخالها إلى الذات وجعلها جزء من الذات.

فالمشاعر التي لا يمكن إظهارها للخارج بسبب الخوف من العقاب والتي لا يمكن كذلك إسقاطها يتم توجيهها إلى ذات الشخص لتحييدها. مما يؤدي إلى اتهامات الذات ومشاعر النقص والاكتئاب وإلى تصرفات انتحارية وتحقير الذات. وهنا ينظر الشخص إلى أن أسباب عدم الرضا عن الحياة تكمن فيه داخله، ويفتقد الشجاعة إلى البحث عن أسباب عدم الرضا عن الحياة في الخارج.

وفي الشكل السلبي من الاجتياف يتم توجيه السلوك والمشاعر العدوانية بصورة جامدة وبشكل آلي ضد الذات. أما الشكل الإيجابي للاجتياف في مواجهة مواقف الحياة الخطيرة، فهوة التماهي مع مواقف الآخرين ومن خلال هذا التماهي يمكن إخضاع مواقف الصراع للنقد الذاتي السليم ومن ثم يتقبل المرء إمكانية كونه ليس محقاً دائماً.

ويلعب الاجتياف دوراً مهماً في الحياة النفسية الأولى والصحة والمرض وبناء الشخصية. وكان أول من وضع هذا المصطلح فيرينتشي Ferenczi وتوسعت ميلاني كلاين في تفصيله، وأطلق عليه أبراهام تسمية Incorparation التي تعني دمج، اندماج، تجسدي. وقد أكد عليه فرويد في دراسته للميلانخوليا (الاكتئاب الذهاني)، ووضعه لا حقاً مقابل الإسقاط.

[11] أجيبة، الصورة المفهومية Imago الصورة في أصلها اللاتيني مشتقة من كلمة (imago)، المقصود منها كل تمثيل مصور مرتبط بالموضوع الممثل عن طريق التشابه. إنه الصورة المفهومية غير المادية. أما الإيميج (الصورة Image) فهي الصورة العيانية الملموسة. و الإيماجو أو الأجيبة هي الصورة الذهنية التي تمتلك نوع من التقديس.

[12] كتاب لهتلر

[13] القاتل الراكض، أو القاتل المسعور: حالة من السعر أو الجنون يقوم فيها الشخص بذبح كل من يقف في طريقه وصولاً إلى أن يقتل أو ينتحر بنفسه.

[14] رئيس الملائكة ميخائيل له مكانة خاصة في المسيحية و تحتفل الكنيسة القبطية بإقامة تذكاراً لرئيس الملائكة ميخائيل في اليوم الثاني عشر من كل شهر قبطي وتؤمن الكنيسة الأرثوذكسية برئاسة الملاك ميخائيل لجميع طغمات الملائكة وأنه ملاك القيامة الذي بشر النسوة حاملات الطيب قائلاً لهن المسيح قام من الأموات. (4)

الملامــــــــــح السيكولوجيـــــــــة للكـــــــــــــــــره والاختـــــــــــــــــــلاف[1]

د. صالـــــــح بريـــــــــــــك[2] – علـــــم النفـــــــس

لماذا يبدو الكره أكثر تغلغلاً في العلاقات الإنسانية؟ تكمن الإجابة على هذا السؤال، على الأرجح، في الاختلاف.

يبدو أن الناس لا يتحملون الاختلاف فيما بينهم، لذا تجدهم أكثر تفاعلاً مع أولئك الذين يقاسموهم مواقفهم وتوجهاتهم المعرفية والاجتماعية والدينية...الخ. من جهة أخرى، تراهم بحكم المصلحة، وأحياناً الضرورة، في بحث مستمر عن تفاصيل تزيد من المسافة والفروق بينهم، ليعودوا من جديد، وبحكم المصلحة والضرورة أيضاً، إلى بذل ما يستطيعون من أجل تجاوزها، وكأنهم في حالة توتر اجتماعي تحمل في طياتها التناقض والاختلاف، وبنفس الوقت الحل والانفراج.

دون شك يتحول الاختلاف إلى تربة خصبة للكره والعدوان عندما يسعى الفرد (الجماعة) سعياً محموماً إلى إقصاء كل فرد (جماعة) لا يتناغم مع منظوره للحياة وطبيعة العادات والتقاليد والقيم والقناعات التي يؤمن بها.

بالطبع، ترتبط أساليب حياتنا ورغباتنا وطموحاتنا بأعراف المجتمع الذي نعيش فيه ومتطلباته. وبالتالي، فرغم ما قد نمتلكه من إمكانات وقدرات وطاقات، يبقى الانتماء الاجتماعي مسألة جوهرية بالنسبة لكل واحد منا. لذا، قد نواجه الآخر سواء كان من نفس الجماعة إذا خرج عن المألوف في جماعة "النحن" أو "كفر" بهذا الانتماء (يمكن أن نكون أكثر عنفاً حياله) أو، وهو الأرجح، الآخر المختلف الذي ينتمي أو يشكل جماعة "الهم".

لا يمكن لأحد أن يوقف عملية قولبة الأفكار وتنميطها حيال الفرد أو الجماعة (عائلية، اثنية، دينية وغيرها). من المعروف أن الأفكار النمطية هامة جداً في تكيفنا مع ذواتنا ومع المحيطين بنا، لكنها قد تكون أحد أهم الممهدات للكره. فمثل هذه الأفكار أو القوالب الذهنية الجامدة تمثل آلية "عملية" لعزو "الخير" و"الشر". لقد اعتاد الناس على إسباغ صفات، ميزات، أفعال، نيات على بعضهم البعض انطلاقاً من القوالب الذهنية أو الأفكار النمطية التي تشكل جزءاً أساسياً من منظومتهم المعرفية-الاجتماعية.

لقد أضحى مفهوم الاختلاف Diversity كثير التداول في العقدين الأخيرين ضمن سياق الحديث عن العيش المشترك والتسامح مع الآخر المختلف (Granbard, 1997). فالناس مختلفون بالفطرة، وهذا الاختلاف يمثل بالمطلق إبداعاً حقيقياً للطبيعة. إذا تجردنا من التقييمات النفسية-الاجتماعية والثقافية، وقاربنا الاختلاف من منظور فني بحت سنرى بوضوح كم هو جميل وممتع للعين والأذن والذوق ولكل نوافذ الإنسان إلى العالم الآخر. فالقبح يكمن في الرتابة والروتين والنمطية، لكنها حقيقة لا تزال بعيدة عن وعي الإنسان النفسي-الاجتماعي، خاصة في ظل ارتباط الحاجة إلى الانتماء والأمن بالحاجة لحفظ البقاء التي تفوق أهمية كل القيم الفنية والجمالية.

وعندما نتحدث عن اختلافات فردية أو جماعية لا بد من الانتباه إلى أنها مقادير نسبية، وبأنها لا تباعد فقط، بل يمكن أن تقارب وتضيف إلى حياة الناس خبرات سارة لم يعهدوها من قبل. لكن، يمكن القول بأن التعامل مع الاختلاف، غالباً ما "ينمط" كحاجز غير نفوذ في وجه التواصل الإنساني البناء، وبهذا المعنى، يشكل قاعدة يمكن أن تبنى عليها كل أشكال التنميط الذهني المتحيز والحقد والكره والانتقام.

من جهة أخرى، تعد الاختلافات بين الناس من العوامل الميسرة: 1) لتجنب محاولات التقريب بين الجماعات؛ 2) للسعي نحو الفردانية؛ 3) لحفظ قيمة أنا الشخص وهويته الاجتماعية. إن امتلاكنا لشيء ما لا يمكن للآخرين الحصول عليه يشعرنا بالتفوق والأهمية – جوهر الاختلاف بيننا وبينهم، الأمر الذي يثير، غالباً، مشاعر الحسد والكره لديهم، وبالتالي طموحهم لتقليص أو القضاء (عملياً) على أسباب هذا الاختلاف. وتجدر الإشارة إلى أن مصادر الاختلاف متنوعة جداً (صفات وراثية، خصائص شخصية، سمات اجتماعية وثقافية...)، وتنوعها هذا يدلل على صيرورة حياتية تتصل عضوياً بجوهر العلاقات الإنسانية وطبيعتها.

بكل الأحوال، نحاول هنا التركيز على تلك الاختلافات المستترة في الوعي الجمعي كمصدر للنزاع الجماعي والنفور أو الكره "الغبي" للآخر المختلف دينياً أو عرقياً أو قومياً...الخ على قاعدة التباين في البناء المعرفي والمنظور الحياتي والقيمي (Льобон, 1993, с. 62).

وفي سياق علم النفس الفارق الذي يدرس الفروق في الفرد وبين الأفراد والجماعات يمكن القول بأن هذه الاختلافات مرتبطة وليست مصاحبة لمشاعر الكره، لكن درجة الارتباط هذه تعد عاملاً حاسماً في العلاقات بين الأفراد أو الجماعات، وهي (أي درجة الارتباط) تتوقف على:

- حدودها الواقعية، وعلى الحالة الاجتماعية التي تزيد شدة الاختلاف أو تضعفها؛
- دور هذه الاختلافات أو الفروق في تشكيل المكانة الفردية والجماعية؛
- المسافة الاجتماعية بين الأفراد أو الجماعات التي تتأسس على اختلافات بيولوجية، طبقية، اثنية، دينية، أيديولوجية.

إن الاختلافات التي تعزز القهر والتحقير والتدمير وإيقاع الأذى والعنف ومحاولة إقصاء الآخر مجبولة دائماً بالكره. وبهذا المعنى، يعتبر الكره وظيفة للاختلاف ونموذجاً معرفياً للعنف (الانتقام)، وبالأصل يعد الأخير من بين أعراض أو تمظهرات البارانويا والسادية. ولعل مراجعة سريعة للتاريخ البشري ستكشف عن حقيقة غير مريحة على الإطلاق تتلخص في أن الناس دائماً ينقسمون (لأسباب وعوامل لانهائية) إلى تكتلات جماعية ثم جماعات ثم فئات...الخ، وغالباً ما تكون المنافسة أو النزعة للتملك والحاجة إلى الإحساس بالقوة والتميز قاعدة هذا الانقسام. وعادة ما يتم تبرير هذه الانقسام على أساس سبب أو دافع واحد – أن يكرهوا بعضهم بعضاً يعني أن يتسبب كل منهم للآخر بالأذى والضرر، وبالتالي يشير الانقسام في هذه الحالة إلى التنافر والمواجهة وتكتسي معه الاختلافات معاني الكره والنزعة للصدام والصراع.

يهدف البحث النفسي، من حيث جوهره، إلى تحديد ملامح ظاهرة نفسية ما وتباياناتها الفردية والاجتماعية. وعبر أي اختبار للشخصية يتم تجميع الأفراد ضمن فئات حسب السمات المشتركة فيما بينهم، وبالمقابل يسعى القائمون على تطبيق الاختبارات النفسية ووسائل القياس الجماعية للكشف عن الفروق الفردية في ظاهرة ما...هذا هو المدخل الذي ينفذ منه علم النفس التجريبي الذي أسس له فونت عام 1879 (Minton, Schneider, 1980).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ما يهمنا في هذه المسألة هي الاختلافات بين الجماعات وعلاقتها بالكره، لذا لن نتوقف عند الدراسات التي انصبت في إطار الفروق الفردية إلا من باب ارتباطها بالإشكالية العامة للموضوع.

1-3- مـــــن هـــــو الآخـــــر؟

في كتابها "Strangers to Ourselves" رسمت يوليا كرستيفا *Julia* Kristevaالأستاذة في جامعة باريس الصورة التالية: "أولا، يستشعر الفرد خصوصيته، تلك العيون، الشفاه، عظام الوجنتين، تلك البشرة المختلفة عما لدى الآخرين، كل ذلك يميزه ويذكره بوجود شخص ما هناك"..."أحبه، عندما أكون ملحوظاً على الأقل"..." أقتله، لأنني الآن أفضل خصوصيتي فقط" (Kristeva, 1991, p. 3). الآخر هو انفصام لا مفر من اللقاء به، إنه تعيين لحدودنا وانعكاس أني شفاف لمرحلة المرآة التي تحدث عنها جاك لاكان Jacques Lacan (1901-1981) – يطور الطفل بين الشهر السادس والثامن من عمره قدرته على التعرف إلى صورته في مرآة ذاته، الأمر الذي يجعله أكثر إحساساً بالوحدة الجسدية المتكاملة، كما يمنحه الوعي فكرة الاختلاف و الانفصام عن الغير (Lacan, 1977, pp. 1-7). إذا، فنحن نمر في علاقتنا مع الآخر مرحلة المرآة، أي أننا نتواجه مع صورة أنفسنا حتى نميز "الأنا" الخاص بنا عن أناه. والآخر هو "عرض" من أعراض عملية التغرب، كما أنه مفهوم فرضي تكمن محدداته الواقعية في المذهبين الكولينيالي والقومي. وعلى الرغم من أن الآخر يرمز بشكل عام للاختلاف، فإنه يشكل حسب الفكر الامبريالي منظومة أيديولوجية. وفي هذا السياق، يصف إدوارد سعيد الآخر في استشراقه كتمظهر للحاجة إلى تبرير علاقات القوة القائمة واستمرارها. فهو يعتبر الاستشراق قوة فكرية سابقة على المذهب الكولونيالي انطلاقاً من تعزيز الفكر الشرقي والآسيوي؛ حالة يتم فيها احتواء السلطة المعرفية والإرث المعرفي والقدرة المعرفية السامية وتقديمها عبر الأطر التي تحكمها (Rivkin, Ryan, 1998, p. 880). لذا، تحول الشرق إلى موضوع لا بد من الحكم عليه ودراسته بسبب التفوق الذي كان نتيجة طبيعية غير معلنة من قبل الغرب. وبالتالي، صار الشرق أنموذجاً للاختلاف واللاعقلانية والسذاجة والتفاهة، وبالمقابل، أضحى الغرب مثالاً للفضيلة والعقلانية والتطور الذي تم الاعتراف به من قبل الآخرين. ويرى سعيد بأن الاستشراق في ظل الاستعمار تحول إلى منظومة فكرية معدّلة باستخدام مجموعة من المعارف المتصلة به والتي في معظم الأحيان تخدم بقاء هذا الاستعمار واستمراريته (Said, 1997).

هنا قد يكون من المفيد مقاربة الحالة الإنسانية والانفعالية التي خبرها ادوارد سعيد في الشرق والغرب. لقد أفصح عن الاضطهاد الذي كان يتعرض له من الآخر الغربي سواء في القدس والقاهرة أو في الولايات المتحدة الأمريكية. مثلا، في كتابه "خارج المكان" يتضح كيف اقترن الآخر الغربي لدى سعيد الطفل بإحساسه بالنفي والإحباط والظلم. فعند عودته من مدرسته في القدس كان الجنود البريطانيون يفتشون حقيبته المدرسية ويتفحصونه "طولا وعرضا" بصفته "مصدر شغب محتمل"، وهو لم ينسَ كيف اعترضه الحارس الانكليزي عند اقترابه من "نادي الجزيرة" قائلا: "ماذا تفعل هنا يا ولد...لا تجاوب يا ولد، غادر المكان، غادره بسرعة، ممنوع على العرب ارتياد هذا المكان، وأنت عربي" (سعيد، 2000، ص.72). وعندما هاجر سعيد إلى الولايات المتحدة الأمريكية تجذّر شعوره باللاانتماء للمكان، وتعزز شعوره بالنفي والاضطهاد، فعلى الرغم من تفوقه في مدرسة (ماونت هرمون Mount Hermon School) – وهي مدرسة للبيض وكانت تضم عددا من التلاميذ السود الموهوبين في الرياضة – تمت معاملته كواحد من الملونين وحرم شرف إلقاء خطبة التخرج (سعيد، 2000).

يصبح التجانس والسمات والاهتمامات المشتركة أكثر تمظهراً في مخيلاتنا عندما يضعف الإحساس بوجود فروق جوهرية بيننا وبين الآخر. وفي هـذا الإطار، أكدت ليندا كولي Linda Colley على هذا المصدر للهوية الذاتية، وبنت فكرتها على مستوى قومي معتبرة أن الهوية الوطنية وانبثاق مفهوم "الأمة" في بريطانيا كان أبرز نتيجة للمواجهة مع الآخر الكاثوليكي (فرنسا نابليون). ثم أوضحت كولي وجهة نظرها بالإشارة إلى لوحة الفنان ديفيد ويلكي David Wilkie "متقاعدو تشيلسي يقرؤون مذكرات معركة ووترلو *1822*" مشيرة إلى أن "الصراع مع آخر خطير وعدائي انتهى إلى التغاضي عن الانقسامات الداخلية وتشجيع الوحدة، مما جعل الأمر ممكناً لفنان اسكتلندي أن يرسم شوارع لندن في مشهد احتفالي بالنصر الذي حققه شخص انغلو–ايرلندي هو دوق ويلينغتون" (Colley, 1992, p. 366).

وفي روما القديمة، كان هناك معارضة كبيرة لقبول ترشح الآخر الاثني المهاجر من شمال ووسط *Gauls* (المقاطعات الرومانية في فرنسا، قبائل السلت) للسلطة. وهي مسألة تشبه ما يجري اليوم مع الآخر الاثني أو الجنسي الذي يرغب في تصدر السلطة في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث دارت ولا تزال العديد من النقاشات حول موضوع وصول أسود أو امرأة لسدة الرئاسة في هذا البلد. ويروي المؤرخ الروماني كورنيليوس تاسيتوس Tacitus (حوالي 56م-117م) أن مبرر الاعتراض على "استيراد حجافل الأجانب" (Tacitus, 1996, p. 242) أو مشاركتهم في السلطة كان يكمن في أن هؤلاء سيزيدون البطالة، ناهيك عن أنهم قد يحطون من شرف أولئك الذين قاتلوا ضدهم وانتصروا عليهم سابقاً (ضد الـ*Gauls* الذين كانوا يطالبون بالمشاركة في السلطة) في حال اتخذوا لأنفسهم موقعاً في السلطة. بعدها، صارت حجة الحفاظ على الهوية الرومانية واهية جداً بسبب التنوع الكبير الذي طرأ على روما:"دعوهم...يكونون بشتى الوسائل عنواناً للمواطنية الرومانية، لكن يجب عدم التفريط مطلقاً بعظمة مجلس الشيوخ ورمزيته" (Tacitus, 1996, p. 243).

وهكذا، اكتسب مجلس الشيوخ الروماني مكانته من خلال تفرده وحصريته وانطلاقاً من مبدأ أن القيمة الذاتية للإمبراطورية الرومانية تكتسب عبر "شلال الدماء" الذي يجري في سبيلها. ومن مدخل نفسي–اجتماعي يمكن القول بأن قلق الهوية ينشأ من الإحساس بتهديد التوجه القيمي الاجتماعي لجماعة تشكلت وفقاً لمفهوم ذاتي اصطلح عليه أفرادها – لقد وعد الإمبراطور الروماني كلوديوس سيزر (*13* ق.م–*54*م) Claudius Caesar بأن " يعتمد نفس السياسة الوطنية التي تجعل تفوق روما" أولى الأولويات (Tacitus, 1996).

من ناحية أخرى، أشارت يولاندا جيتين Jolanda Jetten وزملاؤها في ورقتهم البحثية "التشابه كمصدر للاختلاف Similarity as a source of differentiation " إلى خاصية "شعور جماعة ما بالتهديد عندما تصبح جماعة أخرى شديدة التشابه معها". وقد وصفت من قبل سيغموند فرويد (1922) على أنها "نرجسية الاختلافات الصغيرة" (Jetten, 2001, p. 622). لا شك في أن جوهر أي أمة يكمن في السمات والأهداف العامة المشتركة بين أفرادها، لكن هذا لا يعني بالمطلق أن هؤلاء غير مختلفين، بل يمكن القول بأن الفرد أحيانا آخر بالنسبة لذاته. الأمر يكمن في مدى فهمنا لذواتنا الفردية والجماعية ومستوى التهديد الذي تشكله ذات الآخر الفردية والجماعية أيضاً. قد يشكل الفرد من نفس الجماعة التي ينتمي إليها آخراً خطراً على فرد من نفس جماعته أو على الجماعة برمتها، وقد يشكل الآخر القومي خطراً على الجماعة التي ننتمي إليها لمجرد الإحساس بأن هويتنا الجماعية مهددة، حينها تنصهر أنا الفرد في أنا جماعته في مواجهة تهديد "الهو–الهم".

إذا، موقفنا من الآخر–الفرد أو الآخر–الجماعة يقوم على مدى إحساسنا بتماهيه أو انفصامه عن القضايا المرتبطة بأهدافنا، قيمنا، عقيدتنا، اهتماماتنا، مصالحنا، مستوى تطورنا على الصعيدين الروحي والمادي...الخ.

قد يتشابه الآخر معنا، لكننا نتخذ موقفاً عدائياً منه، وهذا في الغالب يعود لأفكار نمطية جامدة متوارثة عنه تجعلنا نعاني من عقدة خوف تجاهه فنرفضه ونعزله، أو من عقدة نقص فنسعى لتقليده ونكرهه في نفس الوقت لتفوقه.

كيف تؤثر الأحكام المسبقة المتجذرة في وعي الجماعة على الحالة النفسية–العقلية للفرد؟ وكيف تتحول إلى أفكار جامدة مستقرة لدى الفرد تدعم تحيزات الجماعة؟

في الوقت الذي أكد فيه على أن علم النفس الفردي يأتي قبل كل شيء، أولى فرويد أهمية خاصة لدراسة العلاقات مع الآخر (فرد أو جماعة)، الأمر الذي جعل علم النفس الاجتماعي بدوره أولوية على التوازي مع علم النفس الفردي.

في الحياة العقلية للفرد هناك شخص آخر مندرج دائماً كنموذج، كموضوع، كمساعد، كخصم، لهذا يقع علم النفس الفردي أولاً، لكن بالمعنى الواسع للكلمة، فإن هذه الأولوية تمتد، في نفس الوقت، لتشمل علم النفس الاجتماعي (Freud, 1921, p 69).

وبناء على ذلك، فإن العمليات التفاعلية بين الفرد وجماعته تؤدي إلى بروز بنية داخلية أطلق عليها فرويد الأنا المثالية. وهذه الأخيرة منفصلة عن الأنا وتقع في درجة أعلى منها (Freud, 1921, pp. 129-133). وقد نشأت فكرة فرويد كتطوير لما تحدث عنه العالم البريطاني هافيلوك ايليس Havelock Ellis حول النرجسية. قبل الحرب العالمية الأولى كان فرويد (1914) مندفعاً مع يونغ *Jung* في عملهما على تحليل الذهان العقلي psychosis؛ وقد قادته التحليلات التي قام بها لحالة شريبير Schreber[3] إلى دراسة النرجسية المتأصلة لدى المصاب بالبارانويا. على كل حال، فرويد أصبح أكثر اهتماماً بالكيفية التي يمكن استدرار الليبيدو عبرها. وفي هذا السياق اعتبر أن الاهتمام والتركيز على شخص ما خارجي يتحول إلى شكل من إعادة الاستثمار في الذات أو "الاستغراق في الذات". ويؤدي الاهتمام المبالغ فيه بالذات إلى خلق صورة مفضلة ومحببة عنها. وبهذا المعنى، تتحول مشاعر الحب تجاه الموضوعات الخارجية المحببة لتصب أو تذوب في الذات. لكن هذه الفكرة حول الجانب المحبب الخاص من الذات تحول في عمل لاحق له (Freud, 1917) إلى سوداوية وكآبة. وعندما تصل الكآبة إلى درجة باثالوجية، فإن الذات تصبح من جديد موضوع الحب، مع أنها يمكن أن تتحول في ذات الوقت إلى مركز الكره.

وفي عام (1922) أبدى فرويد اهتماماً كبيراً بهذا الجانب المنفصل عن الأنا. وهو يمثل "مخلفات" داخلية للعلاقات المباشرة مع أشخاص آخرين – الأنا بهذا المعنى "راسب لتكثفات4 الموضوع السابقة" (Freud, 1923, p 29). وتبقى هذه العلاقات مع موضوعات خارجية (أشخاص آخرين) ذات تأثير كبير في حياة الفرد النفسية والعقلية، حيث تمكنه من تحديد ذاته بينهم على قاعدة الأدوار الاجتماعية. مثلاً، التواصل مع جدي وجدتي يستتبع الوقوف مطولاً على مواقف ترتبط بالوالد "النموذج" التي استمدها من والدي، وبالتالي بطريقتهما في التواصل مع أبنائي. وكمدرس جامعي ألقي محاضرة على طلابي متأثراً بنموذج مدرسي أو حتى بنموذج معلمي في المدرسة...الخ. وتبدو هذه النماذج مجموعة البدائل التي ألجأ إليها بحسب الموقف. وفي صيغة النموذج، أستطيع أن أكيف نفسي وفقاً المعايير والقواعد التي استمدها منه، وبالتالي إقامة علاقة اجتماعية مع الآخر.

يبدو مفهوم الأنا المثالية مائعاً جداً، لطالما يتأثر الفرد بعدد من النماذج خلال حياته. وكل نموذج يخلف جوانب تتحول إلى مكونات من العالم الداخلي للفرد. بمعنى، تبقى الرواسب السابقة لتكثفات الموضوع قابلة أو عرضة لاستمرار التعديل أو التغيير من قبل أشخاص آخرين (العالم الخارجي).

لم ينصب اهتمام فرويد على مسألة تحولات الأنا المثالية لدى الشخص فقط، بل تعداها إلى التركيز على تجلياتها في حياة الجماعة. إنها ليست فقط طريقة يكتسب الناس عبرها مجموعة من الأدوار، بل هي أساس لوحدة الجماعة وتضامنها. فأفرد جماعة ما يتلاقون أو ينصهرون ويلتحمون لأن ذات أو نفس الأنا المثالية تشكل مرجعية بالنسبة لهم جميعاً، بمعنى، تتحول الأنا المثالية إلى "نحن الجماعة المثالية". وهكذا، تصبح وحدة الجماعة قائمة على قاعدة "مثل" موحدة، كما يصبح الانتماء أو "اللاانتماء" إلى هذه الجماعة مشروط "بتشاركية" أو استدماج هذه النماذج.

تتميز الأنا المثالية أو بالأحرى "نحن الجماعة المثالية" بخصائص أو سمات النموذج الجمعي. إنه نموذج معياري بالنسبة لأفراد الجماعة، بمعنى أنهم يقارنون ذواتهم به. هذه المقارنة هي وظيفة أساسية للأنا الأعلى الذي يقسو في لحظة ما على الأنا أو "يسلك بخشونة شديدة" حيالها مستنداً إلى معايير "نحن الجماعة المثالية". وفي هذا السياق، اعتبر فرويد (Freud, 1930, p.130) أن تحقير الذات (على قاعدة مفهوم الاضطهاد الذاتي الذي تحدثت عنه "ميلاني كلاين[5] Melanie Klein ") يرتبط بعوامل داخلية تقع في أساس الأنا الأعلى الأخلاقي. وأكثر من ذلك، تعتقد كلاين (Klein, 1958) أن الأنا الأعلى هو الجزء اللامتسامح من الشخصية. بمعنى، يمارس الأنا الأعلى دوراً غير متسامح، بل مدمر للأنا (Bion, 1959, p. 314).

تعود جذور فكرة "الأنا الأعلى المدمرة للأنا" إلى التدمير الذاتي البدائي الناجم عن غريزة الموت. وقد سلم فرويد نفسه (1930) بأن "الغرائز" العدوانية الإنسانية ترتبط أصلاً بالإحساس بالذنب الذي تثيره الأنا الأعلى.

قد لا يمثل العنف الداخلي الموجه ضد الذات الانتحار صراحة، لكنه "هجوم" على العلاقات الجيدة للأنا، وعلى الحب، وعلى الحاجة للبقاء (*Riesenberg-Malcolm,1999*). لهذا تنظم الأنا نفسها من أجل الكفاح أو مواجهة هذا الغضب الداخلي (*Rosenfeld, 1971*). تقسم الأنا نفسها على خط طبيعي منشطر بين مشاعر (دوافع) ايجابية وأخرى سلبية. هذا الانقسام يخلق صراعاً داخلياً – ليس بين الرغبات فقط، بل بين أجزاء الذات أيضاً. وعلى هذا النحو تنفصل "الذات السلبية" في الوقت الذي تضعف فيه حدة التوتر الذي يخلقه ضغط "الغريزة". بعد ذلك تتصل "الذات السلبية" بالجوانب الايجابية للذات الكلية، لتهيمن على أكثر جوانب حياة الفرد تعزيزاً، وبالتالي، تصبح الجوانب السلبية كأنا "آخر غريب" يضغط على نحو مؤلم، الأمر الذي يجعلها كمثل "الإبرة" التي تتكأ الجرح باستمرار (*Williams, 1998*).

2-3- الاختلاف العرقي والكره

تعد الاختلافات العرقية من بين مسائل علم النفس الفارق الأكثر تعقيداً، وذلك للأسباب التالية:

- يتطلب بحث هذه المشكلة مدخلا تكاملياً، وعلى الرغم من اتضاح ملامحه في الآونة الأخير، إلا أنه لا توجد بعد إجابات واضحة حيال هذه المشكلة؛
- حتى الآن، هناك وجهتا نظر تتباينان تماماً: تؤكد الأولى على حتمية وجود العرق وإشراطه بيولوجيا، في حين تشدد الثانية على سخف هذا الإدعاء وأن الحديث عن اختلافات عرقية مسألة مصطنعة أو مختلقة بنية مبيتة؛
- كرس أنصار مذهب "العرقية" خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مفاهيم الوراثة والجينات في تفسيرهم للفروق الفردية والجماعية بالعلاقة مع المنبت أو الأس العرقي؛

هناك ضبابية واضحة في المحددات المستخدمة لتفسير الاختلافات العرقية والاثنية (Minton, Schneider, 1980; Willerman, 1979).

ولعل التحدي الأكبر في هذا السياق يكمن في السعي للمقاربة بين الاختلافات العرقية ونظيراتها الثقافية بعيداً عن الحقيقة المثبتة حول انتفاء مفهوم السلالة أو العرق "الصافي" (Жакар, 1996).

ولعل المشكلة الأساسية التي ينبغي تجاوزها هنا عدم وجود إجماع حول مفهوم "العرق" (Willerman, 1979). وعلى نحو أدق، يتسبب الطابع التشعبي لهذه المسألة في المراوحة بين العديد من العلوم التي تعنى بدراستها. مثلاً، في العلوم الاجتماعية تتم معالجة مفهوم العرق انطلاقاً من التنوع البيولوجي المحصور في إطار التماثل الجيني. وبالتالي، فإن العرق تحديد أو انقسام أفراد النوع الواحد حسب محدداتهم أو خصائصهم الجينية إلى فئات فرعية متنوعة (Minton, Schneider, 1980, p. 424). وفي توجه آخر، يمكن تحديد الأعراق حسب تجمعات الناس المناطقية على قاعدة أصلهم الجيني الذي يتمظهر من خلال سمات أو علامات ترتبط بالمظهر الخارجي يتقاسمها أفراد جماعة محددة خلافاً لأفراد الجماعات الأخرى (Йорданов, 1991, с. 3).

وهكذا، يمكن تلخيص المبادئ العامة التي تحكم تصنيف الأعراق حسب رؤية ممثلي نظرية الفروقات العرقية، بما يلي: مؤشرات تشريحية؛ تراتبية هرمية؛ انتماء مناطقي (Йорданов, 1991). ومن هذا المنطلق، يتحدد النمط العرقي، قبل كل شيء، تبعاً للمكونات التشريحية والفيزيولوجية، خاصة التكوين الجسدي، الطول، طول الرأس وعرضه، طول الوجه وعرضه، لون البشرة، الشعر، العيون، الزمرة الدموية وغيرها (Ханко, Лацуза, 1991). وهكذا، يعتقد أصحاب هذا الرأي بأن الأعراق مجتمعات أصيلة تتباين على قاعدة وجود أو انتفاء محددات جينية بعينها (Willerman, 1979).

في الجهة المقابلة، شهدت تسعينيات القرن المنصرم العديد من الدراسات لباحثين اعترضوا على ما يسمى بالفروق العرقية في الخصائص البيولوجية وعلاقتها أو ارتباطها بقدرات الإنسان (مثلاً، Yee et al, 1993; Жакар, 1996; Леви-Строс, 1996). ففي عام (1993) نشرت مقالة علمية في مجلة American Psychologist – تصدر عن الرابطة النفسية الأمريكية *APA* – انتقد فيها الباحثون (Yee et al., 1993) بشدة منظري الفروق العرقية وفكرتهم حول تحديد النمط العرقي تبعاً للخصائص الجينية التي تسمح بالترتيب أو التصنيف الهرمي للقدرات التي يملكها الأفراد الذين ينتمون لهذا العرق أو ذاك، مع العلم بأن هذه الفكرة لاقت قبولاً معنوياً مادياً ورواجاً كبير منذ القرن الخامس عشر ولا تزال مؤشراتها واضحة حتى اليوم. ويؤمن يي A. Yee وزملاؤه بأن مثل هذه التصنيفات أو التقسيمات تترك آثاراً نفسية–اجتماعية سلبية للغاية، بل هي "الحاضنة" للأفكار النمطية الجامدة السلبية عن الآخر العرقي. وقد نادوا بتعديل مفهوم "العرق" المتداول على نحو خطير وخاطئ في وثائق اليونسكو.

لماذا تهتم العلوم النفسية ببحث مشكلة الأنماط العرقية؟ يمكن تحديد أهم العوامل وراء ذلك بما يلي:

– أساساً، يندرج "العرق" كواحد من بين المتغيرات المستقلة في بعض الدراسات والأبحاث النفسية (Yee et al., 1993)؛

– تعد الاختلافات العرقية من أهم الأسس التي تتشكل وفقها القوالب الذهنية الجامدة أو الأفكار النمطية السلبية. فبعد الحرب العالمية الثانية، وتحديداً منذ ستينيات القرن المنصرم أخذت هذه المشكلة بالتكاثف، وهي اليوم تجد صدأ قوياً في الدول الغربية، خاصة الولايات المتحدة الأمريكية وانكلترا وألمانيا وفرنسا وبصيغ وأشكال جديدة كالخوف من الأجنبي، والخوف من الإسلام (الإسلاموفوبيا). ويمكن القول بأن الحديث "المجنون" عن "خطر" الإسلام ومعاداته "للحضارة والحرية والديمقراطية" يشكل اصطلاحا لاعقلانياً كشف ويكشف عن حقبة جديدة في تاريخ التمييز

العنصري الغربي الحديث، دون أن ننكر وجود أنظمة وجماعات إسلامية ظلامية ومجردة من كل ما له علاقة بالحضارة والقيم الإنسانية تسهم على نحو مباشر أو غير مباشر في تأجيج هذا "الشر–الكره"؛

– في ظل ضبابية المصطلحات والمفاهيم يُعنى علم النفس بالكشف عن جوهر الصراعات البين–شخصية والبين–جماعية.

لقد توقف بي وزملاؤه عند أفكار ونتائج أبحاث آرثر جنسن A. Jensen التي أشارت إلى أن {80%} من حاصل الذكاء يعود للوراثة، كما تناولوا موضوع "تزوير" سيريل بيرت C. Burt لمعطيات دراساته على نحو يتوافق مع أفكاره وفرضياته. ثم دعوا الرابطة النفسية الأمريكية لتشكيل لجنة تنحصر مهمتها في التوصل إلى معالجة نهائية لمشكلة العرقية كمفهوم علمي (Yee et al., 1993). بدورها، أتاحت المجلة نفسها التي نشرت مقال بي وزملائه American Psychologist الفرصة أمام جنسن وبيرت للرد على الانتقادات الموجهة لهم (American Psychologist, 1995, 50(1), pp. 40-45)، لكن دون طائل، حيث بقي الجدل مستمراً ولم ينتهي.

ومع تفاقم ظاهرة العنصرية بدأت اليونسكو البحث من جديد عن وجهات نظر المتخصصين حولها. لقد طرح مفهوم العنصرية على أساس أن: 1) الجنس البشري مكون من مجموعات متمايزة يشترك أفراد كل واحدة منها بخصائص بيولوجية معينة – أعراق؛ 2) يمكن تصنيف هذه الأعراق على سلم أو مقياس تبعاً للقدرات التي تختزنها كل مجموعة عرقية (Жакар, 1996, с. 22). هذا الطرح كان محط انتقاد شديد من قبل ألبير جاكار[6]، حيث اعترض الأخير على "بوتقة" الناس في جماعات عرقية استناداً إلى مؤشرات ومعايير بيولوجية أو جينية. وأشار إلى أن مفهوم العرق لم يعد صالحاً للتداول على هذا النحو، وقد اعتبر أن هناك فروق أو اختلافات مميزة بين الجماعات البشرية على أساس الخصائص البيولوجية والسمات الشخصية–الاجتماعية، لكن تمازج هذه الجماعات وتفاعلها جعل إمكانية الحديث عن عرق "نقي" أو سلالة "صافية" غاية في اللاعقلانية، إذ يقتضي هذا الأمر عزل أفراد هذه الجماعة أو تلك على نحو تام وفق تسلسل زمني متصل دون الاحتكاك بأفراد الجماعات الأخرى مطلقاً (Жакар, 1996, с. 24).

وعلى نحو مشابه، ذهب كلود ليفي–ستروس[7] إلى تفضيل الحديث عن ثقافات بدلاً من أعراق أو اثنيات. فهو يرى بأن الإنسان لا ينمو أو يتطور بنفس المعدل في كل مكان، بل يكتسب ملامح التنوع المجتمعي الحضاري. بكلمات أخرى، لا يمكن النظر للتنوع الفكري والجمالي والاجتماعي في إطار علاقة سببية–تتابعية مع أي مخطط بيولوجي لبعض خصائص الجماعات البشرية. إنه (التنوع) ظاهرة مرتبطة، قبل أي شيء، أو موازية لما يجري في الوسط المحيط. ويعتقد ليفي–ستروس بأن الإسهام الفعلي أو الحقيقي للثقافات لا يكمن في "لائحة" انجازاتها، بل في طبيعة التمايز أو التنوع ومداه (Леви-Строс, 1996, с. 30-31).

وفي سياق متصل، لا يخفى على أحد الدور الكبير الذي لعبه داروين وفرنسيس غالتون *F. Galton* في التأسيس لمسألة الفروق العرقية. لكن بقصد أم بغير قصد أخذ هذا المفهوم أبعاداً سلبية للغاية على أرض الواقع، فصار مرادفاً للشك والكره والاحتقار للآخر العرقي، ليس لأسباب ترتبط بالتفوق والنقص فقط، بل لمجرد انتمائه إلى جماعة أخرى مختلفة، أيضاً. وعليه، يكره "العرقوي" ولا يثق بكل من يختلف عنه، فينأى عنه ويقطع كل السبل التي قد يفتحها الآخر المختلف للتواصل معه، ناهيك عن أنه قد يقدم على إقصائه أو إلغائه بكافة الوسائل المتاحة، حتى لو كانت غير أخلاقية.

تكاد لا تخلو دولة أو بلد في العالم من كواشف اللاتسامح بين الأعراق والاثنيات فيها، وتكفي قراءة بسيطة في تاريخ الصراعات العرقية والاثنية للاستدلال على ذلك.

لقد كشفت العديد من الأبحاث النفسية ذات الصلة عن فروق عرقية تبعاً لمؤشرات معرفية أو سلوكية. تعد الولايات المتحدة الأمريكية من أكبر "التجمعات" الاثنية والعرقية في العالم، الأمر الذي جعل الأبحاث المرتبطة بالسمات أو الخصائص أو العلاقات بين هذه الاثنيات أو الأعراق مسألة تقليد علمي في هذه الدولة. تقصت بعض هذه الدراسات جوانب ذات علاقة بالجينات، وأخرى بحثت الفروق في طبيعة الأمراض، وثالثة تناولت حاصل الذكاء...الخ. مثلاً، بينت إحدى الدراسات التي استخدمت تقنية تحليل الأمصال (تحليل الدم) بأنه ما بين {22 و 29%} من الجينات التي يحملها السود لا تنتمي إلى الإرث الجيني للسود، وحوالي {20%} من جينات البيض الأمريكان لها نفس الخلفية الجينية للسود (Minton, Schneider, 1980). وفي بحث آخر اتضح وجود اختلاف في الطبيعة التكرارية للأمراض التي تصيب الجماعات العرقية المختلفة، حيث تبين أن البيض مقارنة بالسود أكثر إقداماً على الانتحار، وأكثر إصابة باللوكيميا (سرطان الدم)، وبأمراض القلب وسرطان الثدي، في حين يعاني السود أكثر ما يعانون مقارنة بالبيض من الإعاقات الجسدية المختلفة ومرض السكري والأنيميا ومرض السل (Willerman, 1979).

وفي ذات الإطار، تركزت الكثير من الأبحاث في مجال علم النفس الفارق على موضوع الفروق في حاصل الذكاء بين الجماعات العرقية المختلفة، وغالباً ما كانت هذه الفروق لصالح البيض. فعلى سبيل المثال، عند دراسة دور الوراثة في الذكاء التي طبقت على توائم متماثلة وغير متماثلة استنتج العديد من الباحثين أن العلاقة بين المتغيرين أكثر وضوحاً لدى البيض مقارنة بالأعراق الأخرى (Willerman, 1979; Minton, Schneider, 1980). كما أشارت نتائج دراسات أخرى إلى وجود فروق دالة بين تلاميذ وطلاب المؤسسات التعليمية المختلفة (من الابتدائية حتى الجامعة) في القدرات العقلية، علماً أن هذه الفروق كانت دائماً لصالح البيض. أيضاً، في عدد من الدراسات التي تقصت حاصل الذكاء في عينات من أطفال الأسر "المختلطة" اتضح أن الفروق في معدل الذكاء من زوجات ألمانيات وأزواج أمريكان لا تعود وظيفياً إلى العرق الذي ينتمي إليه الأب (Willerman, 1979; Minton, Schneider, 1980)، في حين يرتفع حاصل الذكاء لدى أطفال (من زواج مختلط في الولايات المتحدة الأمريكية) لأمهات بيض على مقاييس الذكاء مقارنة بنظرائهم لأمهات سود. وبالمقابل، بينت بعض الأبحاث وجود علاقة بين الفروق في حاصل الذكاء لدى البيض والسود ومكان إقامتهم. وقد أشارت النتائج إلى أن الأطفال البيض والسود الذين يعيشون في جنوب الولايات المتحدة سجلوا حاصل ذكاء أدنى بالمقارنة مع نظرائهم الذين يقطنون في الشمال، كما تبين أن المهاجرين من أبناء الجنوب باتجاه الشمال أفصحوا عن معدلات ذكاء عالية وقدرات أكبر في الاستفادة من فرص العمل وتحقيق الذات في الشمال (Minton, Schneider, 1980).

لقد حاول الوراثيون التقليل من شأن دور البيئة في الذكاء، فاعتبروا أن التأثير التراكمي للبيئة لم يحدث فروقاً ملحوظاً في حواصل ذكاء الأطفال الذين يعيشون في بيئات فقيرة وغير محفزة ونظرائهم من البيئات الغنية والمحفزة. طبعاً، هذه النتائج متناقضة ولا يمكن الاعتداد بها، خاصة وأننا لن نجد في معطيات معظم الأبحاث بهذا الصدد يدعم أو يشير إلى ارتفاع حاصل الذكاء لدى السود مقارنة بالأعراق الأخرى في الولايات المتحدة الأمريكية. لهذا، يرى العديد من الباحثين (Minton, Schneider, 1980) بأن الاختلافات الثقافية هي العامل الأهم في تفسير هذه المسألة، وعلى نحو خاص ما يرتبط منها بالفروق اللغوية، فالسود يتكلمون بلكنة

انكليزية خاصة بهم وحدهم، لذا يجب التعامل بحذر شديد من كل التعميمات المرتبطة بالمحددات الوراثية للاختلافات العرقية في حاصل الذكاء، لطالما ارتبطت وامتزجت تاريخياً بلغة التمييز العنصري، حتى لدى بعض العلماء في مجال علم النفس وغيره، للأسف.

وما سبق حول حاصل الذكاء ينسحب أيضاً على الفروق في الانجاز المدرسي والمهني، حيث تعج الدراسات والأبحاث في هذا الإطار بنتائج مماثلة تؤكد على وجود علاقة موجبة بين الفروق في التحصيل الدراسي للسود والبيض ومستويات القلق ومركز الضبط (Minton, Schneider, 1980). فظهر السود أقل استقلالية وأكثر قلقاً وأضعف دافعية للانجاز، وقد تم رد ذلك على عوامل الأسرة والمدرسة (الالتحاق بالتعليم، الضغط الاجتماعي، المناخ المدرسي...)، وسمات المعلم (أفكاره أو أحكامه المسبقة، اتجاهاته نحو قضية التعليم والتلاميذ، خصائصه الشخصية...). ويضيف مينتون وشنايدر H. Minton, F. Schneider (1980) أن تكاثف الأفكار النمطية العرقية في الولايات المتحدة الأمريكية قادت إلى حقيقة تعرض "أي أسود"، بدرجة معينة، للإحساس بالتمييز العنصري ضده، لكن هذا لم يمنع من تأكيد النتائج على أن الراشدين السود، رغم تقديرهم المنخفض للذات، أكثر رضا عن حياتهم مقارنة بنظرائهم البيض.

بكل الأحوال، وبغض النظر عن الدراسات التي تناولت الفروق بين السود والبيض في الولايات المتحدة، فإن الدراسات التي أكدت على العوامل الوراثية تكاد لا تقارن بتلك التي ركزت على أثر البيئة (Lazarus, 1974).

3-3- الاختلافـــات بيـــن الجماعـــات الثقافيـــة والكـــره

بداية لا بد من الإشارة إلى أننا نقصد بالجماعة الثقافية تلك المجموعة من الأفراد الذين يتقاسمون الوجود والعادات والتقاليد والعراف والقيم والأس الاثني والانتماء الاجتماعي أو الديني أو المناطقي أو القومي ويتميزون بأسلوب حياة خاص.

يعتقد الفيلسوف الاسباني خوسيه اورتيغا اي غاسيت (1883-1955) José Ortega y Gasset (1989) بأن الثقافة تتحدد انطلاقاً من مجموعة معايير وقواعد تنطبق على كل فرد من أفراد الجماعة (المجتمع)، علماً بأن درجة تطورهم تعكس مدى توحدهم أو انعدام التوازن في العلاقات القائمة فيما بينهم. بدورها، ترى روث بينيديكت R. Benedict بأن المفهوم الأساسي الذي يؤطر الاختلافات الثقافية بوضوح هو "العرف" الذي يكتسب في كل حدث معناً فريداً، ويتسق تماماً وباستمرار مع منظومة القيم والعادات والتقاليد (Benedict, 1959, p. 2). لا شك في أن دراسة الثقافات والتعرف إليها عن كثب يسهم إلى حد كبير في إيضاح إشكاليات "العنجهية" العرقية أو القومية "الغبية"، لطالما يمثل الشك الذي يعتري فرد من جماعة ما تجاه الآخر المختلف التوجه "الاتصالي" الوحيد المتوفرة حياله في ظروف التمييز العنصري والقومي (Benedict, 1959; Lazarus, 1974).

أيضاً، يسهم بحث التنوع الثقافي، على نحو كبير، في الكشف عن طبيعة الأفكار النمطية العرقية، وفي هذا الصدد يؤكد ليفي–ستروس على أنه: "لا نستطيع الإدعاء بأننا استجبنا على نحو مقنع ضد قضايا العنصرية ما لم نبحث كنه الاختلاف – أو التعددية – الثقافي، لطالما يرتبط الأخير عضوياً بالتمييز العنصري" (Леви-Строс, 1996, с. 30).

رغم واقعيته وضرورته وجماليته، يمثل التنوع الثقافي في بعده الوظيفي الاختلاف بين الثقافات، وبالتالي فهو محرض على التناقض والتنافر وردات الفعل التي تنم عن الرفض والنبذ والعدائية.

هنا، نحن بحاجة إلى تحديد بعض المفاهيم ومعالجتها حتى نتمكن من توضيح ماهية الاختلافات الثقافية وعواملها.

خلال العقود الأخيرة، أخذت الأبحاث والدراسات عبر الثقافية التي ركزت على متغير الاثنية منحاً تصاعدياً واضحا، وربما يعود السبب في ذلك إلى طبيعته الصراعية.

يتعلق مصطلح الجماعة الاثنية بالثقافة الفرعية المتمايزة في إطار مجتمعها، والتي يؤمن أفرادها باختلافهم عن الآخرين، وتستند هويتهم أو وحدتهم إلى مؤشرات محددة كالمعتقد الديني، ولون البشرة وسيمياء الوجه، والأس القومي وغيرها. ومنذ زمن بعيد تحدث المؤرخ الإغريقي الكبير هيرودوت Herodotus (484 ق.م – حوالي 425 ق.م) عن صفات وعادات متباينة لدى أبناء الثقافات الفرعية في "الشرق الأوسط" (أنظر في: Gergen, 1984). من جهته، قدم عالم النفس والاجتماع والأنثربولوجيا الأمريكي ملفين تومين M. Tumin تعريفاً مشابهاً للجماعة الاثنية، حيث حددها على أنها مجموعة من الأفراد يمتلكون أو يتشاركون واحدة أو أكثر من الخصائص أو الصفات التالية: 1) الدين؛ 2) العرق؛ 3) القومية؛ 4) اللغة والتقاليد الثقافية (نقلاً عن: Harding et al., 1968, p. 5).

واقعياً، تتشكل لدى أفراد الجماعات الثقافية المختلفة أنماطاً محددة من الاتجاهات أشرنا إليها في فصول وفقرات سابقة بالأحكام المسبقة التي تتضمن تقييمات سلبية حيال الآخر الاثني. وينقلب أي اتجاه اجتماعي إلى حكم مسبق عندما يخرج عن إطار معيار العقلانية وعن مفهوم العدل والمساواة الإنسانية. بكلمات أخرى، يقود الانحراف عن معيار العقلانية إلى قناعات مسبقة وتعميمات متطرفة، وأفكار نمطية، ورفض للمنطق أو حقيقة الأمور المغايرة لمثل هذا التوجه. كما يؤدي تجاهل معيار العدل والمساواة الإنسانية أو "فبركته" معرفياً على نحو يخدم مصلحة معينة إلى ترسيخ عوامل الاختلاف والتمييز العنصري.

تتأسس القناعات المسبقة على الافتقار لفهم الآخر "إنسانياً"، الأمر الذي يكسبها سياقاً انفعاليا سلبياً، وبالتالي مشاعر عدائية ولاتسامح معه. وهكذا، يعبر الحكم المسبق حيال أفراد جماعة اثنية ما عن اتجاه يفتقر إلى المحاكمة العقلية وإلى منطق العدل والتسامح، وينعكس في مفردات أو تعبيرات لفظية أو سلوكية. وفي هذه الحالة، يقوم السلوك الجماعي على قاعدة من الأحكام المسبقة التي "يتقاذفها" أفراد الجماعات الاثنية المختلفة ضد بعضهم البعض.

قد يكون للأحكام المسبقة ناحية ايجابية واحدة تنحصر في الالتفاف حول الجماعة وإظهار الدعم لأفرادها، لكن، وكما جاء على لسان ألبورت G. W. Allport (1954)، تمثل الأحكام المسبقة اتجاهاً اجتماعياً سلبياً لا يحمل بين ثناياه إلا الرفض والنفور من الآخر المختلف (أنظر أيضاً في: Jones, 1972, pp. 2-3).

وعلى نحو أكثر تفصيلاً، ينطوي الحكم المسبق[8] على تقييم (رأي) سلبي لأفراد جماعة اثنية أو دينية أو قومية أو ثقافية مختلفة (Jones, 1972, p. 61). ورد في قاموس الويبسترز Webster's New Twentieth Century Dictionary (1965) ستة تعاريف للحكم المسبق:

- حكم أو رأي تشكل دون أن يستند إلى حقائق أو معطيات واضحة؛ قناعة مسبقة؛ استحسان أو، غالباً عدم استحسان؛
- حكم أو رأي يتجاهل الحقائق أو الوقائع المناقضة له؛
- ميل نحو تقييمات وآراء سلبية؛
- شك، لاتسامح أو كره (حقد) تجاه الآخر المختلف عرقياً، دينياً، أيديولوجياً، مهنياً...الخ؛

– أذى، إهانة تصدر عن بعض الآراء أو أفعال شخص حيال آخر؛

– تجنب، انعزال، حذر من الآخر.

ترتبط الأحكام المسبقة على نحو وثيق بالأفكار النمطية، ويمكن القول بأنها شكل من أشكالها، لطالما تشكل هذه الأفكار وجهات نظر سطحية تماماً حيال بعض الفئات أو المؤسسات، وهي تنتشر على نطاق واسع في مختلف البيئات. عادة، لكن ليس دائماً، تترافق الأفكار النمطية بأحكام مسبقة، بمعنى حالات من – القبول والرفض؛ التسامح واللاتسامح؛ الحب والكره (Tajfel, 1981, p. 145). وهكذا، تصبح الأفكار النمطية ذات طابع اجتماعي عندما يتشاركها معظم أو غالبية أفراد الجماعة. ويحسب ألبورت، تتسم عملية التنميط بعدد من الخصائص:

– تشكيل مجموعات واسعة من فئات الأفكار والمعارف تتصل بعملية تكيفنا مع مفردات حياتنا اليومية؛

– تقليص الفئات الفرعية من الأفكار إلى أقصى حد ممكن وتجميعها في فئات أساسية؛

– تحديد ماهية الأشياء تبعاً للموضوعات المتصلة بها؛

– تجنيس كل محتوى يتصف بخاصية فكرية أو انفعالية؛

– قد تكون هذه الأنماط أو الأجناس أو الفئات أكثر أو أقل عقلانية (أنظر في: Tajfel, 1981, p. 145).

وتدلل العملية المعرفية بالنسبة للفكرة النمطية على "انتخاب" أو اصطفاء عند تفسير المعلومات الواردة من البيئة أو الوسط الاجتماعي. ولن نغفل عن ذكر أن الأفكار النمطية تتصل بالسمات والخصائص والقيم الفردية (Tajfel, 1981; Арънсън, 1984).

وإذاً، ينبع الأثر السلبي للأفكار النمطية التي تنعكس في السلوك اللفظي وغير اللفظي للشخص من المخططات أو العناصر المعرفية الراسخة مسبقاً في بنائه المعرفي، مما يعني زيادة احتمال تصادمه مع الآخر المختلف الذي تنطوي منظومته المعرفية على أفكار نمطية وقوالب ذهنية مختلفة. وهكذا، يمكن القول بأن سلوك الفرد من جماعة اثنية معينة حيال جماعات اثنية أخرى يتأسس على:

– ثقافة قبول الآخر عبر منظومة التفاعل الرمزي معه؛

– انتشار الأفكار أو الأحكام المسبقة الواقعية أو المشوهة حيال الآخر المختلف ورسوخها في المخططات المعرفية للأنا؛

– الموقف الاجتماعي الذي يتواجد فيه الأنا والآخر معاً.

وعليه، فإن مسألة الاعتراف أو تقييم الفرد والجماعة تتوقف على هذه الشروط (Riddleberger, Motz, 1957).

ويقود تراكم الأحكام المسبقة السلبية حيال الآخر الاثني وتمظهرها على شكل موديلات سلوكية شخصية وجماعية إلى بروز ملامح التمييز العنصري. وما أن تتجدل هذه الأحكام والموديلات السلوكية ذات الصلة مع القوة المكتسبة من السلطة (ممارسة القوة والتأثير على الآخرين سواء بالفعل أو التحريض ضد الآخر، أو باستخدام القوة الجسدية) يتحول التمييز العنصري إلى أبشع شكل للعنف على الإطلاق، إذ يقود إلى دمار مفزع. وهكذا، تعد العنصرية نتاجاً للأحكام المسبقة و/أو التعصب الاثني واستخدام السلطة (القوة) ضد الآخر الاثني المختلف الذي يعتبره الأنا أقل شأناً منه (Jones, 1972, p. 117)، علماً أن العنصرية قد تكون فردية، أو جماعية، أو مؤسساتية، أو ثقافية.

وأكثر من ذلك، تمثل الأحكام المسبقة والتعصب كاتجاه اجتماعي أعراض لاضطرابات نفسية فردية وجمعية. ومن وجهة نظر المدخل الديناميكي أو التحليل النفسي، فإن التعبير الصريح عن التعصب والأحكام المسبقة السلبية تجاه الآخر المختلف "اثنياً" تقلص من حدة الصراع الداخلي التي يعاني منها الفرد "المنمَّط" عبر استخدامه، غالباً، لآلية أو لميكانيزم "الإسقاط" (Mayo, Lafrance, 1977).

ولطالما توسعنا بالحديث عن النمطية والتعصب، قد يكون مفيداً، بالمقابل، التطرق عرضاً إلى الشخصية المتسامحة (Martin, Westie, 1959). ولعل أفضل ما يذكر حولها من صفات يندرج في سياق النتائج الميدانية التي تمخضت عن الاختبار الذي طبقه مارتين J. Martin و ويستي F. Westie في هذا الصدد:

– أقل تعصباً (للقومية، للعرق، للثقافة...)، وأكثر مرونة اجتماعياً، بمعنى ليس لديها اتجاهات ثابتة حيال أعضاء جماعتها أو أعضاء الجماعات الأخرى؛

– تقبل الرأي والرأي الآخر على قاعدة الاحتمالية والنسبية والتفكير العقلاني المنطقي، في حين تفصل الشخصية المتطرفة أو المتعصبة بينهما تماماً؛

– تبحث عن المنطق والتفسير العقلاني في محتوى الأحكام الدينية المسبقة، بينما تنزع الشخصية المتعصبة إلى الإيمان بها كواقع قائم غير قابل للجدل أو حتى المناقشة؛

– تقيم علاقاتها التبادلية على أساس تقاسم الوجود والتفاؤل بالمستقبل والثقة والإيمان بضرورة وجود الآخر، في حين تنزع الشخصية المتعصبة إلى الشك بالآخر وعدم الثقة به وتسعى إلى منافسته تمهيداً لإقصائه؛

– الشخصية المتسامحة انبساطية وتحب الجديد وتقبل عليه (نيوفيل Neophiliac أو Neophile)، في حين تخاف الشخصية المتعصبة من الجديد وتدبر عنه وتنغلق على نفسها (نيوفوب Neophobia).

– يمثل عنصر "إطلاق القيمة" أحد أهم مكونات الحكم المسبق كاتجاه اجتماعي. وفي هذا السياق يشير روكيتش M. Rokeach (Rokeach, Kleijunas, 1972) إلى أن أعضاء جماعة "الهم" – يهود، سود، مكسيكيون – لم يكونوا موضع احتقار أو نفي ونبذ نتيجة الاختلاف الديني أو في لون البشرة أو القومية، بل لأنه تم تقييمهم "كغرباء" عن المنظومة السلوكية والقيمية في الولايات المتحدة الأمريكية. بتعبير آخر، تتجسد هذه الاختلافات في أحكام مسبقة، في حين يضفي حكم القيمة عليها سبغة انفعالية "يعجبني – لا يعجبني".

يؤمن أعضاء جماعة اثنية ما، عادة، بأن الآخر الاثني يمتلك توجهات وأفكار تختلف جوهرياً عما لديه، الأمر الذي يفسر ببساطة اتساع مدى المسافة الاجتماعية بين أعضاء الجماعتين المختلفتين. بكلمات أخرى، يشكل انعدام التجانس والتناغم والاتساق في المواقف والآراء والقيم وغيرها محدداً أساسياً لدرجة التباعد الاجتماعي (Harding, et al., 1969). وفي هذا الإطار، تكمن إحدى أهم سمات الشخصية النمطية (المتطرفة، المتعصبة) في الموقف السلبي الثابت من الآخر المختلف الذي ينعكس بإحدى تجلياته في النفور والابتعاد وزيادة المسافة الاجتماعية إلى حد يمكن أن نتحدث عندها حول العزلة الاجتماعية (Lazarus, 1991).

يفضل بعض الباحثين (Adorno, et al., 1950, p. 102) الحديث عن التمحور الاثني أو الاثنوية Ethnocentrism بدلاً من الأحكام المسبقة، إذ يطغى موقف "لا يعجبني" على الحكم المسبق، في حين يسود اتجاه "لا أقبل، أنفر" بالنسبة للاثنوية.

ذكرنا في المقدمة أن سومنر أول من استخدم مصطلح الاثنوية (1906). وينطوي هذا المصطلح في واقع الأمر على فكرتين تنعكسان في نزعتين:

- النظر إلى جماعتي كجماعة مرجعية قياساً بالجماعات الأخرى؛
- الاعتقاد بتفوق جماعتي على باقي الجماعات.

من وجهة نظر علم الاجتماع، والأنثربولوجيا الثقافية، وعلم النفس الاجتماعي لا يكتسب العرق ولا الوراثة والجينات أهمية تذكر في هذا السياق، بل التنظيمات الاجتماعية، وتفاعل النماذج الاجتماعية، والسمات الشخصية للأفراد، مما يؤكد، قبل كل شيء، على أهمية إدراك الفروق داخل الجماعة قبل التركيز على الاختلافات مع خارجها. مثلاً، وجد ادورنو وزملاؤه (Adorno, et al., 1950, p. 5) علاقة ارتباط موجبة بين شدة المحافظة داخل الجماعة وحدة تمظهرات الاثنوية بغض النظر عن درجة التطور الاقتصادي لهذه الجماعة.

بكل الأحوال، قد يكون البحث عن فروق بين الأحكام المسبقة والاثنوية مضيعة للوقت، لطالما تمثل الاثنوية أحكاماً مسبقة لجماعة اثنية حيال ذاتها الجمعية وتجاه الجماعات الاثنية الأخرى.

اليوم، تبدو الأحكام المسبقة والأفكار النمطية السلبية والتعصب والتطرف أكثر بشاعة في تأثيرها بحياتنا اليوم في ظل التقدم التقني والمعلوماتي الهائل الذي جعل نشر أو تعميم مثل هذه الأفكار أو الظواهر وترسيخها أسهل بكثير.

يعد الخوف من الأجانب شكلاً معاصراً من أشكال الاثنوية يتصف، قبل كل شيء، بالنفور والشك والكره للغريب أو الأجنبي (Tajfel, 1981; Lipset, 1963). ومثل هذا الاتجاه "البارانوي" يحرك سلوكاً بربرياً وحشياً "صامتاً أحياناً" مشروطاً بسياسات بعض الدول التي تسوّق القيم الإنسانية إعلامياً وتقمع وتقتل وتحتل واقعياً. ويجسد هذا الكره وهذا السلوك شكلاً متحولاً للتمييز العنصري في أكثر صيغه همجية.

ومن بين المصطلحات ذات الصلة، يمكننا الحديث عن الأقلية الاثنية. فالأخيرة تمثل فئة فرعية من مجتمع يتميز أفرادها بخصائص جسدية وسمات ثقافية خاصة تعد أحد الأسباب الكامنة وراء النظرة الدونية التي تبديها الأغلبية حيالها. والعضوية في هذه الجماعة تنتقل من جيل لآخر "محملة" بالعادات والتقاليد والقيم والأعراف المصطلح عليها، ولعل واحد من أهم ملامح هذه تقاليد هذه الأقلية وأعرافها عقد الزواج بين أفرادها حصراً (Baron, 1984). طبعاً، هناك أقليات مندمجة ومتفاعلة في السياق الاجتماعي للأغلبية، لكن السمات الخاصة بأعضائها تبقى عنصراً مميزاً لها كأقليات. ومثل هذه الأخيرة تسعى لتحقيق أهدافها الاجتماعية–السياسية التي تتجسد في الوجود والعيش بسلام إلى جانب الأغلبية. وبالمقابل، تجد نوعاً آخر من الأقليات منغلقاً على ذاته الجماعية، وطامح إلى الانفصال أو الاستقلال السياسي والاجتماعي والثقافي عن الأغلبية، بل بعض هذه الأقليات تظهر رغبة "جامحة" في السيطرة على الأغلبية نفسها (Baron, 1984; Yancey, et al., 1976).

من المنطقي القول بأن الأغلبية غالباً ما تسعى إلى فرض سيطرتها وسطوتها، حيث يبدي أفرادها اعتداداً عالياً بالذات كتعبير عن الانتماء لها، في حين يميل أعضاء الأقليات للخنوع والمسايرة والانصياع، وتتمظهر لديهم مؤشرات عقد النقص الجماعية، وكره تجاه أنفسهم والجماعة التي ينتمون إليها. لكن، أحياناً، يحدث العكس تماماً (Lewin, 1967; Volpato, 1990).

وعلى الرغم من عدم وضوح أو ماهية واضحة أو متمايزة لسلوك بعض الأقليات نتيجة ذوبانها وتكاملها مع مجتمع الأغلبية، إلا أن الأخيرة تبقى تدركها كجماعة متجانسة مختلفة.

إن أي عضو في جماعة، بغض النظر عن موقعه أو مكانته، يمثل مصدراً للتأثير ومجالاً للتأثر. والتأثير الاجتماعي في حالة الأقلية والأغلبية يحدث باتجاهين، بمعنى هناك علاقات تأثير وتأثر متبادلة في كل وضع أو موقف. من جهة أخرى، يتسم التأثير الاجتماعي بالتزامنية، فقد تفرض الأغلبية وقادتها نفوذها بالقوة المباشرة أو غير المباشرة على أعضائها، وبنفس الوقت على أفراد الأقليات الموجودة حتى لا ينحرف أعضاء الأغلبية عن التوجهات والقيم والأعراف المصطلح عليها، وبهدف تكييف أعضاء الأقليات مع هذه التوجهات والقيم والأعراف (Moscovici, 1976).

وفي سياق آخر، ينظر بعض الباحثين (مثلاً: *Sears, et al., 1985*) إلى الأفكار النمطية والعنصرية على أنها مكونات للتنافر الجماعي الذي يتجذر الكره فيه حتى بين أبناء الجماعات التي تنتمي لأس اثني وثقافي واحد – مثلاً، بين الألماني الشرقي والغربي، الاسباني والبرتغالي.

من جهتها، تعد التقاليد والأعراف الدينية أحد أهم مصادر الأحكام المسبقة، وهي أساس من أسس نزوعية أفراد أية جماعة (Фройд, 1993). ولعل التجربة التاريخية تبين أن التفكير الديني بغض النظر عن الجوهر الذي يحمله الدين كان ولا يزال سبباً أو دافعاً مستتراً وراء الكثير من الصراعات الجماعية.

3-4- الاختلافات الدينية، الاقتصادية-الاجتماعية، الأيديولوجية والكره

هناك العديد من الأسباب التي تقع في أساس الكره البين–ثقافي كالحروب، والاستعباد، والاحتلال، والاختلاف الديني والأيديولوجي والسياسي، واحتقار الأغلبية للأقليات ومحاولة إقصائهم، والسعي لفرض القيم الثقافية المختلفة بالقوة، وسرقة الرموز الثقافية أو تدميرها.

عندما تسعى جماعة ما إلى فرض قيمها على الجماعات الأخرى بالقوة، فإن الكره عاقبة لا مناص منها. مثلاً، أدت محاولة الغرب، ولا تزال، لفرض نفسه كنموذج حضاري إلى الكثير من الدمار والقضاء على العديد من الثقافات، كما خلفت مناطق تشكل اليوم عقد مشحونة بالكره والصراع في أنحاء مختلفة من العالم.

وبهدف النهب المنظم للمصادر الطبيعية والبشرية، أو استمرار سطوتهم وسلطتهم، أو السعي المجنون للسيطرة والقوة، استخدم العديد من "عشاق الهيمنة" ظلاميتهم أو "تفاقهم" الديني، الأمر الذي يعني بأن الدين لعب وما يزال/ وقد يستمر كمحرك أو محرض أو مبرر وذريعة يستخدمها القوي في "نهمه" لإشباع حاجته للقوة والسيطرة.

لا نقصد هنا التركيز على محاكمة الدين ودوره أو إظهار توجه "لاديني" أو "كاره" للدين ودوره في الحضارة الإنسانية، بل نريد الإشارة إلى الدور السلبي للتنافر والتناحر الديني في العلاقات الإنسانية، والأفكار الجامدة والأحكام المسبقة السلبية حيال الآخر الديني المختلف التي تقبع في أساس كرهه.

وهكذا، ما يهمنا هو بعض الحقائق والموضوعات ذات الصلة باللاتسامح الديني الذي يولد نوعين من الكره: *1*) بين–جماعي – يكمن في اللاشعور الجمعي لأفراد جماعة دينية أو أخرى، وعليه تتبنى الأحكام الدينية المسبقة حيال أولئك الذين لا يؤمنون بنفس المعتقد، أو لا ينتمون إلى ذات الجماعة الدينية. ويتمظهر هذا النوع بوضوح في الصراعات التي حدثت ولا تزال تحدث بين أنصار الديانات الرئيسية أو بين أنصار الديانة الواحدة المختلفين في مذاهبها (Benedict, 1959)، مثلاً، الألبان والصرب، الروس والشيشان/ أو، الكاثوليك والبروتستانت في ايرلندا، السنة والشيعة في العراق...الخ. 2) داخل الجماعة الواحدة – ويمكن تحديده بمؤشرات من قبيل: أ) الاختلاف في طريقة التدين أو تمثل التقاليد والأعراف الدينية؛ ب) الاختلاف في درجة التدين. هنا نحن نتحدث عن جماعات متجانسة (أو غير متجانسة مكونة من أفراد اثنيات أو أعراق وقوميات مختلفة لكن يربطها دين واحد).

ويعد التعصب الديني نمطاً (مرضياً) متطرفاً من التعلق بمعتقد أو ديانة ما وكره لمعتقد أو ديانة أخرى، حيث يتم إقصاء كل الحلول الممكنة عن ساحة التواصل مع الآخر الديني، أي أن تقاسم الوجود معه مسألة غير ممكنة. ولعلنا اليوم نشهد بوضوح انتشار أبشع صور التعصب الديني الذي يكمن في أساس القتل والتدمير بين أبناء الثقافة الواحدة في العراق (السنة والشيعة)، وكيف يحول الكره الإنسان المتطرف دينياً إلى قاتل "متوحش" لموضوع كرهه. بالتأكيد، تلعب العوامل السياسية (الأيديولوجية) دوراً أساسياً في تسييس الدين، لكن الإنسان العادي البسيط لا يتحرك باتجاه إقصاء الآخر إلا لما يحمله من أفكار نمطية وأحكام مسبقة سلبية تم شحنها وتأجيجها في لحظة وموقف سمح بالتعبير عنها كفعل عنفي.

ولو "ظاهرياً"، تنادي الديانات المختلفة بالمحبة والإخاء والمساواة، من جهة، لكن تمثل أنصار كل ديانة لمتعلقاتها ينقلب إلى صراع على السلطة واحتقار لمعتقد الآخر ورموزه، وإلى سعي لإقصائه أو القضاء عليه، من جهة أخرى.

وإذا أمعنا النظر في التقسيم الجغرافي بأي مكان، سنجد أنه يقوم، دون تعميم، وفق معايير الانتماء الديني. بمعنى أنه تقسيم ديني قبل أن يكون جغرافياً ، لكن المعنى الأعمق له متجذر في الشعور بالانتماء الذي يخبره أفراد منطقة أو حيز ما يطمحون إلى التمايز والتميز عن جماعة أخرى تعيش في مكان آخر قريب أو بعيد. وهذا الانتماء والتجمع هو، قبل كل شيء، ثقافي. عندما تنتشر ثقافات فرعية في مكان ما، فإن الأخير يتحول إلى خصوصية نسبية أو حدود ديناميكية وثقافية–جغرافية. وبالتالي، يؤدي استمرار البحث عن التمايز والتميز إلى استمرار تقسيم المكان لمناطق وقرى وأحياء وشوارع، بل ويتجلى حتى في العلاقات الشخصية كمسائل الارتباط والزواج والصداقة وغيرها. ويبدو أنه كلما كانت المسافة أقرب بين "المتمايزين" كلما اتضحت مؤشرات الكره. وبهذا المعنى، تتعمق مشاعر الكره كلما كان "الكاره" و"المكروه" على مسافة قريبة من بعضهما البعض (اجتماعياً أو تاريخياً أو جغرافياً) لأن الهدف الأخير يكمن في الانتقام من الآخر، الأمر الذي يزيد من احتمال تحققه عندما يكون في "متناول اليد".

من جهة أخرى، تتبع الاختلافات الاقتصادية–الاجتماعية، ببساطة، من الفروق بين الناس بأي مجتمع في الوضع الاقتصادي–الاجتماعي الذي ينعكس كواحد من أكثر المعايير تأثيراً في التفاوت الطبقي، وكعقبة يصعب تجاوزها كونها تضيق الأفق وتقلص حجم المسالك والمسارات باتجاه التفاعل مع القيم الحضارية والتطورات الاجتماعية. بالطبع، يرتبط الوضع الاقتصادي–الاجتماعي بحجم الدخل، أما المكانة الاجتماعية، فهي تتجلى في "البرستيج" المهني الذي يتأثر، بدوره، بالترتيب الهرمي المهني (الإداري) في مجتمع ما. قد لا نجد تطابقاً بين الاثنين، لكن في الغالب يضمن الدخل العالي مكانة اجتماعية أعلى.

ولعل السبب الأساسي الذي يؤجج مشاعر الكره على قاعدة الوضع الاقتصادي–الاجتماعي يكمن في الإحساس بعدم المساواة (Тилкиджиев, 1998).

يعني التفاوت الطبقي عملية فرز لأفراد المجتمع إلى جماعات أو جماعات فرعية حسب الوضع الاقتصادي–الاجتماعي والمكانة الاجتماعية. وعلى هذا النحو تظهر العديد من التشكيلات الاجتماعية في إطار ما يعرف بالجماعات أو الفئات الطبقية، أو ببساطة الطبقات. وانتماء الأفراد إلى واحدة من هذه الطبقات يحدد إلى درجة كبيرة موقفهم واتجاهاتهم نحو نظرائهم من الطبقات الأخرى (Sherif, 1966)، بل قد يؤسس لتمظهر الكره والصراع فيما بينهم.

بدورها، تتصل المكانة الاجتماعية بالبنية الهرمية أو التراتبية الاجتماعية. إنها تحدد موقع الفرد في منظومة العلاقات الاجتماعية (الرسمية وغير الرسمية). عندما تكون الاختلافات التراتبية (بين–فردية أو بين–جماعية) متطرفة جداً، فإن مظاهر المقارنة الاجتماعية تتقلص. مثلاً، يسلم الأفراد أو الجماعات الذين يحتلون مواقع دنيا على سلم الهرم الاجتماعي بالواقع القائم، وغالباً ما يسلكون وفقاً لمعطيات الانصياع والمسايرة الاجتماعية، وأحياناً تشير بعض سلوكاتهم إلى "تحقير" لذواتهم الفردية والجماعية. ويدعى الضغط المطبق من أعلى الهرم الاجتماعي إلى أدناه بالسلطة، وقد تتحول الأخيرة، في هذا السياق، إلى خبرة من نوع عنفي أو تدميري. إنها تتجسد في مجموعة أوامر تنجم عن وظائف ذات صلة بدور المكانة الاجتماعية في العلاقات البين–شخصية. فالناس عموماً يبدون مخاوف حيال السلطة، لذا تجد الغالبية منهم يسلكون مسلك المسايرة والتقرب من مصادرها ليستمدوا موقفاً ما أو ليشعروا بمكانة "أعلى" في الحيز الذي يشغلونه. من جهة أخرى، يستتر في اللاشعور الجمعي لدى الأفراد كره لأصحاب السلطة مغلف بخوف من الإفصاح عنه مباشرة، فيتحول إلى صيغ تشكل منفساً للتعبير عنه، كما في الأمثال الشعبية، مثلاً، "اليد التي لا تقدر عليها، قبلها ثم ادع عليها بالكسر".

والفرد كعضو في جماعة ما يمتلك، أيضاً، ما يسمى بالمكانة الشخصية (Шибутани, 1969)، تحدد موقعه على هرم العلاقات داخل جماعته. وعليه، يصبح الفرد من جديد موضوعاً للحب (التقدير والاحترام) أو الكره.

وفي سياق متصل، لا بد من الإشارة إلى حالة أكثر تعقيداً حول إشباع الفرد لحاجته إلى المكانة، ونقصد هنا حالة الشخص "الطرفي". إنه إنسان ينتمي لمجتمعين مختلفين أو لجماعتين متنافرتين ثقافياً (Парк, 1991, с. 52). وهو على علاقة قوية بالعالم الذي يحيط به، لكنه ليس منمطاً في إطاره تماماً. والإنسان الطرفي شخصية محكومة بطابعها ودوافعها وأهدافها وطموحاتها التي تستمد قيمتها من ذاته. إنه فرد ينمو في زمانين ومكانين مختلفين ويعيش مستقلاً عن الصراعات القافية والاثنية وغيرها، ويبدو كمن ينتمي إلى "العالم" (مواطن العالم) ويتميز نسبياً بحساسية حضارية مرهفة ودرجة ذكاء عالية، فهو ثمرة لقبول الآخر والتكيف معه على نحو خلاق، علماً أنه قد يعاني من صراعات داخلية تعود إلى تذبذب إحساسه بالانتماء، وكما هو معروف، فإن الحاجة إلى الانتماء متجذرة في الإنسان كونها تمنحه قدراً كبيراً من الشعور بالأمن والطمأنينة.

وبالعودة إلى الأعراف الدينية والأيديولوجيات، يمكن القول بأن الأحكام المسبقة والصور النمطية القابعة في أساسها سهلة "الشحن" والتفعيل، حيث تنقلب الجماعات المختلفة بفعلها (في لحظات أو مواقف معينة) إلى "غوغاء".

إن التمحور والانغلاق على فكرة أو معتقد والتعصب له يعني ببساطة نفوراً من الآخر وسعياً لإقصائه.

نظرياً، الأيديولوجية دليل على السلطة، وبالمفهوم النفسي، حسب بلامينياتس J. Plamenaz (نقلاً عن: Tajfel, 1981) تمثل منظومات من الأفكار والقناعات أو على نحو أدق اتجاهات اجتماعية تميز جماعة (أو مجتمع) عن غيرها، وهي ترتبط عضوياً بالسلوك الاجتماعي.

وعندما نتحدث عن التحزب الأيديولوجي ، فإن الصورة الأوضح التي تتبادر فوراً للذهن هي تلك المعادلة غير القابلة للفك: "النحن" و"الهم" والمواجهة بين الطرفين. يبدو أنها (الأيديولوجية) من أكثر العوامل وضوحاً في الكره العميق والرغبة بالانتقام. فقد كانت العقائد والأيديولوجيات، ولا تزال رغم الحديث اليوم عن العوامل الثقافية، أكثر الأسباب تأثيراً في معاناة الشعوب حيثما وجدت.

تشمل الأيديولوجيات جماعات كبيرة من الناس (أحزاب) يتقاسمون أوضاعاً اجتماعية–اقتصادية متشابهة ويشكلون طبقات بعينها. لذا، تشكل جوانب الصراع وامتلاك أدوات الإنتاج قضية هامة جداً لأسباب، من قبيل: الهوية الطبقية، الانتماء الحزبي، والأيديولوجية السياسية (Kelley, 1992).

بكل الأحوال، عندما يدرك الفرد أن الانتماء الذي يدين به إلى جماعة ما يحول بينه وبين تحقيقه لأهدافه، فقد يصاب بالإحباط ويعتريه الكره لجماعته ولجماعة الآخر حسداً في حال كانت تضمن أو تساعد أفرادها على تحقيق ذواتهم.

مراجـــع النـــص

[1] مدرس في قسم علم النفس، كلية التربية، جامعة دمشق. حصل على درجة الدكتوراه في علم النفس من جامعة صوفيا، بلغاريا عام 2005. له العديد من الأبحاث والدراسات المنشورة باللغة البلغارية في أعداد مختلفة من الكتاب السنوي لجامعة صوفيا (كتاب علم النفس السنوي)، إلى جانب العديد من المجلات المختصة المحكمة؛ حائز على جائزة جامعة صوفيا، كلية الفلسفة للانجازات البارزة في علم النفس؛ شارك بإعداد تقارير أبحاث وطنية حول الطفل والأسرة والمرأة في سوريا.

[2] الفصل الثالث من كتاب **الكره أو اللاتسامح مع الآخر**: منظور نفسي-اجتماعي. تأليف د. صالح بريك، خطوات للنشر والتوزيع: دمشق، 2010 (ص 75-103).

[3] تلقى القاضي الألماني دانيل باول شريبر (1842-1911) علاجاً عصبياً-نفسياً في ثلاث عيادات نفسية في الفترة الواقعة بين 1893 و 1902. وبعد أن انتهى العلاج كتب مذكراته التي بنا عليها فرويد مطولاً في كتاباته حول البارانويا.

[4] التكثف Cathexe أحد المفاهيم التي تضمنتها النظرية الفرويدية. وهو نوع من التعلم، أشار به تولمان إلى توجه المرء نحو موضوعات معينة دون سواها لإشباع دافع ما. وتتشكل التكثفات عند الإنسان عن طريق التنشئة الاجتماعية.

[5] ميلاني كلاين Melanie Klein (1882-1960): باحثة نمساوية الأصل، تركزت دراساتها على التكوين النفسي للأطفال. لم تدرس علم النفس أو الطب النفسي، لكن قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى قرأت مقالاً لفرويد وشغفت على أثره بالتحليل النفسي، وبدأت تتعلم على يدي ساندوز فيرينزي. كتبت بحثها الأول عام 1921 بعنوان نمو الطفل The Development of a Child. ثم دعاها كارل أبراهام إلى برلين، فاستقرت بها لفترة من الزمن، وكرست نفسها لممارسة التحليل النفسي متأثرة بأبراهام وكتاباته.

[6] ألبير جاكار A. Jaquard أستاذ سابق في جامعة باريس وجنيف، ترأس قسم الجينات في المعهد العلمي للأبحاث الديموغرافية في باريس. من أهم أعماله، أسطورة الحياة (1992).

[7] كلود ليفي-ستروس (شتراوس) Claude Lèvi-Strauss عالم أنثربولوجي فرنسي وأستاذ جامعي. له العديد من المؤلفات التي كان لها تأثير بالغ في تطور العلوم الاجتماعية المعاصرة، مثلاً: علم الأساطير (أربعة مجلدات: 1964؛ 1967؛ 1968؛ 1971)؛ انظر، اسمع، اقرأ (1993)؛ الأنثربولوجيا البنيوية (1958؛ 1973).

[8] الحكم المسبق ترجمة للكلمة Prejudgment المنقولة عن الكلمة اللاتينية Praejudicium، حيث تعني prae "مسبق"، وتشير judicium إلى "أحكم أو أقرر".

تهنئـــــة البروفســـــور أحمـــــد عكاشـــــة

بلغنا بمزيد الفخر والاعتزاز تكريم الرئيس المصري حسني مبارك

الأستاذ الدكتور أحمد عكاشة

بـ "جائزة الدولة التقديرية للعلوم الطبية"

وهي تعد أكبر جائزة علمية في مصر، وتسند للمرة الأولى في تاريخها لشخصية طبية مصرية مختصة في الطب النفسي .

يشرفني بمناسبة هذا التكريم أن أتقدم باسمي وباسم كافة أعضاء الهيئة العلمية الاستشارية لشبكة العلوم النفسية العربية، إلى الأستاذ الفاضل والصديق العزيز أحمد عكاشة بخالص تهانينا القلبية و الذي إستحقه بعد مسيرة علمية زاخرة بالعطاء والبحث العلمي على المستوى المصري، العربي والعالمي .

إنا بكم وبأمثالكم نرتقي ومعكم نسير الدرب رفعة بالعلوم النفسية في أوطاننا .

دمتم منارة للعلم والمعرفة ورحمة للانسان

الدكتور جمال التركي

رئيس شبكة العلوم النفسية العربية

سيكولوجيـــــــــة المتطـــــــــرف الانتحـــــــــاري

(انتحاريـــــي الـــــدار البيضـــــاء نموذجـــــا)

د. عبـــــد الودود خربـــــوش- باحـــث فـــي علـــم النفـــس – الربـــاط، المغـــــرب

abdelouadoud@gmail.com

تمهيد :

شهد المغرب خلال السنوات القليلة الماضية تزايد حدة أعمال العنف المرتبطة بالتطرف الديني، لعل أبرزها تفجيرات 16 مايو 2003 بالدار البيضاء كبرى المدن المغربية. التي ذهب ضحيتها أزيد من خمسة وأربعين شخصا فيما فاق عدد الجرحى المئة جريح، وهي العمليات التفجيرية التي استهدفت أماكن تواجد الأجانب بمركز المدينة، نفذها أربعة عشرة انتحاريا لقي أثني عشرة منهم حتفهم بعد تفجيرهم لأنفسهم، بينما نجا اثنان بعد تراجعهما عن فكرة التفجير نتيجة أسباب تستدعي حقيقة البحث المعمق، ومن بينها ما صرح به أحدهما من أن معاينته لما حل برفاقه الذين صاروا أشلاء متناثرة هي ما أثناه عن تفجير نفسه. هذه التفجيرات التي آذنت بتحول كبير في مسار الحركات المتطرفة تمثل أساسا في أسلوبها ووسائل تنفيذها وحجم ضحاياها، أسالت مدادا كثيرا وأثارت نقاشا طويلا لا يزال يلقي بظلاله على المشهد السياسي والديني والاجتماعي حتى اليوم، خاصة بعد فرار تسعة من المحكومين على خلفيتها من السجن خلال الفترة الأخيرة وحلول ذكراها الخامسة.

غير أن ذلك لم يمنعنا من معاودة النبش في ملفاتها من خلال اعتماد مقاربة سيكولوجية صرفة لتفسير بعض حيثيات الظاهرة انطلاقا من تقديم تفسير المدارس النفسية المختلفة للظاهرة، والبحث في الخصائص العامة لشخصية المتطرف الانتحاري، مع الإشارة إلى أننا سوف نركز على المتطرف المنفذ (الانتحاري) فقط، فيما نستثني باقي فئات المتطرفين (المنظر والمخطط و الممول...). وإن كنا نعتقد جازمين أن مثل هكذا تحليلات تستدعي الدراسة والبحث المباشرين مع عينة من جميع فئات المتطرفين، اعتمادا على تقنيات ومناهج البحث العملي الرصين، غير أن عدم توفر ذلك في المدى المنظور والحصار الذي تفرضه السلطات الأمنية على ملفات القضية، يجعلنا نكتفي بالبحث في ما رشح من معلومات ومعطيات عن ملفات منفذي تلك الأحداث.

وإذا كان السؤال الجوهري الذي يتبادر إلى الذهن هو عن ماهية الدوافع الرئيسية لأولئك الانتحاريين ؟ فإن الجواب البديهي الذي ننطلق منه هو أن هذه الظاهرة المتعددة الأوجه والأشكال يقف ورائها أكثر من دافع واحد. ولضرورة موضوعية قررنا ألا نتطرق في تناولنا هذا لتلك الدوافع العالمية (المتغيرات الدولية، الهجمة الشرسة على الإسلام والمسلمين: تاريخ حافل بالأمجاد وحاضر يعج بالانكسارات والهزائم، فشل التجارب القومية والوطنية، اليمينية و اليسارية...)، و لن نتطرق أيضا للعوامل السياسية (القمع و الاستبداد السياسي، غياب الحريات وحقوق الإنسان...)، و لا عن الدوافع الاقتصادية (الأزمة، الفقر، البطالة...)، و لا عن الاجتماعية أيضا (التفكك الأسري، ظهور أحزمة الفقر ومدن الصفيح..). فذلك ما سبق وأن تناولته العديد من الدراسات والكتابات بإسهاب كبير.

بل ما سنتناوله هو المحددات والخصائص الشخصية للانتحاريين من خلال التطرق أولا إلى العديد من الخصائص المشتركة بين منفذي تفجيرات 16 مايو بمدينة الدار البيضاء، - التي من المؤكد أنهم يتشاركون فيها مع منفذي هجمات انتحارية في العديد من البلدان العربية والإسلامية الأخرى حسب العديد من الدراسات والتحليلات- بحدونا هدف واحد هو التوصل إلى صورة مركبة لشخصية الانتحاريين بالاستناد إلى تحديد وتحليل الخصائص المشتركة.

قبل ذلك سنتوقف عند تفسير مختلف المقاربات السيكولوجية لظاهرة التطرف:

1. التفسيـــر السيكولوجـــي لظاهـــرة المتطرفيـــن الانتحارييـــن

بالرغم من أن مقالنا هذا يهم الحديث عن الخصائص العامة للمتطرفين الانتحاريين، وسنقوم فيه بالاستدلال بنماذج من حالات منفذي تفجيرات الدار البيضاء. إلا إننا نرى أنه لا بأس من التعريج على التفسير السيكولوجي لظاهرة التطرف أو التعصب، حيث نعتقد أن التطرف ليس نتاج شخصية محددة. بل يتم اعتناقه و الإنجذاب إليه من طرف العديد من الأفراد لأسباب وخصائص عديدة ، ليتحول إلى انحراف سلوكي تدميري تجاه الآخر بفعل عامل التلقين و " الأدلجة " عبر إعادة تشكيل نفسي يتم بعزل الفرد عن ذاته و عن مجتمعه، ثم تتم عملية إعادة بناؤه من جديد بفكر وسلوك آخر، وعادة ما تؤطر تلك العملية الثنائيات الفكرية المعروفة : "الحق والباطل"، "الحرام والحلال"، "المعروف والمنكر"، "المؤمن والكافر"...

وقد قدمت السيكولوجيا ولا تزال، تفسيراتها المختلفة باختلاف براديغمات مقارباتها للظواهر الإنسانية بصفة عامة وظاهرة التطرف على وجه الخصوص. فإذا كان الكثيرين يعتقدون أن المتطرفين أو الانتحاريين على الخصوص أشخاص يعانون من خلل عقلي أو من اضطرابات في الشخصية أو ذوي شخصيات غير سوية على المستوى النفسي. فإن السيكولوجيا ترى عكس ذلك من خلال اعتبارهم أشخاص مستقرين نفسيا وذهنيا أي أنهم أناس أسوياء، و ذلك ما أكده أستاذ علم النفس السياسي (Post) في مقال له تحت عنوان " الهوية الجماعية، الكراهية المتأصلة " بتأكيده على أن الجماعات الإرهابية تعمل بصورة منهجية على استبعاد أشخاص مضطربين عقليا أو عاطفيا، لأن هذه الفئة تشكل خطرا أمنيا عليها.

وفيما يلي نقدم جزء من التفسير السيكولوجي لظاهرة الانتحاري المتطرف لدى أهم المدارس المعاصرة وهي السلوكية والتحليلية ثم المعرفية.

1.1- تفسيـــــــر المقاربـــــــة السلوكيـــــــة

إذا انطلقنا من مسلمة أن التطرف سلوك إنساني، وأن كل سلوك إنساني هو سلوك مكتسب من المحيط الذي يعيش فيه هذا الإنسان. فإن المدرسة السلوكية تؤكد ذلك بل و تعتبر أن تثبيت العنف يتم عبر تعزيز البيئة للسلوك العدواني. حيث أن الطفل الذي يستعمل العنف ضد أطفالا ويحصل ما يريد يعتبر أن هذا السلوك هو الذي مكنه من أهدافه واشبع رغباته، لدى فمن الطبيعي نجد هذا الطفل يتخذ من الاعتداء وسيلة لتحقيق مآربه وخاصة إذا وفر له ذلك الاحترام والانتماء.

وتؤكد السلوكية أيضا على أهمية عامل التقليد في تعلم السلوك العدواني ويبدو ذلك جليا في حالات الجماعات المتطرفة، فأنماط التربية لا تخلو من العنف والمدرسة والإعلام والمجتمع بصفة عامة، على المستوى الدولي العنف يغزو مختلف القارات، الجماعات المتطرفة تتكاثر وعنفها يزداد بشكل مطرد هنا وهناك، بالعالمين الإسلامي والعربي.

بيد أن التفسير السلوكي للظواهر عامة وللعنف بشكل خاص، كان موضع نقد وتجاوز على اعتبار أنه سطحي وخارجي ولا يمس الجوهر،خاصة في حالة الجماعات المتطرفة التي تعتمد السرية التامة وأساليب "التقية"، مما سيفسح المجال لمقاربات أخرى طال تفسيرها عمق النفس الإنسانية عوض الوقوف عند السلوك الخارجي.

2.1- تفسيـــــــر المقاربـــــــة التحليليـــــــة

تعتبر مقاربة التحليل النفسي، خاصة مع رائدها " سيجموند فرويد " أن العنف والإرهاب هو سلوك عدواني مصدره الغرائز التي يولد الإنسان وهو يحملها في تركيبته النفسية، وأنه توجد غريزتان مسؤولتان عن ذلك وهما غريزتي الموت والحياة، وقد لجأ فرويد لآلهة الإغريق لتسمية هاتين الغريزتين تباعا: "الإيروس" و "الثاناتوس" اللتان تتحكمان عبر صراعهما الدائم في تشكيل السلوك. فغريزة الحياة أو " إيروس" هي التي تهدف إلى حفظ الذات و تحقيق البقاء و حب الحياة، بينما غريزة الموت أو " ثاناتوس " هي التي تدفع إلى العدوان ومعارضة الحياة، بحيث تؤدي إلى الانتحار أو العدوان والحرب مما يدفع إلى العنف و القتل وإيذاء الآخرين.

و تؤكد المقاربة التحليلية على أن هناك صراع دائم بين دوافع الحياة والموت أي بين الغريزتين، وأن علاج أعمال العنف يكون عن طريق منهجها التحليلي الذي يسعى إلى مساعدة الفرد على اكتشاف كيفية التحكم و ضبط الدوافع اللاشعورية للعدوان والتغلب عليها. كما تعتبر بأن الفرد الذي أحتقر في صغره وتعرض للقمع و الكبت (تحقير الذات)، يتشكل لديه أسلوب انتقامي في التعامل مع الآخر يدفعه إلى (ردّ اعتباره لذاته) من خلال النيل ممن قام بإذلاله والاعتداء عليه عن طريق ما يعرف ب(التنفيس)، أي تفريغ ما يكتنف الذات من كبت (كراهية وعدوان) عن طريق عمليتي النقل والإبدال دفاعا عن الذات (زيعور، 1986). وما يميز المتطرفين هو غياب الوسطية لديهم – وهنا تكمن أهمية الوعظ والإرشاد الديني – فهم لا يجدون إلا حلاً واحدا لتحقيق الانتصار للذات و هو التطرف.

و هناك من التحليليين من يربط بين التطرف والعصاب، فالمتطرف له شخصية عصابية نتيجة شعوره بعدم الأمان والتوتر الناجمين عن عوامل شتى كالإحباط والحرمان، وهو ما يؤدي بهم توجيه عدوانهم في اتجاه من يرون فيه المسؤول عن ذلك.

3.1- تفسيـــــــر المقاربـــــــة المعرفيـــــــة

تعتبر المقاربة المعرفية أحدث المدارس السيكولوجية، حيث قامت على تجاوز مواطن الضعف في المقاربات السلوكية والبنائية والتحليلية على السواء، فأصبحت المعرفة هي الظاهرة السيكولوجية بامتياز ، لأنها خاصة بالذهن إما (كنشاط) إنتاج المعرفة واستعمالها، وإما كحالة (بنية المعرفة)، و أصبح موضوع علم النفس هو الذكاء و المعرفة بدل السلوك أو الوجدان. ويقصد بالمعرفة جميع ما يتعلق بالعمليات الذهنية كالتذكر، الانتباه، التفكير، الإدراك، التخيل، معالجة المعلومات...

وهي العمليات التي أضحت تحدد تفكير الإنسان وبالتالي سلوكه: كيف يفكر؟ كيف يسلك سلوكاً ما ؟ هل هو سلوك عدواني أم سلمي ؟ متسامح أم متشدد ؟ متعصب ومتطرف أم مرن؟.

وتعتبر المقاربة المعرفية التطرف والأفكار النمطية نتيجة لعملية المعالجة العادية لعمليات الإدراك الاجتماعي، أو عملية من عمليات التصنيف (احمد زايد، 2006). بمعنى أن التطرف ليس سلوكا وليس نزعة لاشعورية خفية، بل هو موضوع معرفي و شأن ذهني غالبا ما يشمل أحكاما معينة، وتعبيرا عن مشاعر تميل في أحيان كثيرة إلى أن تكون عابرة أو مؤقتة يمكن مراجعتها والتخلي عنها(bloom ,1989).

وتتعدد في تفسير ذلك العديد من النظريات والمقاربات ذات التوجه المعرفي غير أننا سنكتفي مع (احمد زايد، 2006) بتناول "نظريـــة نســـق المعتقـــــد" التي يقدمها (Rokeach، 2006) كبديل لتفسير ميل الشخصية للتعصب، خاصة حين افترض أن التطابق في معتقدات الأفراد يحدد– في جزء كبير– اتجاهاتهم نحو جماعة أخرى كما أن إدراك الفروق في أنساق المعتقد له دلالة كبيرة في تأسيس التعصب، الذي يعتبر أنه لا يتم بسبب الاختلافات الفيزيولوجية بل باختلافات القيم والمعتقدات.

ويعتبر(Rokeach ، المرجع السابق) أن نسق المعتقد يشمل كل المعتقدات والحالات والتوقعات والفروض الشعورية واللاشعورية التي يقبلها الفرد ويعدها حقيقة العالم الذي يعيش فيه، وأنه يتكون من ثلاثة محاور رئيسية متفاعلة هي المعرفة والتعصب والسلطة. كما يرى أن درجة التسامح مع الآخرين تمثل جانبا واحدا منه، وان أسلوب قبول أو رفض فكرة معينة يرتبط بالمكونات الأخرى، ومن ثمة يمكن استنتاج توجهات الأشخاص انطلاقا من طرق تعاملهم مع أشخاص الفكر المغاير لفكرهم. فالشخص ذو التفكر الجامد(منغلق الذهن)، لا يستطيع تقبل وتفهم الأفكار المخالفة له، بينما الشخص المنفتح يمكنه أن تقبل ويتفهم ذلك دون صعوبات بالرغم من تناقض أو تعارض الأفكار.

وإذا شئنا تلخيص هذا التوجه المعرفي أمكننا القول أن السبب الرئيسي للتعصب هو اختلاف وجهات النظر، حيث ينتج عنه ميل الإفراد إلى كره الأفراد الذين يختلفون عنهم وهو ما يشكل نواة التعصب.

2- الخصائـــــص العامـــــة لفئـــة المتطرفيـــن الانتحارييـــن

من البديهي أن المتطرف لا يولد متطرفا بالفطرة، بل يصير كذلك عبر التنشئة الاجتماعية وعن طريق التعلم ، كما أن التطرف ليس نتاج شخصية محددة ولا هو سمة شخصية أو نفسية أيضا، و لا يمكن لأي أحد الجزم بأن هاته الشخصية أو تلك ستصير متطرفة أو إرهابية، بيد أن هناك مجموعة من الخصائص التي من الممكن أن تجتمع لدى هؤلاء.

وهو ما سنحاول الكشف عنه من خلال هذا المحور الذي نتساءل فيه عن ماهية الخصائص والمحددات التي اجتمعت في انتحاريي الدار البيضاء ؟ لكنهم تفرقوا على إثرها !!!.

1.2.الخاصيـــــــة الأولى: فئـــــة الشبـــــــاب

أثبتت الوقائع والدراسات (حامد طاهر،2005) أن الجماعات الدينية تختار أفرادها و المنتسبين إليها بعناية شديدة، خاصة إذا كان الهدف إعداد " مشاريع قنابل موقوتة "، وعادة ما تتم دراسة محيط وظروف الوافد الجديد مع الاعتماد على جملة من المعايير التي ينبغي توفرها قبل الموافقة على انضمامه للجماعة.

ومن الملاحظ في هذا الإطار تركيز هاته الجماعات على فئة الشباب بسبب جلي يتمثل في سهولة التأثير عليهم وبرمجتهم إيديولوجيا وعقائديا ثم توجيههم نحو الغايات المرسومة بسهولة. ويبدو ذلك واضحا بشكل جلي لدى انتحاريي عمليات الدار البيضاء، فكلهم شبابا في مقتبل العمر تتراوح أعمارهم ما بين 19 و 32 سنة، ينحدرون من أوساط فقيرة تسكن دور الصفيح والأحياء المهمشة المحرومة من أبسط شروط الحياة الإنسانية الكريمة.

ويعتبر(colin،2002) أنه ليس من الصدفة أن يكون معظم الانتحاريين من الرجال الشباب، مستدلا بنماذج مختلفة للسلوك الإنساني وبعض الدراسات المؤيدة لطرحه والتي تميل لتفسير الدافع النفسي بالعودة إلى علم الأحياء أو الفيزيولوجيا التي تفرق بين الإناث والذكور، كما تفرق بين الكبار والشباب الذين لم يكتمل بعد نموهم الذهني وبالتالي من السهل أن يقعوا تحت التأثير الديني والأفكار المتطرفة أو تحت تأثير "غسيل الدماغ" – كما يحلوا للبعض نعته– في حين أن كبار السن والشيوخ يكونوا راسخي العقيدة ومستقري الفكر والعادات وبالتالي يصير من الصعب تغييرهم أو التأثير فيهم.

بيد أن حالة " رابح شلح " منفذ الهجوم الانتحاري الدموي الذي استهدف مبنى الأمم المتحدة بالجزائر العاصمة – وهو شيخ يبلغ الأربعة والستين ربيعا– تطرح استفهاما عريضا حول هاته السمة ؟؟؟ و يأتي الجواب سريعا على لسان أحد أبناءه في برنامج تلفزيوني سابق: إنه الجهل وانعدام الوعي، وهو ما نعتبره الخاصية الثانية لانتحاري الدار البيضاء.

2.2. الخاصيـــة الثانيـــة: تدنـــي المستـــوى الدراســـي والمعرفـــي

أغلب منفذي تفجيرات الدار البيضاء تركوا مقاعد الدراسة مبكرا في السنوات الأولى من تعليمهم، ولم يتعد تكوينهم المراحل الأولى من التعليم الابتدائي أو الإعدادي، ومن بينهم من ولج شعب التكوين المهني لفشله في الاستمرار في أسلاك التعليم. لذلك كان من البديهي الإشارة إلى أهمية العامل المعرفي الذي أدى بهؤلاء ويؤدي بأمثالهم إلى أن يصبحوا ضحايا الجماعات المتطرفة، حيث يكتفون بآراء وفتاوى مشايخها التي تصبح عقيدتهم المطلقة.!

إن تدني المستويات المعرفية للانتحاريين ولأفراد خلايا الجماعات المتطرفة عامة، ينتج حالة من الجمود على مستوى أنساقهم المعرفية، التي تنتج بدورها حالة من الرفض لأي تبادل أو حوار مع الأنساق المعرفية المغايرة / الآخر.

هذا التدني هو في الواقع هدف ونتيجة في نفس الوقت لتلك الجماعات:

هدف لأن هذه الجماعات لا تستقطب أفرادها عبثا، بل وفق معايير محكمة تهدف أول ما تهدف إلى استقطاب المؤهلين لمشاريع انتحاريين أو " قنابل بشرية "، لذلك يكون التركيز على الجهلة والأميين ومحدودي الثقافة والوعي.

نتيجة لكون مدرسة الجماعة تعتمد تكوين إيديولوجي صارم، عماده طاعة " الأمير" ومنهجه التلقين والتنفيذ ولا مجال فيه لشيء اسمه النقاش أو الجدال.

وفي هذا الإطار لابد من الإشارة إلى المؤسسات التعليمية لدى هاته الجماعات حيث يتعلق الأمر بمراكز للتكوين الإيديولوجي تسمى" مراكز تقوية الإيمان "، تقتصر في أول الأمر على إقامة صلاة الجماعة في وقتها وبانتظام شديد، وفي مرحلة ثانية حفظ القرآن الكريم و الأحاديث النبوية بالإضافة إلى تبادل الكتب والأشرطة التي تمجد المجاهدين في أفغانستان والشيشان كأشرطة: "عشاق الشهادة" و"المجاهد حطاب"...

ثم في مرحلة أرقى يتم الانتقال إلى دروس حول فريضة الجهاد في المجتمع الفاسد الذي يسوده الفسق والفجور ويغيب فيه الحكم بما شرع الله وأنزل، والذي لن يتأتى تطبيقه طبعا في رأيهم إلا بالعنف.

وقد عمد بعض المحامون أثناء مرافعاتهم عن الانتحاريين الناجين إلى الدفاع عنهم من خلال التركيز على مسألة تدني مستواهم المعرفي فاعتبروا أن منهم من لم يفهم حقيقة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، ومنهم من لم يسبق له أن سمع باسم جماعة " السلفية الجهادية" التي أتهم بالانتماء إليها إلا أثناء المحاكمة.

والحقيقة أن هذه المدرسة يشهد لها بالنجاح على الأقل فيما يسطره مهندسوها ومنظروها بالرغم من بساطة وسائلها وإمكانيتها المتواضعة، مقابل فشل ذريع لنظام تعليمي يتوفر على إمكانيات ضخمة ووسائله جمة، لكنه لم ينجح في الوقوف أمام ذلك الفكر ومحاربته بندية، بل على النقيض صار النظام التعليمي يقدم له وقوده وحطبه من بين جحافل المتسربين والمطرودين والفاشلين دراسيا.

وقد أثبتت الدراسات أنه كلما زاد المستوى المعرفي للأفراد وإلمامهم بالحقائق والمعارف كلما قل التطرف، كما تشير نفس الدراسات أن التعليم أحد الآمال المرجوة لبسط سيادة وانتشار اتجاهات التسامح والمحبة. فإذا كانت الأفكار النمطية قائمة على تشويه المعرفة، فإن التعرف على الوقائع يساعد على تصحيحها (احمد زايد، 2006)،كما لاحظت أبحاث أخرى أن المستويات العليا من التعليم تساهم في نشر التسامح(williams,1981)، وتذهب أخرى إلى أن التسامح يرتبط بالمستوى التعليمي والتربوي أكثر من مظاهر المكانة الاجتماعية (معتز، 1989).

3.2. الخاصيـــــة الثالثـــــة: الانعزاليـــــة

تعتبر الانعزالية بمثابة ميكانيزم دفاعي لدى الشخصية، ومن أسبابها ما يعرف في السيكولوجيا ب "صورة الذات" أو " تقدير الذات " بالإضافة إلى عوامل الحرمان و الإحباط. وقد أكدت بعض الدراسات أن الانعزال الكلي أو الجزئي من السمات الأكثر انتشارا في صفوف الانتحاريين الذي بدوره يؤدي إلى الشعور بالاغتراب داخل المجتمع، مما يؤدي في النهاية إلى تحقير الذات.

وهو ما تؤكده تصريحات محيط انتحاريي الدار البيضاء فهم في الغالب خجولين و انطوائيين و منعزلين، بل أن أحد الانتحاريين الناجيين الذين تم اعتقالهما في مسرح الجريمة حسب من كانوا يعرفونه عن قرب، كان منعزلا إلى درجة أنه لم تكن له أية علاقة بمحيطه الاجتماعي، وانتحاري آخر سبق هجرته زوجته بسبب جفائه وعزلته...

كل هذه الصفات تدل على أن الانتحاريين كانوا يعيشون حالة سلوك اجتماعي غير طبيعي، حيث يتخذ الانعزال مظاهر مختلفة مصدرها النظرة إلى الآخر على أنه عدو و منحرف وأن المجتمع على ضلال وغير قابل للإصلاح ومن ثمة فلا غاية ترجى منه.

وهي أفكار تعمد الجماعات على ترسيخها من خلال تنميط أفرادها بشكل يلغي ذواتهم ويقطع علاقتهم مع الآخر/ المجتمع – الفاجر والكافر في اعتقادهم – فالايدولوجيا الدينية المتطرفة لا تقبل الآخر انطلاقا من الفتوى التي تكفر المجتمع الذي مصيره النار، في حين أن الجماعة إلى الجنة.

ومن الملاحظ أن أفراد هاته الجماعات يشهدون حالة من الابتعاد عن الأسرة والأصدقاء والحياة العامة، مما يكرس الاقتناع بقرار الانتقام عبر عمل انتحاري. وهو الطرح الذي تؤكده عدة دراسات خلصت إلى أن أحد أسباب ظاهرة الانتحاريين المتطرفين تكمن في انعدام القدرة على التغيير الاجتماعي، وفقدان الأمل في هذا التغيير (wikan،2001).

ويغذي سمة العزلة هاته، كما ينميها في الشخصية المتطرفة أساليب التفكير الخاصة بصاحبها والتي تعمل الجماعة على تأطيرها وتكريسها، مستفيدة من عدم التواصل بين المتطرف والمجتمع. حيث أن من المعروف أن بنيته النفسية تفضل عدم الاختلاط، بل تجد ذاتها في الوحدة التي تتمظهر من خلال عزلة فردية أو خروج جماعي للمتطرفين إلى خارج المدينة أو إلى الأحراش والغابات.

4.2- الخاصيـــــة الرابعـــة: الهويـــــة أو روح الجماعـــة

إذا كان دافع الانتماء لجماعة ما وتحقيق هوية اجتماعية إيجابية أمرا طبيعيا لدى الأفراد، فإن الانتماء للجماعات المتطرفة يعد عملا مشرفا وذي قيمة عالية لدى الفرد المنتمي إليها، لسبب بسيط يرتبط بفشله السابق في علاقاته الاجتماعية.

ويرى (wintrove) أننا يمكن أن نفسر السلوك الانتحاري انطلاقا من فكرة التضامن داخل الجماعة، إذ أنه يتنازل عن ذاتيته شيئا فشيئا مقابل شعوره بالانتماء إليها. وقد بينت دراسة(1971,Tajfel) أن التصنيف الاجتماعي للأفراد المنتمون لجماعة ما يؤدي إلى خلق هوية اجتماعية خاصة بهم، حيث يعد أمر قبول العضوية بمثابة تحقيق الذات. لذلك يمكننا الجزم بأن الانتحاري شخص عادة ما يفضل التضحية بنفسه من اجل غايات الجماعة و تحقيقا للتقدير الذاتي – الذي فقده في المجتمع كما أشرنا في السمة السابقة – و انتقاما للهوية الجماعية من مجتمع " فاسق " أو " مرتد "، لذلك تشير إحدى الدراسات إلى أن التطرف ثمرة ما يسمى " الهوية جماعية " التي يتم تطويرها على مدى تشكل الجماعة (2003,Victor).

5.2- الخاصيـــــة الخامســـــة: الحرمـــــــان

لا يرتبط الحرمان بجملة المتطلبات المادية المرتبطة بعوامل الفقر والبطالة فقط كما يعتقد الكثيرون، بل يشمل أيضا الحاجيات النفسية والمعنوية التي لم يتم إشباعها، كما يشمل القمع الذي تعاني منه الذات. لذلك كان من الطبيعي أن تربط السيكولوجيا التحليلية سلوك التطرف بمجموع الخبرات السلبية التي رسخت لدى الفرد نتيجة الحرمان الذي كانت سلطة المجتمع أو سلطة الآباء السبب فيه (حرية تعبير، مكانة، تقدير...)، وينتج عنه نوع من عدم الثقة في المجتمع أو الشعور بعدم الانتماء إليه وهو ما يؤدي إلى الإحباط النفسي الذي أجمعت دراسات عديدة على وقوفه وراء التطرف.

6.2- الخاصيـــــة السادســـــة: الأفكـــــار النمطيـــــة

من المعروف أن التطرف الديني منهج فكري إيديولوجي يستمد جذوره من مصادر فكرية معروفة وجهة نظر اصحابها، لذلك وإذا كان المتطرفين المنظرين أو المخططين يتبنون شعارات " الجهاد في النصارى وغير المسلمين... " أو " تغيير المنكر في واقع مليء بالظلم و الفسق والفجور.. " أو" إقامة دولة الإسلام والخلافة..."، فإن الانتحاريين– بالإضافة إلى ما سبق– يبرمجون كما قال (القرضاوي1998) على أنهم: " جماعة معها الحق كله وليس بعدها إلا الضلال، وأن دخول الجنة والنجاة من النار حكر على من اتبعها، وأنها وحدها الفرقة الناجية ومن عداها فهو من الهالكين".

ومن المعروف أيضا أن هناك إجماع واضح على ارتباط التطرف بالأفكار النمطية، تلك المعتقدات الفكرية الجامدة التي يعتنقها فرد أو جماعة ما(devine, 1989)، و الناتجة بالأساس عن تشوه الإدراك الذي ينتج بدوره عن الافتقار للحقيقة، حيث ينجذب إليه الأشخاص ممن يسهل استقطابهم وتجنيدهم لأسباب وعوامل شتى منها ما يرتبط بمحيطهم و منها ما يرتبط بذاوتهم وشخصياتهم كما سبقت الإشارة إلى ذلك في المحاور السابقة، فيما قد لا تتوافق تلك الأفكار النمطية مع خصائص شخصية أخرى.

والواقع أن ما ينبغي التركيز عليه للوقاية أو لمحاربة التطرف الديني في اعتقادنا، هو البحث عن أفضل السبل لتغيير الأفكار النمطية، خاصة تلك التي تستند على التأويل الخاطئ أو الضيق للنصوص الدينية. بالإضافة إلى نشر التعاليم الدينية السمحة والحنيفة، عبر توفير وتقديم رجال دين قادرين على مقارعة الحجة بالحجة والنص بالنص والنازلة بأختها.

وبعبارة صريحة ينبغي العمل على تصحيح المفاهيم، عبر العمل على تغيير الأفكار والبنيات المعرفية المتطرفة وتقديم الحجة الدامغة على مجانبة العديد من الأفكار النمطية لحقيقة الدين الإسلامي، من قبيل: "تكفير المجتمع" أو "استباحة الأرواح والأموال"، أو "اعتبار قتل الأجانب جهاد في سبيل الله" أو "تطبيق شرع الله "... وليس فقط اعتماد المقاربة الأمنية الإستئصالية التي قد لا تعطي إلا نتائج آنية فقط، ولعل تجارب أجنبية عديدة تزكي ذلك.

هذا العمل الذي نعتقد أنه كان من الضروري أن يشرع فيه منذ مدة طويلة– هو عمل أساسي ومن الأهمية بمكان– لأن الأمر يتعلق على ما يبدو بسوء فهم لتعاليم الدين، وبغياب شبه مطلق لمصادر المعلومة ولرجال و علماء الدين الوازنين و الموثوقين عن الساحة الفقهية.

هي إذن مجموعة من الخصائص التي نرى فيها نقط التشابه بين شخصيات انتحاريي الدار البيضاء، ولكن لابد من تسجيلنا في هذا المستوى ملاحظة جوهرية دفعتنا إلى التساؤل عن ماهية محددات اختلاف الأدوار بين المتطرفين باختلاف مواقعهم: المنظر، المخطط والمنفذ؟. أو بتعبير أدق ما دام أغلب انتحاريي الدار البيضاء يشتركون في أغلب الخصائص الشخصية مع بعض المخططين كعبد الحق الملقب " مول السباط "– المتهم الرئيسي بتدبير التفجيرات وهو الذي توفي أثناء التحقيق– لماذا لم يضع نفسه من بين المنفذين؟ و ماهي العوامل التي جعلته يخطط ولا ينفذ ؟ هل لم يتوقع نجاة أو تراجع أي من المنفذين؟ أم هل كان يعتبر نفسه أكثر ذكاء من الانتحاريين وبالتالي يرى أنه من الأفضل بقاءه للتخطيط لتفجيرات قادمة ؟ ربما...

تلك إذن مجموعة من الأسئلة المشروعة التي تستحق فعلا الإجابة لفهم أفضل لهذه الظاهرة؟؟؟.

وبالرغم من ذلك فإننا نسجل معارضتنا لجميع الأطروحات القائلة باستحالة تحديد خصائص المتطرفين الانتحاريين، على اعتبار أنه لا توجد صورة مركبة تتضمن الخصائص المشتركة الثابتة في الشخصية، وإن كنا نستطيع الجزم مع أحد علماء النفس بأنه فقط في الوقت الحاضر لم

نتوصل إلى تركيبة لشخصية المتطرف الانتحاري تقوم على تحليل السمات والخصائص المشتركة الثابتة بين مختلف شخصيات الانتحاريين.

و ذلك ما نرجعه في نظرنا لأسباب ذاتية وأخرى موضوعية ترتبط بالظاهرة كاستحالة دراسة "المتطرف المنتحر" الذي قضى، وصعوبة دراسة من أخفق أو من تمكن من التراجع وجرى اعتقاله. وتعود تلك الصعوبة أيضا لأسباب أمنية تتعلق بعدم ترخيص السلطات الأمنية لهكذا دراسات حتى الآن، ونتمنى أن يتأتى ذلك لنا وللباحثين في المستقبل القريب خاصة مع وجود انتحاريين اثنين ناجيين من مجموعة الدار البيضاء لم ينفذ حكم الإعدام فيهما حتى اليوم.

المراجـــــع العربيـــــة

1. **احمد زايد** 2006: **سيكولوجية العلاقات بين الجماعات**، سلسلة عالم المعرفة، العدد326، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

2. **معتز سيد عبد الله** (1989): **الاتجاهات التعصبية**، سلسلة عالم المعرفة، العدد137، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

3. **مصطفى زيعور** 1986 : **في علم النفس" سيكولوجية التعصب"**، محاضرة منشورة، القاهرة، دار النهضة العربية.

4. **حامد طاهر** (2005): **ظاهرة التطرف الديني**، سلسلة كراسات علمية، المكتبة الأكاديمية، مصر.

المراجـــــع الأجنبيـــــة

1. Baron,R.,&Byrne,D.(1981) :**Social Psychology : understanding human interaction**. (Eds.) Boston : Allyn & Bacon,Inc.

2. Bloom,L.& Egwu,E.(1989) **Concise lecture notes on psychology.** London : Mac Millan,Publishers.

3. Devine,P (1989) : **Sterotypes and prejudice : Their automatic and Controlled Components**. Journal of Personality and Social Psychology, The American Psychological Association,Inc , 5-18

4. Rokeach,M.(1960) :**The open and closed mind**. New York : Basic Books, Inc

5. Tajfel,H.,Flament,C.Billig,M.,and Bundy.R.F.(1971) : **Social caterorization and intergroup behavior**. European Journal of Social Psychology,1,149-177.

6. Wilson, Philip P.,and Beverley Raphael,eds. (1993) **International Handbook of Traumatic Stress Syndromes**.New York : Plenum Press.

7. Jerrold Post (2005) : **The Psychological Roots of Terrorism**, in Addressing the Causes of Terrorism: The Club de Madrid Series on Democracy and Terrorism, vol. 1 (Madrid: Club de Madrid,).

8. M. Taylor and J. Horgan, (2006) : **A Conceptual Framework for Understanding the Development of Psychological Process in the Terrorist**,Terrorism and Political Violence, vol. 18: pp. 1-17.

جـــــوان لوبيـــــز إيبـــــور لعـــــام "2010"

بمزيد الإعتزاز بلغنا نبأ نيل **الأستاذ الدكتور أياد السراج** جائزة :

"جـــــوان لوبيـــــز إيبـــــور لعـــــام "2010

إني وكافة أعضاء الهيئة العلمية الاستشارية لشبكة العلوم النفسية العربية، إذ نتقدم إلى الزميل أياد السراج **بخالص تهانينا القلبية**، لهذا التتويج الذي نثمنه اعترافا من الجمعية العالمية للطب النفسي بما قدمه من خدمات طبنفسية لرعاية المصابين باضطرابات نفسية، ضحايا جريمة الحرب على غزة.

إن ما قدمه **الأستاذ الفاضل أياد السراج** من عمل أهّله لنيل الجائزة، لم يكن لوحده كافيا لولا اقتناع البروفيسور عكاشة بأهمية انجازه و ما قدمه له من دعم سواء على مستوى الترشيح أو على مستوى هيئة الجائزة. **إنّ الشكر موصول للبروفيسور أحمد عكاشة** لفضله في هذا التتويج و لما له من أياد بيضاء على الطب النفسي العربي و الأطباء النفسانيين العرب.

إن انجازاتنا في حقل العلوم النفسية لا تكفي لوحدها لنيل مثل هذه الجوائز العالمية ما لم نتواجد كأخصايين عرب بشكل فعّال في مثل هذه الجمعيات العلمية العالمية و الدولية للدفاع عن منجزات مرشحينا و العمل على الإقناع بها. إنا نعيش زمن التكتلات الكبرى، و لا مكان لنا داخل المحافل الدولية و العالمية إلا بما نقدر ما نقدمه من أعمال قادرة على التنافس العالمي و بقدر ما نتكاتف مع بعضنا البعض. إنه كما علينا بذل الجهد للتميز عالميا في ميدان إختصاصنا علينا أيضا بذل نفس الجهد (إن لم يكن أكثر) للتواجد في المحافل العلمية الدولية العالمية.

إنا بكم وبأمثالكم نرقى ومعكم يسير الدرب رفعة بالعلوم النفسية في أوطاننا.

د. جمال التركي

رئيس شبكة العلوم النفسية العربية

التطـــــــرف العقائـــــــدي و الارهـــــــاب... مدخـــــل منظـــــور نفســـــي

أ.د. قاســـم حسيـــــن صالـــح – علـــم النفـــس – العـــراق
qassimsalihy@yahoo.com

إشكاليـة مصطلح: شاع بين الناس مصطلح ((إرهاب)) ليعني الأعمال التي تستهدف قتل المدنيين أو إلحاق الأذى بهم . والواقع أن مفردة أو مصطلح (إرهاب) ترجمة غير موفقة لمفردة (**Terror**) الإنجليزية . ذلك أن جذر مفردة (ارهاب) هو (رهب) بفتح الراء والباء وكسر الهاء،ويعني (خاف) . ويقال في الأمثال : (رهبوت خير من رحموت). أي لأن ترهب، بضم التاء وفتح الهاء، خير من أن ترحم، بضم التاء وفتح الحاء . و (أرهبه) و (استرهبه) تعني أخافه . وبهذا المعنى ترد في القرآن الكريم في سورة الأنفال : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين لا تعلمونهم الله يعلمهم – من الآية رقم – 60) .

وعلى وفق ذلك فأن مفردة (ارهاب) تحمل دلالة أو معنى إيجابيا . فالتفسير النفسي لها يعني أن الذي يهمّ بالعدوان على جماعة معينة يحجم عن تنفيذ عدوانه اذا رأى ما عليه الطرف المقابل من قوة، فيخاف على نفسه وجماعته خشية أن يلحق بهم الدمار أو الأذى، وكأنه (تكنيك) أو أسلوب للوقاية من شرّ محتمل .

هذا يعني أن الارهاب، لغة، يقصد به (إخافة) الطرف الآخر في النزاع أو الصراع، ولا يعني فعل إيقاع الأذى به . بمعنى آخر أن الارهاب أقرب إلى (الانذار) الذي يسبق الفعل ليحذر الخصم من أنه اذا شن عدوانا فأن ما سيصيبه من آذى ودمار أكثر مما يوقعه هو في الطرف الآخر . وواضح أن هذا لا ينطبق على ما جرى ويجري في العراق من الأعمال التي وصفت بالإرهاب . ونرى أن الأقرب لوصفها، لغة، هو مفردة ((إرعاب))، من الرعب الذي يتضمن أيضا ترويع الناس وإشاعة الذعر بينهم .

لكن اللغة العربية متخمة بالأخطاء الشائعة . ويبدو أن الخطأ الشائع أسهل في التخاطب بين الناس – لكثرة تداوله – من المفردة الصحيحة لغة . وعليه قد يصعب تداول(إرعاب) بدلا من (ارهاب)، لا سيما بعد أن اكتسب مصطلح إرهاب معنى جديدا هو : إيقاع الأذى بآخر أو آخرين ليسوا طرفا في النزاع . ومع ذلك فأن (الإرعاب) أصح لغة من (الإرهاب) في وصف الحالة موضوع البحث .

1– أراء من دون تفاصيل.. للتأمّل

* لا يولد الإنسان إرهابيا بالفطرة، إنما تصنعه مؤسساته الاجتماعية . وإذا ظهر من بيننا إرهابي فهذا يعني أننا نحن الذين صنعناه . أو – بعبارة أخف – ساهمنا في صنعه .

إن الارهاب ليس وليد القرن العشرين، بل هو سلوك قديم رافق البشرية عبر تاريخها الطويل بمسميات متنوعة : القراصنة، الصعاليك، .... العيّارون، الشطّار (لاسيما في بغداد أيام الفتنة بين الأمين والمأمون) . وأن الارهاب لم يظهر فقط في أرض العرب والإسلام، إنما في أوربا أيضا، ومنها – في سبيل المثال – فرنسا بين عامي 1789 و 1799.

إن القاسم المشترك لظهور الارهاب بمسمياته المختلفة عبر تاريخ البشرية، يتحدد بانقسام الناس الى فريقين : معدمون وفقراء وجياع وعاطلون ومهمشون يشكلون الأكثرية، وزعماء وحكّام وأغنياء ومترفون يشكلون الأقلية .. في نظام يفتقر إلى العدالة والإنصاف . يضاف لها عامل حديث معاصر هو : غطرسة واستعلاء دول كبرى في العالم، وسعيها الى فرض قيمها وتسفيه قيم الآخر.

إن الإسلاميين وجدوا أنفسهم محاصرين بثلاثة أنواع من الأطواق الخانقة : حصار خارجي يتمثل بدول الغرب الكبرى، وحصار داخلي يتمثل بالأنظمة السياسية، وحصار الحركات والتيارات اليسارية والعلمانية . وأن نزعة الإنسان الى البقاء تدفعه الى فك الحصار عن نفسه بأية وسيلة كانت

- يشكّل الإسلام مشروع حضارة وتحديا ثقافيا لحضارة الغرب وثقافته،مما دفعه(الغرب) الى التفتيش عما هو سلبي في الإسلام وتضخيمه بأساليب شكلت استفزازا للإسلاميين الأصوليين، أو إساءة لمقدساتهم .

- إن الإسلاميين الذين اعتمدوا العنف وسيلة لتحقيق أهدافهم، استعانوا أو التحق بهم أفراد محترفون للجريمة، وآخرون منحرفون نفسيا، يجمعهم (الأصناف الثلاثة) فعل الجريمة "قتل الأبرياء" وان اختلفت أهدافهم .

- إن اعتماد أمريكا لنظرية (السيفون) في العراق، أي ترك حدود العراق مفتوحه ليتجمع فيه أعداؤها، ثم الإجهاز عليهم، كان أحد الأسباب الرئيسة في شيوع الارهاب في العراق، فضلا على غطرستها وسوء تعاملها مع العراقيين واسترخاص حياتهم .

- إن الإرهاب لا يمارسه فقط من يوصف بالإسلاميين الأصوليين أو التكفيريين أو أية جماعات بعناوين أخرى، إنما الحكومات أيضا، وبأسلوب أشمل وأبشع . وأبرز مثال معاصر عمليات الأنفال في العراق .ولا توجد الآن ضمانات تجعلنا نطمئن بيقين ثابت أن الحكومات العراقية المقبلة سوف لن ترتكب أعمالا إرهابية .

- إن الانتحاريين من الإرهابيين مخلصون تماما لمعتقداتهم . فلا يوجد اكثر إخلاصا للمعتقد من أن يضحي الفرد بحياته من أجله . ولا فرق – من حيث الفعل النفسي والادراكي – بين (عمر المختار) مثلا، وبين إرهابي يشد نفسه بحزام ناسف ليفجرها بين حشد من الناس، فكلاهما ينتهيان الى نهاية واحدة : تدمير الذات وإفناؤها. والفرق يكمن في نوعية المعتقد . فالسياسي الذي يخيّر بين الإعدام وبين التخلي عن معتقده.. ويختار الإعدام، إنما يضحي بنفسه من اجل هدف واقعي يراه يحمل الخير للناس، ولا يلحق مشهد إعدامه أذى بالآخرين إنما التعاطف معه، فيما يؤدي تدمير الارهابي الانتحاري لذاته الى ارتكاب جريمة بقتل نفوس بريئة، والحاق الأذى بآخرين، من اجل هدف خيالي نسجه معتقد يراه الآخرون وهميا أو باطلا . وعليه فأن الخلل ليس في الإنسان بحدّ ذاته، إنما في طبيعة معتقده .

والسؤال الذي يشكل تحديا لنا هو :

كيف تشكّل هذا المعتقد لدى أفراد في مجتمعاتنا الى الدرجة التي لا يفني الفرد فيها وجوده فقط، إنما يفني معه أرواحا بريئة من أبناء قومه يستهدفهم عن قصد، ولا يعدّ فعله هذا جريمة، بالرغم من أنه يعلم بأن من قتل نفسا بريئة كأنما قتل الناس أجمعين ؟!

2- المؤسســـــات

نرى ، نحن السيكولوجيين ، أن شخصية الإنسان (تفكيره وسلوكه) يسهم في تكوينها ثلاث "مؤسسات " هي : الأسرة والمدرسة والسلطة . وفيما يلي توصيف موجـز لـدور هـذه المصادر في تشكيل شخصية المواطن العربي .

1.2. الأســـــــــــرة

يولد الطفل العربي في حضن وبيت يشكّلان لديه توجها نحو التفكير الخرافي وشخصية فيها اختلالات سلوكية .إذ يخلص من يستعرض الدراسات النفسية والاجتماعية الى نتائج " مخيفة " في مقدمها أن الأسرة العربية متهمة في أن أساليب تنشئتها للطفل العربي تقوم على : العقاب الجسدي والترهيب والتهديد والقمع السلطوي ، وأنها تركّز على مبدأ الحماية والطاعة والخوف من الأخطار ،على وفق رأي الباحث بركات. فيما يرى الباحث مصطفى حجازي أن الطفل العربي يعيش في عالم من العنف المفروض في داخل الأسرة ، الذي يجسّد اعتباطية السلطة الأبوية . ويدعم رأيهما باحثان بقولهما :إن الأسرة العربية تعاني من السلطة الأبوية الصارمة ،تتمثل في قهر الأبناء ووأد حرية الرأي .

وترى باحثتان من قطر عربي آخر أن الهدف الرئيس للتنشئة الاجتماعية في المجتمعات العربية يتمثل في : خلق الذات التواصلية التي يؤدي تحقيقها الى تعزيز علاقات السلطة الأبوية .

ويخلص الباحث وطفة الى أن الآباء في إطار الأسر العربية المتسلطة يستخدمون القمع النفسي بالازدراء والاحتقار والسخرية والتهكم وتوجيه الألفاظ النابية ، وكذلك القمع الجسدي بالضرب والحرمان والسجن والمنع . وفي المعنى نفسه توصل الباحث شرابي الى أن التنشئة العربية تنمّي أساليب التخجيل والتهكم والتبخيس وخلق الإحساس بالدونية والنقص . فيما يرى الباحث علي زيعور أن الأم العربية تلجأ الى التخويف بالأب والحيوانات والجن والعفاريت كي ينام الطفل أو يطيع أو يهدأ . ومن ثم ينتقل التخويف الى التهديد بالضرب ...وأن العصا والحيوان والشيطان أدوات قمع للطفل ومثيرات للرعب تؤدي في النهاية الى قتل روح النقد والإبداع واغتيال روح الحرية في نفوس الناشئة .

وفي بحث عن تأثير وسائل تربية الطفل في العائلة البرجوازية الحضرية ، يرى الباحث شرابي أن الأب يضطهد الصبي فيما تسحق الأم شخصيته عن طريق الإفراط في حمايته . أما البنت فتدفعها العائلة منذ طفولتها المبكرة الى الشعور بأنها عبء وغير مرغوب فيها . وان هذا الإفراط في الحماية وهذه السلطوية في العقاب يؤديان الى شعور الأبناء بالعجز والاتكالية والتهرّب من المسؤولية . وأن نظام العائلة عندنا – على ما فيه من حسنات كاحترام الكبار وحماية أفراد العائلة بعضهم بعضا في الملمات – يقوم على التنابذ والخلاف أكثر مما يقوم على التعاون والوئام . وأن الغيرة والحسد يسودان علاقات أفراد العائلة أكثر مما تسودها المحبّة والتسامح . وأن أولادنا يتعلمون منذ الصغر كيف يجري اغتياب الأصدقاء والأقرباء ، ومن أين تؤكل الكتف . وأنهم في تنافسهم على محبة الأم وعطفها يتعلمون بشكل تلقائي كراهية الأشقاء وعدّهم منافسين يجب التحسّب لهم .

وأفادت دراسة الدمرداش التي أجراها في مصر بأن الأمهات المصريات يعتمدن الأسلوب التقليدي القديم في تربية الأطفال المتمثل بأسلوب الشدّة ..وأن الأم المصرية تنظر الى حرية الطفل في التعبير والمناقشة بوصفها جرأة شديدة لا يسمح بها . وأفادت دراسة أجرتها جامعة الإسكندرية بأن أحد الأركان الأساسية للتنشئة الاجتماعية يتمحور في مبدأ تطبيع الطفل العربي مع الأوضاع والخضوع للكبار ، سواء أكان ذلك عن طريق التسلط أم طريق الرعاية الزائدة .

وهنالك من يذهب ابعد فيعزو ليس فقط اخفاقات الفرد العربي في أمور شخصية من قبيل الاعتقاد بالخرافة والتفكير السلفي ،بل حتى النكسات الكبيرة التي أصابت الأمة العربية، وتحديدا نكسة الخامس من حزيران عام 67 ، يعزوها الى أساليب تنشئة ورعاية الأسرة العربية لأطفالها ، على ما يرى الباحث شرابي .

ويخلص الباحثون محمد عماد إسماعيل ورشدي فام منصور ونجيب اسكندر في مصر ، وقاسم عزّاق وحسناء الحمزاوي في تونس الى أن أساليب التنشئة الأسرية العربية تسعى الى أن تخلق الطاعة والأدب عند الطفل عن طريق العقاب البدني ، ثم خلق المخاوف لديه عن طريق كائنات خرافية . فيما توصل كاتب هذا الموضوع في دراسته لأساليب تنشئة الأمهات في بغداد وقرية عراقية قريبة من مدينة الفلوجة الى شيوع معتقدات خاطئة وخرافية عندهن ، من بينها مثلا :

- ذبح خروف أو عجل قجران دم يؤدي الى طرد الشر .
- وضع السكين التي يقطع بها الحبل السّري تحت فراش الطفل لمدة أربعين يوما ، تحمي الطفل وأمه من الشر والحسد .
- تعليق خضرمة أو شذرة ، أو قطعة من الذهب على شكل هلال بشعر رأس الطفل ، تقيه من عين الحسود وتساقط الشعر .
- رمي الحبل السّري في حوش الحلال يجعل الطفل مستقبلا ميسور الحال ، ورميه في ساحة المدرسة يجعله يتولع بالدراسة .

تعـلـيـق

إن الأسرة العربية بوصفها الحاضنة الأولى للعقل العربي ، تعيش اختزالات واستلابات اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية

ونفسية ، تضطرها اللجوء الى العرّافين والسحرة والدجالين والمسيئين لاستخدام الدين ، للتخفيف من حالتها المأزقية .

ومع أن الأم العربية تغذّي أطفالها حليبا طيبا من صدرها ..مدفئا بحنانها ، إلا أنها تغذّي عقولهم بأفكار خرافية يصعب عليهم التخلص منها حتى لو صاروا راشدين .

2.2. المدرســـــة

تشير الدراسات الى أن النظم المدرسية العربية تسعى الى الضبط الاجتماعي، بدلا من تكريس الحرية المترتبة على المعرفة ، والى توليد المسايرة والانصياع لمعايير الجماعة للمحافظة على ما هو قائم . وأن الأنظمة التربوية العربية الرسمية تقوم على تكريس علاقات السلطة الخاصة بالنظام الأبوي ، وتعمل على إعادة إنتاج هذه العلاقات . وأن ما يتعرض له الأطفال من قهر وتسلط تربوي يضعهم في دائرة استلاب شاملة تكرّس مظاهر القصور والسلبية كافة في الشخصية الإنسانية ، على ما يرى الباحثان وطفه والنقيب . فيما يذهب باحثان آخران " علي والراهب " الى أبعد من ذلك فيصفان نظام التعليم العربي بأنه تقليدي يقوم على سجن عقل التلميذ في حذاء صيني ضيق يمنعه من الانطلاق والانتشار والشمول . وبمعنى مقارب يرى الباحث (الناقة) أن شيوع التلقين لا يقتصر على ساحة التعليم المدرسي بل يتعداها الى مؤسسات التعليم العالي ، وأن الجامعات العربية ظلت أسيرة لطرائق التدريس التي ألفها الطالب سابقا ، وليس من الميسور تغيرها بما يتناسب مع الدراسة الجامعية القائمة على البحث والمراجع وما يتطلبه من مهارات .

تعليـق

تعدّ المدرسة من أهم وأخطر مصادر بناء شخصية الإنسان ، لكونها تغذّي العقل بالعلم والمعرفة ، وتهذّب السلوك . ولأن الفرد يقضي فيها خمسة عشر عاما أو اكثر من أهم مراحل حياته " الطفولة والمراهقة والشباب " . ولأنها أداة الدولة والمجتمع في التطور والحضارة . فضلا على أنها القناة التي يتم من خلالها تشكيل أو تكوين العقل العربي .

ولم تعد المهمة الأساسية للتربية تعليم المعارف والمعلومات والحقائق ، فهذه يمكن أن يجدها الإنسان في المكتبات وفي وسائل الاتصال وآخرها الإنترنت . إنما المهمة الرئيسة لها هي تمكين الفرد من تغيير حياته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية والبيئية نحو الأفضل .

وبما أن الفكر ، كأداة ومحتوى ، ما يزال مرهونا بتقدم العلم " الذي يفضي استخدامه الى أن يجعل الحياة بصيغة أفضل " فان المدرسة ، بوصفها قناة العلم ، لا يكون بمستطاعها تحقيق ذلك ما لم يكن ثالوثها " المعلم – الطالب – المنهج " بمستوى هذه المهمة المعقدة والخطيرة . ويبدو أن مؤسساتنا التربوية العربية ما تزال غير مؤهلة تماما لإنجاز هذه المهمة بالسرعة والكفاية التي تمتاز بهما المؤسسات التربوية في العالم المتقدم .

3.2. السلطـــــــــة

تتعدد إشكاليات العلاقة بين السلطة والفرد في المجتمع العربي في حالة من التشابك المعقد . سنلتقط إشكاليتين فقط هما : الاغتراب عن السلطة ، وتعدد الرؤى وضبابية المستقبل ، ونوجز الحديث عنهما بلغة البرقيات .

ففيما يخص **الاغتراب عن السلطة** ، فالدراسات تشير الى أن المجتمع العربي واقع مغرّب يحيل الشعب ، وبخاصة طبقاته وفئاته المحرومة والمرأة ، الى كائنات عاجزة لا تقوى على مواجهة تحديات العصر . وأن السلطة حاصرت الإنسان العربي فاضطرته للاشتغال بتدبير شؤونه الخاصة وتحسين أوضاعه المعيشية ، وأنها عمدت الى تهميشه وإفقاره وسحق قدراته الابداعية ، على ما يرى الباحث بركات .

ويرى الباحثون : وطفة ، النقيب ، شرابي ، رضا ، وغيرهم أن الأوضاع العربية أحالت الإنسان العربي الى كائن مغترب عن نفسه ومجتمعه ومؤسساته ، واضطرته لأن يساوم ويتكيف مع واقعه الأليم بدلا من تغييره . وأن السلطة العربية حولت الفرد العربي الى كائن يعمل في خدمتها دون أن تعمل لصالحه وتحسين أوضاعه المادية والإنسانية واغناء حياته ، وأنها جعلته عاجزا وفقيرا ومهمّشا لا يقوى على الإسهام في خدمة مجتمعه.

وما يهمنا هنا هو التنبيه الى الآثار النفسية الناجمة عن الاغتراب ، ومن أخطرها : شعور الفرد المغترب بالعجز " powerlessness "، وإحساسه بأنه لا يمتلك السيطرة على مصيره ، الأمر الذي يدفعه الى أن يكون قدريا وميالا الى التفكير الخرافي . فضلا على فقدانه المعنى أو الهدف من الحياة ، والبعد عن القيم الأساسية في المجتمع ، وشعوره بالعزلة والوحدة الذي قد يصل الى الإحساس بالنبذ.

وفيما يتعلق **باستشراف العربي لمستقبله** فان الدراسات تشير الى تعدد رؤى السلطات الفلسفية والسياسية والفكرية والاقتصادية ...بشكل وضعت الفرد العربي في منطقة رمادية وحاصرته فيها .

ففي المجال الفلسفي ، مثلا" ، هنالك تيار سلفي قوي يدعو الى استعادة الذات العربية من ماضيها المجيد وتوكيد نفسها في مواجهة التحدي الحضاري، مقابل رؤية تدعو الى الحداثة و " العصرنة ". وكل يأتي بحجج ساندة لموقفه وداحضة الموقف الأخر ، حتى لتبدو الحجج الساندة والداحضة معقولة ومقبولة، برغم ما بينها من تناقضات. فالرجوع الى الماضي نكوص في عالم اليوم، والحداثة أو " العصرنة " تعني العولمة وضياع الهوية . ومن يدعو الى المعقولية والتوازن بينهما، كما يفعل الدكتور محمد عابد الجابري، تبدو له الرؤية منطقية على صعيد ما ينبغي أن يكون، وخيالية أو مستحيلة على صعيد ما هو كائن.

وقد ينتهي الأمر الى ما توصل إليه بركات من أن الفرد العربي صار في معظم المجتمعات العربية موزعا" بين القديم والحديث من دون أن يكون أيا" منهما حقا"، وأن النزوع الى كل من السلفية وتقليد الغرب يشكل نوعا" من الاغتراب عن الذات.

ومحنة نفسية أخرى يعيشها الفرد العربي هي انه يملك تاريخا" مجيدا"، ويحمل في الوقت نفسه صورة سلبية عن ذاته. وبين هاتين الصورتين (الحالين) يعيش حالة مأزقية. فتاريخه يحدّثه بالأمجاد والزهو، فيما حاضره يصفعه بالانكسارات وبما يحاول أن يذله.

وما يزيد من هذه المحنة، أن بعض السلطات في المجتمع العربي تعمّق إحساس الفرد العربي بمشاعر الإحباط وتمارس آلية (الإسقاط)، بأن تتنصل عن مسئوليتها وترميها على قوى خارجية.

إن تعدد الرؤى حالة إيجابية ومطلوبة في تغيير الحاضر الى ما هو أفضل. غير إن الإشكالية هي انك اذا أحصيت الرؤى في مجتمعاتنا، (

وهي عسيرة على أن يجمعهما جامع)، فانك ستصل، من بين استنتاجاتك، الى أن الفرد العربي يصاب بالدوار منها. وانه اذا انشغل بها فانه قد يتعرض بسببها الى اضطراب عقلي. ولأنه لا يريد هذا ولا ذاك، فانه يلجأ الى أن ينأى بنفسه عنها في حالة يأس منها ومن المستقبل. يرافق ذلك أن أجهزة الإعلام العربي أوصلت الفرد العربي الى حالة من (التقيؤ الفكري) لكثرة ترددها لما يزيد عن خمسين سنة مقولة " إن الأمة العربية تمر الآن بأزمة خطيرة " ، برغم تعاقب الأزمنة وتنوع السلطات، وكأنها مبرمجة لتيئيس الفرد العربي من أمته ومستقبلها، لأن التكرار وعلى مدى هذا الزمن الطويل، كفيل بأن يولد، سيكولوجيا"، حالة الإقناع بأن " الآن " هذه مزمنة ولا خلاص للأمة منها.

تعليـــــــــق

عندما تكون السلطة عاجزة عن ، أو غير جادّة في تقديم حلول أو معالجات عملية للمشكلات الحياتية والحاجات المشروعة للإنسان . وعندما تشيع الخرافة في أجواء من التخلف والحرمان . وعندما تتضاءل أو تنعدم فرص الخلاص أمام الإنسان ويتنامى لديه الشعور بالعجز ..فانه يلجأ الى الوسائل الخرافية في محاولة منه لالتماس حلّ أو أمل يفضي الى خفض القلق لديه والشعور بالطمأنينة ، لاسيما بين البسطاء ومحدودي الثقافة الذين يدفعهم إيمانهم بالدين الى اللجوء الى المعالجين الروحانيين ، حتى في أمراضهم العقلية .

ويشير واقع الحال الى ازدهار وسائل الإرشاد الروحانية والخرافية لاسيما عبر القنوات الفضائية . وأن السلطة قد يكون لها دور في تبني هذه القنوات لهذا الغرض أو ذاك .

3. تفاصيـــــــل ..ليســـــت بحجـــــم الظاهـــــــــرة

إن مقارنة السيكولوجيين، للارهاب تبدو للسياسيين كمن يغرد خارج السرب . وبصريح العبارة فأنهم لا يعيرون لكلامهم اهتماما . والسبب هو أن السياسيين يختزلون الارهاب بمسألة واحدة هي ((**الأهداف**)) التي يسعى الارهاب الى تحقيقها . ويركزون في إبراز شرعية النظام السياسي القائم وإنسانيته وأخلاقياته، وإظهار قبح الإرهاب ووحشيته وما سيحلّ بالناس من بلاء اذا ما أزاحهم عن السلطة وأخذها منهم . فيما يركز – النفسانيون – في ((**الأسباب**)) التي أدت الى ظهوره والعوامل التي جعلت منه أن يكون بحجم ظاهرة دولية ذات أبعاد وعناوين متعددة : سياسية ودينية واجتماعية ونفسية وأخلاقية واقتصادية . وفي رأينا، إن الذي يقف على أسباب أية ظاهرة يمكنه اقتراح سبل أو أساليب لعلاجها...وهذا ما تهدف أليه هذه الورقة .

إننا، نحن المعنيين بالعلوم النفسية والسلوكية، ننظر إلى انه توجد في داخل أي إنسان " منظومة قيم" هي التي تحرك سلوك الفرد وتوجهه نحو أهداف محددة، تماما مثلما يفعل " الداينمو " بالسيارة . فكما انك ترى السيارة تتحرك (وحركتها سلوك) ولا ترى الذي حركها " الداينمو" كذلك فأنت لا ترى " المنظومة القيمية" التي تحرك سلوك الفرد . ولذلك فان اختلاف الناس : (رجل الدين عن رجل السياسة عن الفنان عن المنحرف عن الإرهابي .....) إنما يعود إلى أن شبكة المنظومة القيمية والثقافية الناجمة عنها، تكون مختلفة لديهم نوعيا وكميا وتراتبيا وتفاعليا .

ونرى أيضا أن الإنسان لا يولد مزودا" بالفطرة بهذه المنظومة القيمية إنما يكتسبها من خلال ثلاثة مصادر أساسية هي : 1- الأسرة و النظام التربوي (المدرسة) و السلطة (نظام الحكم) .

والمتفحص للمنظومات القيمية (محركات السلوك ومحددات أهدافه) لدى الإرهابيين العرب، يخرج بنتيجة أنها نتاج هذه المصادر المحلية الثلاثة، مضاف لها "**الجامع**" بوصفه مصدرا للتثقيف الديني، ومصدر آخر خارجي استفزازي عدواني تحريضي قادح لزناد الإرهاب هو "**أمريكا**" . فضلا على محاولة الإعلام الغربي تصوير الإسلام بأنه كان قد أشاع ثقافة انتشاره بالسيف وليس بالحوار، وأن المنادين به الآن ملتزمون بهذا النهج، وغيرها من التهم . غير أن ما يعنينا هنا هو ما **صنعته أيدينا** .

فالدراسات النفسية الاجتماعية تشير الى أن "الأسرة العربية" لا سيما في الأوساط الفقيرة والمتوسطة والمتدنية ثقافيا، وهي الأوسع في أمة الإسلام والعرب، تنشئ أطفالها على العقاب الجسدي والترهيب والتهديد والقهر النفسي والازدراء والتحقير والتخجيل والسخرية والتهكم وخلق الإحساس بالدونية الذي يفضي إلى عقدة الشعور بالنقص ووأد حرية الرأي . فضلا عن أن البعد السلطوي في الثقافة العربية يبدأ مع الأطفال وهم في المهد . فالأم تمارس أسلوب تخويف الأطفال بالأب والحيوانات و الجن كي يناموا ويطيعوا . فالعصا والحيوان والشيطان أدوات تستخدم لقمع الأطفال، ومثيرات للرعب تفضي الى اغتيال أو خنق روح الحرية في نفوس الناشئة وتغلق نوافذ تفكيرهم في السؤال والحوار.

ونميل نحن النفسيين إلى الاعتقاد بأن المنحرفين والمجرمين و المتمردين على النظام والقانون يأتون من بين هؤلاء الأطفال الذين عاشوا هذه الخبرات . فالذي أحتقر في صغره وكان موضوعا للسخرية والقمع النفسي والفكري... وكان ممسوخ الهوية "أعني قمع صوت الأنا" يتشكل لديه أسلوب عصابي في التعامل مع الآخرين يدفعه من بدايات شبابه إلى أن يعمل على "ردّ اعتباره" لنفسه واعلاء صوت "الأنا" من خلال النيل ممن يتخذه ضحية من هؤلاء الآخرين بإذلاله والاعتداء عليه . وبتكرار الضحايا يجري تضخيم "الأنا" وصولا لأن يكون بحجم صورة "البطل" في ذهن صاحبه، التي تكون عند العصابي بلا حدود .

والإرهابي ـــــ في اجتهادنا ـــ عصابي، بمعنى أنه يفقد المرونة في التعامل مع الأمور ولا يجد إلا حلا واحدا لكل قضية يسيطر عليه ويكون هذا الحل قسريا، بمعنى يجبره على أن يقوم به، ويجعله حرونا عنيدا حتى لو كان فيه فناؤه .

ويعد النظام التربوي بمؤسساته التعليمية من الابتدائية إلى الجامعة القناة الأكثر تأثيرا في تشكيل القيم لدى التلاميذ والطلبة، وأول من يحدد لهم الطريق الى ثقافة معينة . والباحث في الأنظمة التربوية العربية يجد أنها تقوم على تكريس علاقات السلطة الخاصة بالنظام الأبوي، وتسعى الى الضبط الاجتماعي بدلا من توظيف الحرية المترتبة عن المعرفة . فالتعليم عندنا يقوم على التلقين وحشو الذاكرة الذي ينتج بالضرورة عقلا يأخذ بالأمور كما لو كانت مسلمات دون أن يتحاور معها بفكر ناقد. فتلقين الطالب تفسيرا واحدا أو رأيا واحدا، وإجباره على تبنيه، واحدة من السمات السلطوية البارزة في مناهجنا التربوية التي نجم عنها أن الطالب (حتى الجامعي) تعود على الخضوع والعجز، وغلق كل نوافذ عقله إلا النافذة التي تضخ عليه المعلومات ليودعها في مخازن الذاكرة . وبهذا صاغ النظام التربوي العربي عقولا عودها على أن " تستقبل" لا على أن "تحاور" . وجعل من هذه العقول أشبه بحصان العربة، لا ترى إلا الذي أمامها في خط مستقيم، وإن استدارت فبتوجيه من سائسها . وللأسف فأن "السائس" لها من أصحاب الفتاوى المتشبع بثقافة الحقد ضد سلطة أو قوة يرى فيها أنها طاغية أو باغية وأنه لا سبيل الى إيقافها عند حدها إلا بالعنف . ولهذا السبب فأنه سهل على النفوس المحبطة والعقول التي لا ترى إلا حلاً واحدا لكل أزمة ، تلقي الفتاوى والعمل بها دون نقاش .

أما موضوع السلطة، فذلك هو مرض العرب المزمن منذ ما يزيد عن ألف وثلاثمائة سنة . فقد كانت ولا تزال أقرب إلى "التسلط" منها إلى "السلطة". ذلك أن السلطة في المفهومين الفلسفي والأخلاقي ضرورة اجتماعية (**لتنظيم أمور المجتمع**)، وضرورة نفسية (**لتحقيق العدالة بين الناس**)، فيما يتضمن مفهوم "التسلط" معاني الظلم، والقهر، والإكراه، والتشديد، والعنف، والإرهاب ... وهو الأقرب لواقع الحال في مجتمعاتنا العربية . فضلا عن أن السلطة لدينا تتفرد بالثروة والبذخ والترف السفيه . ومعروف أن المجتمع الذي يضع قيمة كبيرة على الأمور المادية، تتمتع فيها فقط جماعات قليلة في السلطة تأكل لحم الغزلان المطعّم برائحة الهيل فيما يأكل الفقراء خبز النخالة (كما حصل في العراق خلال سنوات الحصار)، فأنه تبرز في هذا المجتمع حالة الإحساس بانعدام العدالة الاجتماعية لدى الجماعات المحرومة منها، فيظهر بينهم من يعمد الى تجاوز قيم المجتمع ونظامه ليأخذ حقه بسيفه .

والمفارقة أن عامة العرب رسمت صورة عن السلطة العربية مشابهة لصورة أحمد عبد الجواد (سي السيد في ثلاثية نجيب محفوظ) الذي يحل لنفسه اللهو الحرام، ويحرّم على أهل بيته اللهو الحلال . فنشأت حالة من "اغتراب" الفرد العربي عن سلطته، نجم عنها فقدان المعنى أو الهدف من الحياة، فصار معظم الشباب العربي موزعا بين القديم والحديث، سواء نزع قسم منهم إلى السلفية، أو اتجه آخر إلى تقليد الغرب، فكلا الحالين يمثل الاغتراب عن السلطة والمجتمع والذات .

ومحنة نفسية ثقافية وقيمية أخرى يعيشها الشاب العربي، هي أنه يملك تاريخا مجيدا و يحمل في الوقت نفسه صورة سلبية عن ذاته . وبين هاتين الصورتين(الحالين) يعيش حالة مأزقية . فتاريخه يحدثه بالأمجاد فيما حاضره يصفعه بالانكساريات وبما يحاول أن يذلّه . وما يزيد من هذه المحنه أن السلطة في مجتمعاتنا العربية تعمق إحساس الفرد بمشاعر الإحباط، وتمارس آلية "الإسقاط " بأن تتنصل عن مسؤوليتها وترميها على قوى خارجية، فوضعته في حالة نفسية مأزقيه: أما أن يستكين لها و يقبل بالأمر الواقع بأي تخريج نفسي مخفف، واما أن يخاصمها ويبحث عن "سلطة" أخرى، يجد فيها ذاته...ولقد وجدها في "الجامع" و "أهل الفتوى".

فقد التقط بعض أئمة الجوامع من الذين أفتوا بقطع الرؤوس، من التاريخ الإسلامي وفقهه ما يشبع الحاجات النفسية لدى بعض الشباب العرب المتشبعين بثقافة الإحباط والانكسار النفسي، ويحرضّهم على " الجهاد" لتغيير واقع متخم فعلا بالظلم وتخلخل أو انعدام العدالة الاجتماعية وتحلل من قيم يرون فيها الأصالة والهوية،فاحتقنوا بما يثير لديهم غريزة العدوان وشرعية الانتقام . وأهملوا الضفة الأوسع من الدين التي تدعو إلى التسامح والحوار واصلاح الحال بالتي هي احسن، ومتى يكون الجهاد فرضا موجبا. وغيّبت قوى الإصلاح الديني وصارت مهمشة، فكانت فوضى الفتاوى التي انشغل بها الناس الآن بعد أن كانوا منشغلين بالفكر والثقافة والسياسة .

وللحقيقة فأن قطع رؤوس الخصوم وذبحهم ذبح الشاة، ليس جديدا في تاريخنا العربي و الإسلامي .فقد ذبح السلف ابن بنت نبيهم . وما كان الذابحون من عامة الناس . فالذين نحروا رأس الحسين كانوا أبناء صحابة، وجرى المشهد أمام أنظار صحابة أيضا . وطافوا بالرؤوس (الحسين وأصحابه) في أمصار العرب والإسلام .

وقتل معاوية عمر الخزاعي ورفع رأسه على رمح من الموصل حتى دمشق، ثم رموا رأسه في حجر زوجته الرهينة . ورمى هشام بن عبد الملك رأس الإمام زيد بن علي في حجر والدته . ورمي رأس مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في حجر ابنته . ورمى أبو جعفر المنصور رأس إبراهيم أخي النفس الزكية في حجر والده عبد الله بن الحسن . ورمي رأس المعتز بالله في حجر جاريته . ورمي رأس ابن الفرات في حجر والده الوزير قبل ضرب عنق الأخير ...والقائمة طويلة، فحكام العرب والإسلام كانوا يتفردون بحفظ رؤوس الخصوم بخزائن في مقرات إقامتهم !.

ولا يختلف التخريج الفقهي للذبح في ((دين السلطة)) و ((ثقافة العنف)) وفتاوى القائلين بـــ ((حلال الدم)) التي أشاعها السلف عن ذبح الخلف لشباب من الكورد والشيعة في الفلوجة، وذبح عميدة كلية الحقوق وزوجها في الموصل، ومئات مشاهد الذبح الأخرى، التي لا نملك إزاءها سوى موقف الحلاّج (الحسين بن منصور) حين جاءوا به الى منصة الإعدام، فصعد وضحك حتى دمعت عيناه . وشرّ البلية ...أن النابشين في موروثنا الفقهي عن ما يحرق الحاضر، يفتي به ليس فقط بعض من يضع العمامة على رأسه، بل وأكاديميون وقيادات أحزاب يدعون الى العدالة والفضيلة !.

خاتمـــــــــة

نكرر ما بدأنا به :

إن الارهابي لا يولد إرهابيا، إنما نحن الذين صنعناه : الأسرة والمدرسة والجامع والسلطة التي لم تقم العدل بين الناس .

إن مصادر بناء الشخصية (فكرا وسلوكا) المتمثلة بالأسرة والمدرسة " النظام التربوي " والسلطة " النظام السياسي والاجتماعي " ما تزال في العالم العربي دون دورها المطلوب في تكوين العقل العلمي لدى الفرد العربي في معالجة ما يتعرض له من مشكلات ومواجهة تحديات العصر .

- إن الواقع العربي مشحون بالضغوط السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية ، وان الناس الفقراء ومحدودي الثقافة هم الأكثر عرضة لهذه الضغوط ، والأكثر عددا في هذا الواقع ، والأمس حاجة لمعالجتها علميا وعمليا .

- إن مرجعيات الإرشاد القائمة على الوسائل الخرافية في معالجة الأمراض العقلية والاضطرابات النفسية والمشكلات الأسرية والحياتية ، هي الأكثر رواجا وانتشارا في العالم العربي من المرجعيات العلمية في الإرشاد .

- إن المرجعيات العلمية في الإرشاد العربي تتطور ببطء ، ولا تحظى بالدعم المادي المطلوب من مؤسسات الدولة أو القطاع الخاص . وأنه من دون هذا فان مرجعيات الإرشاد القائمة على التفكير الخرافي ستتوسع وتنتشر أكثر بين الناس ، وتجعل دور المرجعيات العلمية في الإرشاد ضمن حدود الجامعات والمؤسسات العلمية . وأن الخاسر الوحيد في هذه العملية هو الإنسان العربي ، التي تفضي الى أن يبقى العالم العربي متخلفا لدهر قادم قد يطول .

وفي أدبنا العربي قول بليغ :

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

وفي الإنجيل أيضا مقولة بليغة :

" **إذا فسد الملح فبماذا نملّح ؟!** "

وعـــــى المجتمـــــع والإرهـــــاب: (فـــراغ جاهـــز للتفجـــر) *

أ.د يحيـى الرخـاوي – الطـب النفسـي – القاهـرة، مصـر

yehiarakhawy@yahoo.com – www.rakhawy.org

لكى يقتل إنسانا شاب إنسانا آخرا لا يعرفه أصلا، لابد أن تتوفر ثلاثة شروط على الأقل (ربما فى طبقة أعمق من مستويات وعيه)، **أولا:** أن يعتبر أن ضحيته ليست من نوعه (النوع البشرى "الخاص!") **ثانيا:** أن يكون القتيل شخصيا (أو بما يمثله)، مهدِّدا لوجود هذا الصبى القاتل (هو أو من يمثله) **ثالثا:** ألا تكون أمام هذا الصبى (أو الصبية) وسيلة أخرى للتعبير عن رعبه من الهلاك من جهة، وحرصه على الحفاظ على بقائه (أو بقاء نوعه الخاص) من جهة أخرى.

فى دراسات العدوان عند الإنسان (بما فى ذلك الحروب الحديثة تحت أى عنوان) تعجب الدارسون مما تميز به عدوان البشر على بعضهم البعض دون سائر الأحياء، ذلك لان النوع البشرى هو النوع الوحيد الذى يقتل بنى جنسه لأسباب غير بقائية أو غير تطورية يستوى فى ذلك السيد دبليو بوش وهو يفخر بفاعلية قنابله الذكية، أو بؤساء شبابنا وهم يفجرون أنفسهم فى الأزهر أو السيدة عائشة أو من أعلى كوبرى 6 أكتوبر. لا نريد أن نعمم القضية حتى لا تضيع ملامحها أو نتخلى عن مسؤوليتنا؟ دعونا نتساءل: كيف وفرنا لهؤلاء الصبية هذه الشروط الثلاثة حتى حدث ما حدث وما سوف يحدث؟

فى محاولة التقليل من الفزع من الأحداث الإخيرة، وفى نفس الوقت الاعتذار عنها، وربما تبريرها ارتفعت الأصوات تحجم آثارها وتقلل من دلالة الذى جري، وهى تصف الحادثة بأنها: فردية، عائلية عشوائية، هذه الصفات الثلاثة هى هى التى تنبه إلى خطورة دلالة ما حدث، لأنها تؤكد كيف أنها النتاج "الطبيعى" لمناخ عام أفرزها، برغم أنها لم تصل فى تواترها وتكرارها إلى ما يسمى الظاهرة. إن جذور ما نسميه التطرف فالإرهاب تمتد أساسا إلى بداية التعصب الذى يفصل فئة بذاتها عن جموع البشر وهى (هذه الفئة أو الفرقة) موهومة بالتميز أو التفوق أو التفرد، ناهيك عن احتكار الحقيقة، فالجنة، مرورا بالوصاية على رحمة الله سبحانه وتعالى.

أساتذتـــى المرضـــى

أبدأ من البداية: من منطلق حرفى أساسا: علمنى مرضاى أننى لا يمكن أن أحترم موقفهم إلا إذا وضعت نفسى موضعهم، وهو موضع صعب بحق، إذ كيف يمكن – مثلا – أن أتقمص من يعتقد أنه ربنا سبحانه؟ لكن من يريد أن يتعاطى هذه المهنة بجدية مسؤولة؟ عليه أن يحاول كل ما هو صعب احتراما لمرضاه، آملا فى شفائهم مهما كان الثمن، من هذا المنطلق، ودون قصد واع، وجدتنى أمارس نفس النهج مع الأسوياء، وقد يظن القارئ أنها مسألة أسهل، لا، أبدا، فكثيرا ما أوقعنى ذلك فى الحرج، مع نفسى غالبا، ومع غيرى أحيانا، ثم من أين لى أن أزعم أننى نجحت فى تقمصهم مع احتمال أننى لا أفعل إلا أن أسقط عليهم تصورى عنهم؟

أدت بى هذه المراجعة إلى رفض فتعرية ما يزعمه أغلبنا من ادعاء قبول الآخر، وقد كتبت فى ذلك مرارا منبها إلى ضرورة التفرقة بين الأساليب السطحية لما نسميه قبول الآخر (مثل (1) التفويت المبتسم و (2) التحمل الظاهرى و (3) التأجيل المناور و(4) الإنكار النعامي، وغيرها)، وبين عمق جدل وعى بشرى بذاته مع وعى بشرى آخر (لا مجرد الحوار والمناقشات). إن التمثيليات التى نقوم بها على صفحات الصحف، وفى ندوات حوارات الأديان، وأحيانا حوار الحضارات أو الثقافات، قد تكون مسؤولة بشكل أو بآخر عن مزيد من نفى الآخر وليس قبوله، إننا لا نستطيع أن نضحك على الوعى البشرى الأعمق من خلال تسويق كلمات حسنة النية ظاهرة الطيبة. علينا أن نتعرف بهدوء عن الفرق بين هذه النشاطات المعلنة، والخطب الرنانة وبين ما يجرى فى حصص الدين،

وداخل دور العبادة، ثم فى التجمعات الأصولية الأكثر عمى وحماسة، هو فرق شاسع. هذا الفرق هو مسؤول عن حالة النفاق التى وصلنا إليها، والتى تصل إلى عمق وعى أولادنا فلا يعودون يصدقونا، ثم هم يتمادون فيما وصل إليهم من داخلنا حتى يلغون كل من ليس مثلهم (مثلنا) بما يترتب عليه من رعب من "الآخر" المختلف، وكأنه نوع آخر من الأحياء يهدد نوعي، وليس فقط فرقتي، ومن ثم تقفز ضرورة التخلص من هذا "الشيء" الغريب الذى أصبح – بإلغائه – خطرا على بقائي، نتخلص منه فرادى (بالإرهاب) أو جماعات (بالحروب).

إبنـــى الكاتـــب، وطفلـــى العابـــث

هل يمكن أن نتصارح بحق ونحن نغوص فى جوهر المسألة لعلنا نتعرف على جذور عمق تعصبنا "الطبيعى"؟، لعلنا نقبله ثم نحترمه، ثم نفهمه، ثم نروضه، ثم ننمو من خلال ما يمكن أن يكون؟

أبدأ هنا من موقف شخصى، اقتداء بابنى محمد يحيى الرخاوى فيما نشره فى مجلة سطور مايو 2005، ليس فقط لإقرارى ما قال، وهو فى نفس الموضوع، ولكن أيضا فى محاولة التعرف على كيف وصله ما وصله من أب مثلى، ويا ترى هل وصل لإخوته مثل ذلك، كل بطريقته، وكيف نجحنا: أمه وأنا والمجتمع الصغير المحيط بنا أن نقلل مما كان

يمكن أن ينتهى إليه من تعصب أو انغلاق. لا شك أننى عايشت هـذه المشكلة التربوية بتحد حقيقى ليس بصفتى الحرفية أو الأكاديمية، وإنمـا بصفتى أبا مسؤولا مع أمهم لا أكثر، ربما من هنا جاءت فرحتى بمقـال محمد حتى استلهمته فى كتابتى ما أكتب الآن.

حين كنت أسافر للخارج، وخاصة فى بلد لا أعرف لغتها أصلا (أسبانيا مثلا، أو إيطاليا) كنت أقف مشدوها أمام هؤلاء الناس الظرفاء، أو غير ذلك، وأتعجب كيف يفهمون بعضهم البعض بهذه السهولة مع أنى لا أفهم حرفا مما ينطقونه، قلت لنفسى: حتى الأطفال هناك يفهمون أيضا هذه اللغة الصعبة جدا، بدا لى هذا التساؤل غريبا لشخص يعمل مدرسا بالجامعة فى الطب النفسي، وممارسا يوميا لنفس التخصص، ثم إننى كنت فى منتصف العقد الرابع من عمرى. قدرت من هذه الدهشة الحقيقية أن طفلى بداخلى ما زال نشطا قادرا على مثل هذا التساؤل، وفى نوبة من نوبات هذه الفرحات الصغيرة، حضرنى خليط من الرجز (لا الشعر) تصورت أنه صادر عن هذا الطفل الشقى ولم أتردد فى تسجيله. صور لى خيال هذا الطفل بداخلى ثلة تمارس عكس ما وصلنى من دهشة فرحة، ثلة تحتكر الجنة والحقيقة معا دون تردد، فراح طفلى هذا يردد على لسانهم أغنية راقصة تقول:

"بالسيف حجزنا مقعدنَا بدليل شهادة مولدنا، فالدينُ الأوحد مذهبنا، و"الأخر" وهمٌ وغباءْ".

لعل طفلى كان يتعجب مثلى كيف أن شهادة الميلاد هى التى تسمح لهم – لنا – أن نحجز موقعا فى الجنة دون غيرنا هكذا بمجرد ما يثبته الوالدين فى تلك الشهادة (كما ذكر محمد فى "سطور"). لم يقف أمر عبث هذا الطفل الراجز عند ذلك، بل راح يكمل أن ما يدعم هذا التميز الموهوم، بفضل صدفة ما دونه الوالدان فى شهادة الميلاد، هو الانضمام التلقائى لأسرة تعيش نفس المصادفة، ثم الاحتماء بثلة أكبر فأكبر تعمق نفس الموقف، فمضى طفلى يكمل:

"الثلةُ قالتْ ما قلنَا فتردد فى الصحن المغنَي، وتمايلنا وتوجهنَا: للجنة دون الأعداء"،

ثم لا يقف الأمر عند هذه الثلية الخاصة التى تتباهى بهذا الفخر الأبله، بل يتمادى الأمر إلى التدخل فى الوصاية على رحمة ربنا وجنته يحتلونها دون غيرهم:ولسان حالهم يقول "ما دمتَ مثلى (ولو بالصدفة) سوف آخذك معى إلى جنتنا دونهم"، هذا ما يصل لمثل هؤلاء الصبية من المفسرين سرا وعلانية دون الرجوع إلى رب العالمين، يمضى طفلى العابث فى تعرية هذا الموقف أيضا:

"جاء التنزيل وقال اتبع، فتبعت النص وما أسمع، وتأرجح فى العقل المضجع...إلخ."

.. زودها هذا الطفل الشقى حبتين، لكننى حين تأملت العبارة الأخيرة تعجبت أن المضجع هو الذى يتأرجح داخل العقل، وليس العكس، هل كان يعنى ذلك الطفل بذلك المضجع الذى يترجح تلك السكينة المهددة المزعومة التى نحشرها فى عقول أطفالنا ونحن نوهمهم أنهم الأفضل والأصح، ثم يبدو أن تلك الحركة المترجحة الثابتة فى المحل داخل العقل هى التى تحل محل حركية العقل النامية الخلاقة؟. أظن أن ما أصاب شبابنا خاصة، ومجتمعنا عامة، هو نوع من التراخى العقلى حتى الشلل، يحدث هذا نتيجة لفرط التسليم المسبق من ناحية، ثم استغلالا لفراغ الوعى المتمادى من ناحية أخرى.

عقل الأطفال الصغير البسيط يعمل فى اتجاه صحيح، ونحن، بإصرار غبى خائف نروح نشوه فطرته بما نحشره فيها من مخاوفنا، ثم نذهب نهزه يمينا وشمالا ونحن نهننه بأغنيات الفخر الزائفة، ثم نتفرج عليه مطمئنين لنجاح الخدعة الجماعية. هذا التمهيد والتفريغ والحشر والخداع هو الذى يؤدى إلى شلل التفكير إلا من نمو أفكار طفيلية حشرت حشرا بديلا عن حركية الفطرة.

الشبـــاب الأصغـــــر أقـــل مرونـــــة

علينا ألا نعجب بعد ذلك حين نفاجأ بالفرقعات التى تحدث فى فراغ الوعي/العقل، والتى تتجلى مفعلنة فيما نسميه إرهابا (أو حروبا). لماذا يتزايد هذا الوضع (الفراغ المتفجر) فى شبابنا الأصغر أكثر فأكثر هذه الأيام؟ كيف انتهت الأمور إلى أن تصبح عقول الأصغر أكثر فراغا وأعجز نقدا من الأكبر فالأكبر؟ كثيرا ما يأتى لعيادتى شابات محجبات وأمهاتن سافرات، وهن جميعا فاضلات متدينات كبيرات وصغيرات، لا أميل إلى تفسير ذلك بأن الجيل الجديد أصبح أكثر التزاما وتدينا، بل إنى ألاحظ من واقع الحال أن الأصغر اصبح أقل مرونة، وأبلد تفكيرا، وأخطر فراغا، لا أريد أن أعمم اتهام المحجبات الصغيرات بأنهن أقل تدينا، مع أن ذلك وارد فى ملاحظاتى الإكلينيكية، مثلا: حين أعطى بعض التعليمات (لا الأدعية) فى خطوة من خطوات العلاج المعرفي، وأطلب من الصغيرة المحجبة أن ترددها بعد صلاة الصبح (أو الفجر) وبعد صلاة العشاء، فأفاجأ بأنها غير منتظمة على أداء الفروض، أو أنها لا تؤديها أصلا!! أى والله. لم يعد هناك تناسب طردى حقيقى بين مظهر التدين وبين مدى الالتزام بالعبادات أو ترك المنكر يبدو أن طفلى الراجز قد لاحظ ذلك قبلى إذ مضى – من ورائى – يدندن:

"والمنكر يسرى يتسحب، أستغفر أسهو أستعذب، والغير جهنم فتحسب، لعذاب القبر ونار سقر"

أكتشف سخريته ممن يستعذب المنكر وفى نفس الوقت يخص "الغير" بعذاب القبر ونار سقر.

عودة إلى العيادة مرة أخري: حين تدعو أم مريض عندى لابنها بالشفاء أنبهها باسما أن الأفضل أن تعمم الدعاء أملا فى استجابة أسرع، بأن تضيف لدعائها "هوه واللى زيه" فلا تتردد الأم الأكبر سنا فى فعل ذلك، إلا أن الأصغر سنا يضفن من عندهن "هو والمسلمين"، فأوقفهن متسائلا، و"النصارى بلاش يخفوا"؟ ماذا حدث للأصغر عندنا بالضبط، ماذا فعلنا بهم؟ وكيف الخلاص؟

حين انتبهت لعبث الطفل بداخلي، هذا الراجز الراقص، كنت أمسك بمذياع صغير ترانسستور، وكان إصبعى يعبث بمفاتيحه فأتذكر طريقتى الخاصة فى كسر التعصب والانفتاح على العالم أثناء سفرى للخارج، فيستيقظ فى الشاعر ردا على رجز طفلى قائلا:

" ...غصبا صدفه، لمست إصبعىَ المفتاح فسرَتْ كلمات عجميهُ، تنساب إلى عمق النبضهْ، تنتزعُ السيف من الغمد، تلتهم ظلام الرؤيةْ، يتبين خيْطى من خيطِي، فيطلُ الفجَرُ الأصدق، يجتمع السامرُ من أحباب اللهَ، البيضُ السمر السودُ الحمرْ، البيذقُ والفرزُ ورُخُ الشاهْ".

يبدو أن طفلى قد فرح بهذا الحوار فراح يكمل راقصا معى طالبا منى أن أعيد وكأننا فى حفل طروب، راح يغنى بدوره:

يا فرحى هاتِ من أوّل يا سعدى ما عدتُ الأوحدْ، يا أنسى بالناس الأبعدْ، يا رعيى من رغدٍ مفردْ".

هكذا تكسرت موجة التعصب المتشنج من خلال حوار صامت مع مذياع صغير:"

تنكسرُ الموجة تتفتر، ترتج من طعن مؤشر، تتقدم حور الأرضْ، يرتفع صرير المزلاج، يتراقص سهم الأفق يفتّح وعْىَ المرتجف الأعشي، فيريه العالَ:

رؤية يقظان كالنائم: مذياعا مُلقي، فى حجم الكف، يجمعنا جمعا فى نفس الصف، تمطرنا الرحمة، والواحد ألفْ".

أطمئن إلى نهاية اللحن لصالح هذا الانفتاح فندعو سويا –أنا وطفلى – أنه.

"... يارب الناس، ملك الناس، إله الناس، أحشرنى معهم: كل الناس" يصادق الشاعر فى على ما قلناه فيعلن أنه: "تتفتح أبواب الرحمة دون استئذان: للسمر الصفر البيض السود لكل الألوان: للفيل الأبيض، والسنجاب الأزرق، والإنسان"

البيت بيتك

فى برنامج "البيت بيتك" سألنى المذيع الشاب عن التفسير (النفسى لما حدث). أنا عادة أنزعج من هذه الصفة (النفسي) التى تلصق بمعظم الأسئلة التى توجه إليّ، مع احترامى لمبرراتها، وذلك خشية الإسراع بالتشخيص فالتبرير فالنصائح ودمتم، أجبت الإبن السائل بأن المسألة أعقد من أن نعزوها إلى سبب بذاته، أو نفسرها بحالة نفسية محددة، ناهيك عن الإسراع بالتشخيص والتحليل، قلت له إن أمى كانت تعلمنا أن ننظر فى الملوخية "البايتة" (دون ثلاجة– لم يكن لدينا مثل هذه الرفاهية آنذاك) لنلاحظ إن كان على سطحها أية فقاعات متفجرة، باعتبار أن هذه الفقاقيع هى دليل فسادها، وكان علينا أن نتجنب الأكل منها حتى تأتى أمى وتشمها، ثم تلقيها عادة بعيدا حرصا على صحتنا. قلت إن هذه الفقاقيع على سطح الملوخية لا نعاملها بأن "نفقعها" الواحدة تلو الأخري، لأنه سوف يظهر غيرها طالما أن الملوخية قد حمضت، كنت أشير بذلك إلى ضرورة الانتباه إلى أن مجتمعنا يسير فى اتجاه تخثر الوعى العام بشكل أو بآخر. الحادث فى هذا المجتمع منذ أكثر من نصف قرن هو متعدد الأبعاد والمستويات بما يشمل: سطحية التعليم، وانفصال الصفوة، وتفاهة الإعلام، وكذب البيانات، وضعف المشاركة فى اتخاذ القرارت، ومن ثم التخلى عن تحمل أى مسؤولية نتيجة أى قرار، أضف إلى ذلك قلة الفرحة الجماعية، واختفاء أغانى العمل، ضمن اختفاء الأغانى الجماعية التلقائية عموما، ثم تمادى الخصام مع الجسد (من أول نفى الرقص الشعبى التلقائى الجماعي، حتى التحفظ على طقوس ذكر الله فى الموالد من خلال حركية الجسد)، يتفاقم الأمر بانتشار القيم السلبية واعتبارها مزايا وشطارة يحسد صاحبها عليها فيتسارع تخثر الوعى الجماعى وقد الهبوا تكاثره بسماد القيم الفاسدة من الغش فى المدارس حتى الرشوة فى المصالح حتى الوصول الملتبس إلى المراكز حتى استغلال المواقع الرسمية للمصالح الشخصية والشللية.

المصائـــــب الثـــلاث

يمكن أن نضع كل ذلك نتيجة لمصائب ثلاثة هي:(1) سوء التربية و (2) فساد التعليم و (3) تمييع السياسة.

أما التربية: التى هى أساسا مهمة الأسرة والمجتمع الأصغر فالأوسع، فقد تراجع الاهتمام بها حتى صار ناتج نمو أطفالنا مرهون بالستر والصدفة.

أما التعليم كما يجرى عندنا – فى عمق واقعه وبرغم الأرقام والتصريحات – فقد أصبح أضر على العقل البشرى من قلته. فى البرنامج المشار إليه سالفا، نبه فضيلة المفتى السابق د. نصر فريد إلى أن الوقاية من مثل هذه الأحداث هى تعليم الدين تعليما صحيحا، ومع اتفاقى معه على ذلك من حيث المبدأ، إلا أننى أصررت على أن إطلاق التفكير (أو ما أسميته تعليم أطفالنا طريقة التفكير) هو فى نفس الأهمية أو أهم وأضمن، لأن التفكير السليم هو الذى سيوصل إلى الدين السليم، فالإيمان ليس إلا النتاج الطبيعى لطلاقة الفطرة وسلامة التفكير، أما تعليم الدين الجاهز من خلال التفسيرات الثابتة دون استلهام الوحى الإلهى المتجدد، فهذا أمر يحتاج إلى فحص دقيق، ومتابعة ملاحقة لنعرف ماذا نفعل بما نتصوره دينا. فى العقل البشري، كما خلقه الله، إذ نحشر فيه ما لم ينزله سبحانه، وإنما نملأه بنتيجة ما تمليه علينا مخاوفنا ومحدودية اجتهادنا.

أما عن تمييع السياسة فأعيد ما جاء فى نفس البرنامج حين أشار الصحفى النابه الأستاذ عادل حمودة إلى أن الفراغ الذى يعيش فيه الشباب يمكن أن يُملأ بمزيد من السماح بالممارسات السياسية من خلال الحزب الوطنى أو حزب الوفد كأمثلة، وإذا بى أرد عليه تلقائيا ونحن على الهواء: "مش لما يبقى فيه حاجة اسمها الحزب الوطنى أو حزب الوفد أصلا"، لينتهى البرنامج بقول المذيع المهذب "ما احنا كنا ماشيين كويسين"، احترمته، واحترمت مساحة الحرية التى تبادلنا فيها هذا الحوار علانية، وقلت فى نفسي: لعلها بداية طيبة.

ممارسة السياسة التى يمكن أن تملأ وعى الشباب لا تتأتى من خلال الحزب الوطنى بكل ضخامة هيكله التنظيمي، ولا من خلال حزب الوفد بكل تاريخه وتراثه الذى يتمثل فى صحيفة خضراء ونوايا حسنة، إن كنت تريد أن تقيس كيف تملأ السياسة وعى الشباب لتغنيهم عن ممارسة الإرهاب فابحث عنها فى المقاهي، والجلسات الخاصة، والنوادي، والمدارس والجامعات، قبل أن تدعى رصدها أمام صناديق الانتخاب المشبوهة. السياسة التى تمارس بين شبابنا الآن – نتيجة عدم وجود شارع سياسى حقيقى – هى التى تمارس فى المساجد واجتماعات الجماعات المحظورة، وكلاهما بديل يغذى الفراغ لا يملؤه.

فــــراغ مثلـــــــــوج

لابد أن أعتذر عن هذه النظرة التى تبدو متشائمة تماما، مع أنها ليست كذلك من وجهة نظرى لأنها مجرد بداية حتمية ونحن نحاول أن نجيب عن سبب ظهور تلك الفقاقيع على سطح وعى مجتمعنا المتخثر وهو على وشك الفساد والتعفن. أقر وأعترف أننى برغم كل ذلك قادر على الاحتفاظ بالأمل، وأيضا بدليل كتابة ونشر هذا المقال، وما جرى فى ذلك البرنامج على الهواء، فلنواصل الإصرار والمحاولة مهما طال الزمن.

يمكن وصف ما آل إليه حال الشباب خاصة، والمجتمع عامة بأنه "فراغ مثلوج جاهز للتفجر"، وبالتالى فإن علينا أن نجتهد فى اتجاه أن نعرف كيف نملأ هذا الفراغ، وكيف نقترب منهم فى إحاطة دافئة، واحترام مسؤول، فى محاولة لإذابة الثلوج التى جمّدت تفكيرهم دون أن تحفظ وعيهم من التخثر، ولكن بالله عليكم كيف يمكن أن نفكر فى ذلك، أو حتى نأمل فيه، ونحن – الكبار – لا نتمتع به أصلا؟

أيـــن الوعـــى الخاشـــع

اضطررت مؤخرا أن أضع بين الأسئلة الروتينية التى أسألها للمريض وأهله فى عيادتى سؤالا عن عدد الساعات التى يفتح فيها إذاعة القرآن الكريم، أفعل ذلك حتى لو كانت حالته ليس لها علاقة بذلك، وفى كثير من الحالات ينبرى الأهل فخورين بأنها مفتوحة طول النهار والليل، جنبا إلى جنب مع الشرائط الدينية لملأ ما يفيض من وقت بين فقرات إذاعة القرآن الكريم، أنبه المريض والأهل إلى أن للقرآن الكريم حضوره فى الوعى البشرى بشكل متميز، وهو حضور يتطلب مسؤولية خطيرة من ناحية، كما قد يستجلب استلهاما مبدعا من ناحية أخري، وأضيف شارحا ما وصلنى من معنى "الإنصات والاستماع" الذى أمرنا به ونحن نسمعه، وأذكـــــر مريضى وأهله بالآيتين الكريمتين

"**إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا**" ثم "**لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله**"– شارحا أن تكرار الأصوات دون إنصات، فى خلفية الوعى بشكل راتب هكذا، قد يهمِّش كلام الله سبحانه ونحن لا نتصدع به من خشيته، وفى نفس الوقت هو يخدر الوعى بشكل يجعله عرضة لتفريخ ما يلقى فيه دون نقد، وحتى أضبط جرعة تعليماتى

ولا يساء فهمى أطلب من الشاب (أو المريض عامة) أن يقرأ بنفسه ربع حزب يوما بعد يوم، لا أكثر ولا أقل، وأن يستمع كل صباح لربع ساعة تلاوة مصحف مجود (ليس مرتلا)، وأن يتحمل مسؤولية هذا وذاك مباشرة دون اللجوء إلى تفسير من خارجه، لعله يستلهم ما وصله بما يعينه فى تحريك عقله دون الاستسلام لأرجوحة السكينة التى حشروها فيه بديلا عن حركيته الفطرية، ثم لعله يجد بعد ذلك، ومن خلال ذلك، الوقت الذى يعمر فيه وبه نفسه وأرض الله والناس جميعا.

إن لجوء الأسر والشباب لسوء استعمال مثل هذه التلاوة المستمرة بأقل قدر من المسؤولية والاستلهام إنما يسمّد وعى الشاب بشكل سخى قادر على إنبات أى بذرة عابرة مناسبة تلقى فيه، فتكون النتيجة أن أى بذرة طائرة فى جو ملوث سرعان ما تنبت بسرعة، ثم تتفرع مثل النبات الطفيلى والحشائش لتحتل كل المساحة القادرة على التفكير السليم نحو الحق سبحانه وتعالى.

ما لا ينبغـــــــى

قبل إنهاء المقال الذى لا يمكن أن ينتهي، لابد من التنبيه إلى أن ندرة من شبابنا يلجأ إلى حل آخر على أقصى الطرف الآخر، وذلك حين يتجه إلى ملء فراغ وعيه بطفيلات أخرى لا سبيل هنا الآن إلى تفصيل أضراها ومخاطرها، ألا وهى المخدرات و"الصياعة"، وهى حلول ليست أقل سلبية، وإن كانت ما زالت محدودة، ومكلفة عادة. ثم إننى لاحظت سهولة الانتقال من غيبوبة المخدرات إلى خدر التدين السطحى بشكل زائف وخطير عند نفس الشخص دون أن أجد فروقا كثيرة.

لا مجال فى هذه العجالة أن أطرح حلا عمليا قابلا للتطبيق الفوري، فالأمر يحتاج إلى تغيير جذرى فى كل شيء تقريبا بدءا من التربية والتعليم منتهيا إلى تنمية الفطرة السليمة كما خلقها الله حتى تتوجه بالاستلهام والإبداع، وليس بالتبعية أو التشنج، وهى تكدح إلى ربها كدحا لتلاقيه، إن ما وجدنا أنفسنا فيه من ديانة معينة – عادة بالمصادفة – هى بداية مفيدة ولازمة، يدعمها ما نمارسه من عبادات والتزام، وهو أمر ضام وموجـــــه، لانها جميعا تمثل القاعدة التى يمكن أن تتشكل فوقها المسيرة المبدعة إلى وجه الحق سبحانه وتعالى.

ليس عندى حل جاهز ولا أميل إلى تقديم نصائح خطابية، ولا حتى توصيات للسلطة التى لا يعنيها إلا ما يعنيها. كل ما أستطيع أن أنبه إليه فى نهاية هذا المقال هو ما ينبغى تجنبه حالا، انتظارا لمزيد من الاجتهاد والإبداع والعمل، لعلنا نصل إلى بعض ما ينبغى عمله على أرض الواقع.

أولا: علينا أن نتجنب ادعاء قبول الآخر فى حين أننا لا نفعل ذلك حقيقة وفعلا، بل إننا فى داخل داخلنا ننوب عن الله سبحانه فى إدخال بعضنا بعضا النار على العمال على البطال، بوعى أو بغير وعي، فى الوقت الذى نواصل فيه الحوار حول الموائد المستديرة (ويمكن سؤال البابا الجديد فى ذلك!!)

ثانيا: علينا أن نفهم أن قبول الآخر ليس دعوة للتخلى عن موقعى أو موقفى الذى وجدت نفسى فيه بصدفة الميلاد، ليس فقط خوفا من أن أتخلى أنا، ثم لا يفعل " الآخر" مثلى سرا أو علانية خاصة (ونحن ما زلنا نذكر لعبة أبى موسى الأشعرى وعمرو بن العاص)، إن القبول الحقيقى للآخر يبدأ بالتمسك بما أنا فيه احتراما وبداية سعيا للتعلم مما "غيرى" فيه، مع الاعتراف أن كلينا قد وجد نفسه فيما هو فيه بمحض الصدفة، هذا الاحترام لا ينبغى أن يأخذ شكل المجاملة أو التفويت أو التجاهل أو الإنكار، وإنما شكل التقدير ومحاولة الفهم من موقع ذلك الآخر حقيقة وفعلا (ما أمكن ذلك)

ثالثا: ليس المطلوب هو أن نخفى رأسنا فى الرمال بنفى صفتنا الدينية فى أوراقنا الرسمية ونحن نتصنع ممارسة السماح والموضوعية، إن إعلان لونك وأصلك ودينك تحديدا هو البداية الأشرف لتحديد علاقتك بهذا الذى أعلـــن بدوره مثلما أعلنت، إنها نقطة البداية الحقيقة لاحتمال جدل بناء على كل المستويات، أما أن نترك الأمر للحدس والتجسس وفحص الاسم (أصبح اسم "محمد" لا يمر بسهولة على وعى أى ضابط جوازات أمريكي) فهذا اخبث ادعاء وأغبى تصنعا.

رابعا: علينا أن نعيد فحص شعارات طالما فرحنا بترديدها ردحا من الزمن. قد تكون هذه الشعارات قد أدت دورها حين أطلقت، لكن ثم احتمال أن يكون عمرها الافتراضى قد انتهى. خذ مثلا شعار "الدين لله والوطن للجميع"، هو شعار براق، يقال وكأنه أنهى المسألة بخبطة مزدوجة، لكننى عندما رحت أتأمله تعجبت، أظن أنه حين ظهر كان يعنى إزاحة السلطة الدينية لتختص بشؤون الدين الذى يحاسبنا عليه الله، فبالتالى يكون تعبير الدين لله مشيرا إلى أن حساب كل واحد على الله ومزيحا لتدخل السلطة الدينية فى شؤون إدارة الوطن الذى هو ملك الجميع، إن صح هذا التفسير الإيجابى فى حينه، أو كما توحى به ظاهر الألفاظ، فهو لم يعد كذلك بعد الفحص (فحصى أنا على الأقل). وإليكم النقد والبديل:

إن الدين هو للناس المتوجهين إلى الحق تعالي، والوطن هو لله بالمعنى الأشمل بعيدا عن السلطة الدينية لأنها ليست وكيلة عن الحق سبحانه، إن كل ما خلقه الله هو لله بمعنى التأكيد على مسيرة التطور بلا نهاية، نحوه جل شأنه، ومن ثم يكون الوطن وناس الوطن (الجميع) هم لله أيضا (بما فيهم من ينكرونه سبحانه).

إن البديل لهذه المقولة حسنة السمعة هو أن الدين هو للجميع على اختلاف أديانهم لأنه طريق إيمانهم، وأن الوطن هو ومن عليه، هو لله سعيا إلى حق ضام مشترك على المدى الطويل، وإن كنا لا نتبين نهايته الأن، هذا حقنا جميعا دون تدخل من أى سلطة دينية أو مدنية .

خامسا: علينا ألا نرضى بالاستسلام لزعم نجاح فصل الدين عن الدولة دون الانتباه إلى ما يجرى داخل نفوس البشر (الناخبين) من ناحية، وبين فرق المشاركين سرا وعلانية فى مطبخ الانتخابات (أى انتخابات على مستوى العالم) حيث تتضمن هذه الفرق عددا بلا حصر من رجال الدين والطوائف ووكلائهم ولا مؤاخذة يبيعون للمرشح أصوات المتدينين مقابل المواقفة على نشاطهم المغترب والمغرور وتعزيزه ضد المخالفين، يتم ذلك سرا وعلانية، واسألوا السيد دبليو بوش. إن القول بأن الدين أمر شخصى بحت هو فى ذاته تأكيد أنه يتدخل فى السياسة من الباب الخلفى لأن الناخب هو "شخصى بحت" (أليس كذلك؟).

بدايـــــة متواضعـــــة

فإذا كنت قد نبهت على بعض ما ينبغى تجنبه، وإعادةالنظر فيه فإنى أرى أن المقال لم يعد يحتمل أن أطرح ما الذى يمكن عمله، وبصراحة هى فرصة هروبية لأننى لا أعرف نقطا محددة يمكن تطبيقها الآن فورا، أخشى أن استسلم لنظرة سوداء تعلن أننا أصبحنا نعيش فى مجتمع لا هو منتج ولا هو مبدع، وأن كل المطروح هو بيانات وخطب ووعود وبعض الخدمات والعلاوات فى مناسبات الاحتقان السياسى وقبيل الانتخابات، وأنه فى مناخ مثل هذا سوف يزداد وعى المجتمع عرضة للتخثر، ومن ثم سوف تزداد فقاقيع الإرهاب – فرادى وجماعات – وهى قادرة على الظهور على سطحه فى أشكال مختلفة مهما حاولنا فقعها الواحدة تلو الأخرى ما دام الطبيخ أصبح حامضا وهكذا.

لا يمكن أن أنهى المقال بهذه الصورة وأنا أعتبر نفسى متفائلا متألما عنيدا طول الوقت، لهذا سوف ألجأ إلى بعض ما أمارسه مع مرضاى مما يسمى علاج معرفي، استلهمه من طفلى الراجز، ووعيى الشاعر معا (أنظر أول المقال)، فأعرض على القارئ ما يلي:

عـــــــلاج معرفـــــــى

عزيزى القارئ،

من فضلك: أمسك بمذياعك الصغير (يا حبذا الترانسستور فى حجم الكف) وأدر مفتاحه ببطء أنت وابنك أو ابنتك، واجعل أمهما الطيبة تشترك معك، وكلما وقفت عند رطان لا تفهمه قادم من موقع ما من العالم الواسع، إسأل نفسك قبل أن يسألك ابنك: هل صاحب هذا الصوت سوف يدخل النار إن لم ينضم إلى دينك، حتى لو علم عنه (عن دينك) الكفاية؟ ثم اسأل ابنك واستمع لرده شرط ألا ينسب رده هذا إلى مرجعية سمعها من رجل دين هاو أو محترف. راجع إجاباتك بهدوء: وأضف إلى كل إجابة " بأمارة إيه؟"

إفعل ذلك، دون الرجوع إلى من أفتاك بغير ذلك.

دعونا نشرح توضيحا لجدوى هذا العلاج هكذا: لو أن حسن بشندى مثلا سأل نفسه وهو يستعد لدخول الجنة إن كانت ضحيته فى الأزهر ستذهب معه إليها أم لا؟ فهل كان سيواصل فعلته كما فعلها؟ ربما جاءته الإجابة تبرر فعلته من فتوى سمعها من شيخ جماعته، أو من إذاعة متشنجة، أو حتى من مفتى رسمي، لكنه لو كان مارس هذا التساؤل صغيرا كما عرضته حالا فى التدريب المعرفى سالف الذكر، فربما كان انتبه إلى الآية الكريمة التى تؤكد أنه شخصيا مسؤول طول الوقت أمام الله سبحانه عما يصله من فتاوى أيا كان مصدرها، هذا إذا كان قد أعطى نفسه الفرصة ليفهم بنفسه، أو يستلهم بوعيه، ما ينتظره من كل من أفتوا بما يخالف الفطرة والمنطق السليم.

" إذ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ أتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذَابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ .. وَقَالَ الَّذِينَ أتُّبِعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا"

صدق الله العظيم

مجلة الهلال - يونيو -2005

Arabpsynet Psychologist Guide

Send your Scientific CV via CV FORM

www.arabpsynet.com/cv/CV.htm

Arabpsynet Psychiatrist Guide

Send your Scientific CV via CV FORM

www.arabpsynet.com/cv/CV.htm

دليل الكتـــب النفسية العربية

الإصدار العربي

www.arabpsynet.com/HomePage/Psy-books.Ar.htm

Arabpsynet Books Guide

English Edition

www.arabpsynet.com/HomePage/Psy-books.htm

التطـرف و الإنحـــــراف... مقاربــــة نفسيـــــة – اجتماعيـــة

عوامل الفعل الانحرافي ذي الدافع الإسلامي في الجزائر*

أ.د. بوفولـــــة بوخميـــــس علـــم النفـــس – عنابـــة الجزائـــــر

boufoulab@yahoo.fr

ملاحظـــــة: أجريت هذه الدراسة في إطار بحث تحت إشراف مركز البحث الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (crasc) تحت عنوان: عوامل الفعل الانحرافي ذي الدافع الإسلامي في الجزائر"جويلية 2004/2002

المـحـتـوى:

1 النظريات الاجتماعية :
1-1 نظرية دوركايم.
1-2 نظرية بارسونز.
1-3 نظرية مرتون.
1-4 نظرية "كلوارد" و "أوهلن".
1-5 نظرية ماركس.
1-6 نظرية بارك (Park).
1-7 نظرية الاغتراب.
2- النظريات النفسية.
2-1 النظرية التحليلية
2-2 نظرية الإحباط و الحرمان
2-3 نظرية السلوكية.
3- النظريات السياسية و التاريخية.
3-1 النظرية الشرقية (النظرية الإسلامية).
3-2 النظرية الغربية (نظرية الحرمان السياسي)
- إستنتـــــاج.
- هوامـش و مراجـــع

إختلف التفكير في الانحراف لإختلاف تخصص و مشارب المنظرين له و قد حاول الباحث في هذا الفصل التطرق إلى ثلاث أنواع من النظريات المفسرة للانحراف و هي :

1. النظريـــــات الإجتماعيـــــة

1.1. نظريـــة دوركايــم

يعد دوركايم من علماء الإجتماع القلائل الذين إهتموا بالإنحراف و الجريمة، فقد أجرى أول دراسة علمية لظاهرة الإنتحار سنة 1897 م، و فسر الإنتحار خاصة و الإنحراف عامة بوجود ما يعرف بالأنوميا أو إنعدام المعايير(ANOMIE).

يرى دوركايم أن تفكك البناء المعياري و ضعف قوة الضبط يعرض سلوك الأفراد إلى الفوضى و خروجهم عن المعايير المقبولة في المجتمع مما يعرضهم إلى الإنحراف و التطرف. إن إستقرار العلاقات الإجتماعية يقوم على وجود بناء معياري مرتبط بالسلوك، بحيث يكون هناك قبول و إتفاق جماعي على هذا البناء.

أثناء الأنوميا يفقد الإنسان إحساسه بالأمن (على مستوى الوسائل و الأحداث في آن واحد)، فالشخص السوي عند دوركايم هو الشخص الأخلاقي أي الذي يدمج العناصر المعيارية و يتقمصها، حيث تتبع طاعته للقواعد المعيارية من عنصري الرغبة و الرهبة معا، فحسب دوركايم دائما يجد الفرد من طاعته للمعايير الإجتماعية سعادة و تحقيق للذات، و هكذا فالنظام الأنومي يقابله النظام الأخلاقي، فالأول متفكك و الثاني منضبط.

إن المجتمع يمارس ضغطا على أفراده الذين يملكون طموحا كبيرا، إن الإنحراف حسب دوركايم ظاهرة سوية، و هو مرتبط بالمجتمع و ثقافته، و الإنحراف لا معنى له إلا إذا قورب داخل المجتمع و الثقافة الحاصل فيهما.

تلعب الثقافة دورا كبيرا في تحديد صحة أو خطأ سلوك الأفراد، يقول دوركايم : " لا توجد مجتمعات بلا إجرام متطور نـسبيا، و لا يوجد شعب لا تنتهك الأخلاق فيه يوميا، إن الجريمة شيء ضروري و يستحيل أن تكون غائبة، إن الظروف الأساسية للتنظيم الإجتماعي تؤدي منطقيا إلى الجريمة ".

إن الأنوميا كلمة منحوتة أصلها كلمتين (ألف) و هي سابقة تعني إنعدام الشيء، و (نوميا) تعني غياب الكلمة، و لقد أخذ علماء الإجتماع هذا المصطلح و إستعملوه بمعنى آخر و هو الحالة الإجتماعية التي تتميز بغياب المعايير.

يرى دوركايم أن الإنسان لا يستطيع أن يتوافق مع نفسه و الآخرين إلا إذا توافقت حاجاته مع وسائله.

2.1 نظريـــة بارسونـــز

ينتمي عالم الإجتماع بارسونز إلى المدرسة الوظيفية التي تقوم على مسلمة مفادها "أن التوازن و الإستقرار هما الأساس في المجتمع و أن إفتقادهما هو الإستثناء ".

يري بارسونز أن الحركات المتطرفة تظهر نتيجة عدم التوازن و عدم الإستقرار في المجتمع، كما تظهر بسبب فشل و تعثر النظم السياسية في

مواجهة المشكلات الإجتماعية و الإقتصادية، إن الحركات الإجتماعية المتطرفة هي وليدة التغيرات التي تراكمت في مجتمع معين أصبحت قيمه و معاييره لا تشبع حاجات أفراده.

حدد بارسونز أربع شروط لظهور الحركات الإجتماعية المتطرفة :

- وجود عوامل تدفع إلى الإغتراب لدى الأفراد، أي إحساس الأفراد بأن النظام الإجتماعي الذي يعيشون فيه أصبح بحاجة إلى تغيير، فهؤلاء الأفراد يعانون من مشاكل عديدة كالبطالة و الفقر و الظلم ....إلخ.
- ظهور و تكون جماعة ذات ثقافة فرعية و منحرفة، حيث نجد أن هذه الجماعة منتظمة في نشاطاتها تحت قيادة زعيم أو قائد كفئ.
- إعتماد هذه الجماعة الفرعية على إيديولوجية أو مذهب ديني يمكنها من إكتساب الشرعية عند عامة الناس.
- وجود مشاكل إجتماعية و إقتصادية فشلت النظم السياسية في حلها.

كما تطرق أيضا بارسونز إلى الأنوميا التي تنشأ في المجتمع من " عوامل موقفية كالتغير التكنولوجي و الحراك و التمثيل العرقي في علاقة مباشرة ضعيفة نسبيا للأنماط الإيديولجية التبريرية "، يعرف بارسونز الأنوميا على أنها غياب التكاملية البنائية لعملية التفاعل أو الإنهيار التام للنظام المعياري، كما يشير إلى مفهوم الإغتراب في مقال له بعنوان "النسق الإجتماعي" و قد نشره في دائرة المعارف العالمية (1968) لما تطرق إلى التكامل و التوافق بين بناء الشخصية و بناء النسق الإجتماعي من خلال قيام الأفراد بأدوارهم الإجتماعية التي تشير إلى سلوك الفاعل في علاقته مع الآخرين.

3.1. نظريـــــة مرتـــــون :

يعد مرتون من علماء الإجتماع الأمريكيين الذين إهتموا و طوروا نظرية دوركايم الإجتماعية و خاصة مفهوم الأنوميا، يتضمن مفهوم مرتون للأنوميا عنصرين أساسين :

- الصراع بين المعايير الإجتماعية التي ينبغي على الفرد أن يلتزم بها في أداءه لدوره الإجتماعي أثناء سعيه لتحقيق الأهداف التي تقف على قمة التدرج القيمي في المجتمع.
- عدم كفاية الوسائل المتوفرة و المسموح بها و المشروعة لبلوغ تلك الأهداف.

إن وجود أهداف و وسائل غير متوافقة يؤدي إلى ظهور حالة الأنوميا، بحيث يخرج بعض الأفراد عن المعايير و القواعد الأخلاقية والإجتماعية السائدة في مجتمعهم.

كما يتطرق مرتون إلى مختلف ردود الأفعال التي يقوم بها الفرد لما يعيش في مجتمع أنومي، و حسبه هناك خمس تصرفات ممكنة و هي كلها منحرفة إلا نموذج واحد و هو سوي و هي كالآتي :

السلوك	الأهداف	الوسائل	الحكم
الإمتثالية	قبول	قبول	سوي
التجديد	قبول	**رفض**	منحرف
الإنطواء	**رفض**	رفض	**منحرف**
التمرد	رفض	رفض مع تغيير	منحرف
الطقوسية	رفض	قبول	منحرف

و يلاحظ من الجدول أن جل تصرفات الأفراد في المجتمع الأنومي هي تصرفات منحرفة و لعل أكثرها إنحرفا هو ما يعرف بالتمرد، حيث نجد الأفراد في هذه الحالة يرفضون أهداف ثقافتهم كما يرفضون وسائل تحقيقها، و هم لا يتوقفون عند هذا بل يعملون جاهدين لتغيير هذه الأنظمة الإجتماعية، و هؤلاء المتمردون يسمونهم أيضا المغتربون.

إن الفرضية الأساسية في نظرية مرتون في الأنوميا هي أن السلوك المنحرف يعتبر من وجهة نظر إجتماعية تدليل على عدم الإنسجام بين الطموحات و الوسائل الضرورية لتحقيقها، يرى مرتون أن الطبقة الإجتماعية الدنيا هي التي يقع على عاتقها الضغط الإجتماعي الأكبر، و هكذا يربط مرتون بين الأنوميا و البناء الطبقي.

و يتخذ مرتون نفس وجهة نظر ماركس حول الطبقة المعرضة أكثر للإنحراف و هي الطبقة الدنيا أما دوركايم فيرى أن الطبقة الغنية هي التي تتعرض أكثر للإنحراف.

4.1. نظريـــــة "كلوارد" و"أوهلـــــن"(CLOWARD & OHLIN)

يتخذ هذان العالمان وجهة نظر إقتصادية حيث يربطون الإنحراف و التطرف بالطبقات الإجتماعية الدنيا، فقد لاحظ أن بعض المناطق الحضرية تنتج إنحراف أقل من مناطق أخرى، و هذا الإنخفاض في معدلات الإنحراف يعود إلى كون المناطق الأكثر إنحرافا يعيش شبابها في إطار ثقافة فرعية معينة يمكن وصفها بثقافة الجريمة المنظمة، أي أن أنماط السلوك المنحرف يتطلب وجود ظروف و فرص خاصة لحدوثه، و لهذا تسمى هذه النظرية " نظرية بناء الفرصة ".

يعتقد هذان الباحثان أن لا هناك تكافئ في الفرص بل الواقع الإجتماعي يبين أن أفراد المجتمع متمايزين طبقيا و إجتماعيا، و يزداد هذا التناقض بين الطموحات و الفرص كلما انخفض موقع الفرد طبقيا، فأفراد الطبقة الدنيا يجدون صعوبة و عراقيل للصعود إلى الأعلى، و لما توصد أمام الأفراد أبواب النجاح لا يجدون فرصة للتراجع عن طموحاتهم نتيجة الضغط الإجتماعي، فيبرز عندهم إحساس بالاغتراب عن المعايير الاجتماعية فيدفعهم هذا إلى تبني سلوك متطرف و منحرف.

5.1. نظريـــــة ماركـــــس

يرى ماركس أن العنف هو الوسيلة الأساسية للتغيير الإجتماعي، كما يلعب الدين دورا هاما في تحرير الأسرة، إن الحركات الدينية هي عبارة عن ثورات إجتماعية تتمرد على الأوضاع و تساعد على تغييرها.

إن القاعدة النظرية التي تقوم عليها أفكار ماركس هي قاعدة "صراع الطبقات"، أي أن الحراك الإجتماعي ناتج عن الصراع الطبقي بين الطبقة البرجوازية و الطبقة الفقيرة، و يمكن الإستزادة من أفكار كارل ماركس بالرجوع إلى كتابه "رأس المال".

6.1. نظرية بارك PARK

تقوم نظرية بارك على مفهوم الهامشية الإجتماعية (Marginalité sociale)، الذي يطلق على الشخص الذي يعيش و يساهم في حياة و ثقافة شعبين متمايزين، و من جهته يعرفه محمد الجوهري(1991م) : " على أنه الفرد الذي لا يشعر بالإندماج الكامل في المجتمع الذي يعيش فيه ".

و يرى "ستوبكوبست"و "كربكوف" أن الهامشيون مغتربون و عدوانيون، و لقد حدد علماء الإجتماع الأفراد المعرضون للهامشية و هم:

- المراهقون.
- أفراد الطبقة الوسطى.
- أفراد هبطوا سلم التدرج الإجتماعي.
- مهاجرون من قرية إلى مدينة.

و يمتاز الهامشيون حسب ثروة إسحاق بما يلي :

- غير منتمون إلى المجتمع.
- لهم شخصية مضادة للمجتمع.
- يلجؤون إلى التطرف للتعبير عن هامشيتهم و عن فقدان دورهم في المجتمع.
- اللجوء إلى الدين لتحقيق إشباع إنفعالي.

7.1. نظريـــــــــة الإغتـــــــراب

1.7.1. تعريفـــــه : الإغتراب " هو شعور الفرد بالإستياء و التذمر و الإحساس بالعزلة و الوحدة .... و إحساس الفرد بفقدان المعايير الإجتماعية التي تضبط السلوك وفقدان الإحترام لها بما يؤدي به إلى عدم القدرة على ضبط سلوكه ".

2.7.1. أنـــــواع الإغتـــــراب

أ- **إغتـــــراب دينـــي** (Aliénation Religieuse) : من مظاهر الإغتراب الديني في المجتمعات المعاصرة محاولة إسقاط الإنسان لكل قوى العقل و الإرادة و المسؤولية و الرغبة و الفاعلية على الإله المعبود، بحيث يصبح الإنسان خاليا من كل رغبة أو إرادة، خاليا من كل مسؤولية، عاطلا على التفكير الرشيد.

ب- **الإغتـــراب الإقتصـــادي** (Alienation Economique) : يعني إنفصال المنتج أو العامل عن المنتج الكلي للعمل في جوانبه الفيزيقية و الإقتصادية و الإجتماعية. الإنسان المغترب إقتصاديا هو مستلب القدرة على العمل و الإنتاج، و هو أيضا تشيئ (Chosification)، حيث يعامل كأنه سلعة تباع و تشترى. طاقة العمل لديه سلعة لها سعر و قيمة في سوق البيع و الشراء، و من ثم يتحول إلى شيء خال من إنسانيته، فاقد لهويته.

ح- **الإغتـــراب السياســـي** (Alienation Politique): يشبه الإغتراب الديني من حيث الجواهر، و تكون القوى المؤثرة في الإغتراب السياسي هو الحاكم أو الزعيم أو النظام السياسي في صورة نظام فردي أو سلطة إستبدادية. فالإغتراب السياسي علاقة غير جدلية (غير تبادلية) بين الحاكم و المحكوم، فيها يخلع على الحاكم أو يخلع المحكوم على الحاكم كل ما يملك من قوى و إمكانات و يعيش أداة مستلب العقل و الإرادة.

في الإغتراب السياسي تشبع السلبية و اللامبالاة. كما يتزايد الإحساس بالعجز و الضآلة و اليأس و من ثم تنتشر الأمراض الإجتماعية كالفقر و التخلف و الجريمة و التطرف و العنف و تعاطي المخذرات و الإنتحار.

د- **الإغتـــراب النفســـي** : هو ناتج طبيعي للمحصلة النهائية للإغتراب في كل أنواعه السابقة (ديني– إقتصادي– سياسي ....).
فالصراع بين الذات و الموضوع أو الموقف الإجتماعي القائم في المجتمع يولد إضطرابا في العلاقة التي تهدف إلى التوفيق بين مطالب الفرد و حاجاته و إمكاناته من جانب و بين الواقع و أبعاده المختلفة من جانب آخر و من ثم ينعكس على علاقة الفرد بمجتمعه فيخلق أنواعا من المشكلات الإجتماعية التي تثبت عيوبا في البناء الإجتماعي.

2. النظريـــــــات النفسيـــة

إن من طبيعة الإنسان السوي أن يكون معتدلا في كل شيء، فإذا تطرف دخل مجال اللاسواء و المرض.

إن التطرف ظاهرة معقدة في عللها و نتائجها، و يمكن حصر أهم النظريات النفسية للتطرف فيما يلي :

1.2. النظريـــــة التحليليـــــة

يرى سيجموند فرويد أن الشخصية مركبة من ثلاث عناصر :

- الهو : و هو مخزن و مستودع النزوات و الرغبات.
- الأنا : و هو المنشغل بتكييف الفرد أخلاقيا و إجتماعيا.
- الأنا الأعلى : و هو ضمير الفرد الأخلاقي و القيمي.

إعتقد فرويد أن هناك غريزتين تحكمان سلوك الإنسان و هما :

- غريزة الحياة و تسمى أيضا غريزة الحب (eros).
- غريزة الموت (Thanatos) و تسمى أيضا الغريزة المدمرة،و تعني أن للإنسان دافعية فطرية للعدوانية و التطرف، و تكون هذه العدوانية موجهة في الأصل الى الذات ثم تنقلب تحت ظروف معينة الى الآخرين. و تأخذ غريزة الموت مظاهر شتى : : فهي عدوانية أو عنف أو قتل أو سادية.

تضطرب حياة الإنسان النفسية لما يختل توازن العلاقات بين مختلف عناصر الجهاز النفسي، فالأنا مطالب بإحداث توافق بين الهو و الأنا الأعلى، أي بين نزوات الفرد و ضميره الخلقي، و أي عطل في هذه المهمة يعرض السلوك إلى الإضطراب و المرض.

لقد حاول المحللون النفسيون تقديم حوصلة عن شخصية المتطرف فقالوا بأنه إنسان يقدس إيديولوجية معينة أوجدها بحثه و نزوعه إلى المطلق على مستوى الأفكار في مختلف المجالات الدينية و الإجتماعية و السياسية.

هذه النزعة إلى المطلق (Absolutisme) تعزز بشحن وجدانية تأخذ شكل رغبة مطلقة (Passion absolue) تستحوذ على حياته النفسية فتصبح هي المحركة لأفكاره و أعماله، كذلك يعتقد المتطرف أنه يملك الحقيقة كلها و يطور فكر لا يعرف إلا الأطراف (الأبيض و الأسود).

و على الصعيد الإجتماعي يجعل المتطرف الآخرين مسؤولين عن عيوبهم و أي حد (كبح) لتطور أفكاره يولد عنده رد فعل سريع عنيف و إنفعالي، و يشكل الغضب و الكره و الثأر و العدوان و التحرش و الإستفزاز أهم المظاهر الإنفعالية عنده.

يمتاز المتطرف بخمس خصائص هي :

- **ضعـف الأنـــا** : مما يجعل الهو و الأنا الأعلى و صورة الذات و الذات تستغل هذا الضعف.
- صورة ذات مضخمة لدرجة يصبح المتطرف يشعر أنه يملك الحقيقة، كل الحقيقة.
- **نـــزوات الهـــو العدوانيـــة :** تكون مندفعة و حيوية بإستمرار، لأنها تسقط ضد كل الميولات (الإتجاهات) الإجتماعية، السياسية أو الدينية التي لا تتوافق و إتجاهاته.
- **الأنـــا الأعلـــى :** قوي لكنه يحتوى على ثغرات، فهو منقاد وراء المثاليات المطلقة، و هذا يجعله واثق من نفسه و من إمتلاكه للعدل و الحق المطلقين، و هو كذلك غير عابئ بمصالح الآخرين و لا بالممنوعات الخلقية، كما أنه لا يحس بالذنب.
- إن الشخصية مكتسبة لذات إيديولوجية متوهجة (Exalté) امتصت الأنا و غزت الأنا الأعلى و تسير الهو و تعطيه معنى مضاد للمجتمع.
- إن المتطرف ذو نرجسية إيديولوجية ليست مرضية في أصلها و لها سمات مضادة للمجتمع، فهذه البنية النرجسية هي المسؤولة على سلوك
- بنية أولية، أي تطورت و نمت منذ الطفولة، و ما يثيرها الخبرات المعاشة كالحرمان العاطفي و العنف العائلي.
- بنية ثانوية تتطور بالمعايشة (Cohabitation) أي بتواجد الشخص مع مجموعة من المتطرفين.

و يسهل إيقاع المراهقين و الصغار في التطرف بسبب وجود مستوى جيد لتقدير الذات، الحصر (القلق) و مشاكل الهوية.

و مهما يكن فإن التطرف الذي يحدث مع الجماعة هو صمام أمان للمتطرفين الجدد و في نفس الوقت هو فرصة يعيشونها كحلم للتحرر في أحاسيسهم.

و إذا كان سيجموند فرويد يرجع العدوانية الى غريزة الموت، فإن المحلل النفسي كارل أبرهام يرى أن الميل الى العنف هو عبارة عن نزوة جزئية تهدف الى التحطيم (التهديم) أو السيطرة على الموضوع.

2.2. نظريـــــــة الإحبـــــــاط و الحرمـــان

1.2.2. تعريف الإحباط : الإحباط حالة تعاق فيها الرغبات الأساسية أو الدوافع أو المصالح الخاص بالفرد، و هو أيضا إعتقاد الفرد بإستحالة تحقيقها.

و الإحباط أيضا هو العملية التي تتضمن إدراك الفرد لعائق يحول دون إشباع حاجاته أو تحقيق أهدافه أو توقع حدوث هذا العائق في المستقبل.

2.2.2. تعريـــف الحرمـــــان : هو إنعدام الفرصة لتحقيق و إشباع الحاجات التي تطلبها الإنسان، و قد يكون الحرمان بيولوجيا كالحرمان من الغذاء و النوم و الجنس، و قد يكون الحرمان معنويا كالحرمان من الحب و العطف و الحنان.

لقد إهتم كثير من العلماء بالعلاقة التي تربط الطفل بعالمه الخارجي خاصة الأم و عرفوا أن أي إضطراب في هذه العلاقة يعرض الطفل مستقبلا لأمراض و إنحرافات عدة.

و من أشهر العلماء الذين إهتموا بدراسة أثر الحرمان و الإحباط على حياة الإنسان، نجد العالمين "جون بولبي" و "رينيه سبيتز".

لقد وضع "جون بولبي" نظريته المشهورة بإسم نظرية الإرتباط (Theorie d'attachement) التي تنص على مرور الطفل بمرحلتين في علاقته بأمه و العالم الخارجي :

- مرحلة التوجه نحو الأم دون قدرة على تمييز وجهها عن الوجوه الأخرى.
- مرحلة تكوين علاقة موجهة نحو الهدف بحيث يصبح الطفل أكثر إرتباطا مع الأم و يبذل جهده لكسب رضاها.

و من جهته درس "رينيه سبيتز" الأطفال الذين يعانون من حرمان والدي، و توصل الى نتائج في غاية الأهمية :

- تتعرض الطفولة لإضطرابات نفسية حادة و أليمة بسبب العلاقات التي لم يتم إشباعها بين الأم و الطفل، ففي الغالب تكون العلاقة أم طفل غير ملائمة إن لم تكن معدومة.
- تلعب الأم دورا كبيرا في نشأة الطفل نشأة سوية.

إن الإنسان ليس عدواني بطبعه و إنما يتفجر عدوانه عفا لما تحبط حاجاته.

فالحرمان يؤدي الى الإحباط و الإحباط يؤدي الى العدوانية والتطرف.

و التطرف بدوره يخلق حرمانا و إحباطا عند مقترفيه، و هكذا يسقط المتطرف في حلقة مفرغة لا يستطيع الفكاك منها.

3.2. النظريـــــة السلوكيـــــــة

أصحاب هذه النظرية كثيرون كـــ "واطسن" و "سكينر" و "باندورا" و "ميلغرام" و غيرهم، و حسبهم يتعلم الفرد السلوك العدواني نتيجة إكتسابه و تعلمه ذلك من المحيط، إن إستخدام العنف و العدوان هو إستجابة موضوعية لمثيرات خارجية أو داخلية.

لقد إشتهرت النظرية السلوكية في أمريكا ثم إنتشرت الى مختلف الدول. فتعلم الفرد السلوك المنحرف عن طريق التقليد (Imitation) ، كما يتعلم الفرد السلوك العدواني من البيئة التي يوجد فيها و ذلك عن طريق الملاحظة(Observation).

إن التعلم عند السلوكين هو إقتران شرطي بين مثير و الإستجابة و ذلك من خلال عملية تدعيم الإستجابات الموجبة و إنطفاء الإستجابات السالبة، فالتعلم كذلك هو تغير ثابت نسبي في سلوك الكائن الحي، يحدث نتيجة الممارسة و لا يرجع لعوامل النضج الجسمي أو نتيجة لتغيرات مؤقتة، كعامل التعب أو إرتفاع درجة الحرارة.

يرى سكينر و هو أحد أقطاب السلوكية أن جميع أنواع السلوك الإنساني ناتج تقريبا عن تعزيز إستجابات الأفراد، و كلما تدعم أو تعزز شكل معين من أشكال السلوك إزداد فرص هذا السلوك للظهور من جديد، فالتعزيز إذن هو كل حدث يمكن أن يعقب إستجابة و تزيد من إحتمال حدوثها، و هو تعزيز موجب أو سالب.

3. النظريـــــات السياسيـــة و التاريخيـــــة :

تنشأ الحركات المتطرفة بسبب إنهيار الروابط الإجتماعية في المجتمع و ظهور حالة من التسيب بين أفراده، لقد إفترض أنتوني أبرشال (OBERSCHALL, E. 1985) فرضيتين لظهور الحركات المتطرفة و هما

- **الفرضية الأولى** : تظهر الحركات المتطرفة في المجتمعات التي تنعدم أو تقل فيها الجماعات الوسيطة بين عامة الشعب و حكامه، و تتمثل هذه الجماعات الوسيطة في الجمعيات التطوعية و المهنية و الدينية، كما تلعب هذه الجماعات الوسيطة دور كبير في الضبط الإجتماعي.

- **الفرضية الثانية** : وجود أفراد مقربين في الجماعات المتوسطة و هؤلاء لا يرتبطون و لا يشاركون في أي تنظيم في المجتمع و من ثم يصبحون أكثر عرضة للانضمام للحركات المتطرفة.

و يمكن تلخيص أهم النظريات السياسية التاريخية للتطرف فيما يلي :

1.3. النظريـــــة الشرقيـــة : (النظرية الإسلامية) : يرى أصحاب هذه النظرية أن الحركات المتطرفة في التاريخ الإسلامي كالقرامطة و الخوارج ينتمون إلى طبقات دنيا في المجتمع فهم عبيد أو موالي أو عمال أو فلاحين أو فقراء.

2.3. النظريـــــة الغربيـــة (نظرية الحرمان السياسي): الحرمان في عمومه هو عدم إشباع ما يراه الفرد ضروريا لحياته، أما الحرمان السياسي فهو شعور الفرد بالإستياء تجاه الأنظمة السياسية و الإقتصادية و الإجتماعية مما يدفعه إلى التجمع مع غيره من المحرومين في محاولة لإرغام السلطة و المؤسسات السياسية على تحسين ظروفه .

إن العنف و التطرف من منظور سياسي هو الإستخدام الفعلي للقوة أو التهديد بها بغية تحقيق أهداف سياسية و إجتماعية لدى ممارسيها.

إستنتـــــــــاج :

إن إسقاط هذه النظريات على الواقع الجزائري يجعلنا نتوصل إلى نتيجة أن كل هذه النظريات صالحة لتفسير ظاهرة التطرف الديني في المجتمع الجزائري.

فعلى المستوى السياسي عاشت الجزائر عقود غابت فيها الديموقراطية و حرم فيها المواطن من الحرية السياسية و من تحقيق حاجاته إلى الاعتراف و الرضى عمن يحكمه و يسير أموره.

و على الصعيد النفسي يعيش الفرد الجزائري إحباطات تلوى الإحباطات نتيجة التغيرات الاجتماعية و الإقتصادية في الداخل و الصراعات و الحروب التي يكون معني بها في الخارج (العراق، فلسطين .....إلخ)، و على الصعيد الإجتماعي شهدت الجزائر في العقود الأخيرة تفككا لا مثيل له فقد فقدت الأسرة إنسجامها و قدرة ضبطها و انتشرت الآفات الاجتماعية من فقر و بطالة و مخدرات و إنحراف (دعارة، السرقة، الإعتداءات، الرشوة، المحاباة و العصبية .....الخ)، مما ساعد على ظهور ظاهرة التطرف عند الأفراد بمختلف توجهاتهم و قناعتهم.

هوامـــش و مراجـــع :

(1) عدلي علي أبـو طاحون، سوسيولوجيا التطرف الديني. الإسكندرية : المكتب الجامعي الحديث، 1999، ص 473.

(2) Encyclopédia universalis. Paris : S-A, 1997

(3) E.Durkheim, Le suicide in encyclopédia universalis, op.cit

(4) Jean-Michel BESSETTE, La sociologie criminelle in sociologie contemporaine, P. 500.

(5) عدلي علي أبو طاحون، مرجع سابق، ص 474.

(6) نفس المرجع، ص 474.

(7) نبيل رمزي إسكندر، الإغتراب و أزمة الإنسان المعاصر. الإسكندرية : دار المعرفة الجديدة، 1988، ص 296.

(8) نفس المرجع، ص 297.

(9) نفس المرجع، ص ص 311، 316.

(10) عدلي علي أبو طاحون، مرجع سابق، ص 472.

(11) نفس المرجع، ص 466.

(12) محمد حسن عامودي، نظرية أوسكار لويس، في دراسة ثقافة الفقر، رسالة ماجستير، كلية الآداب. جامعة الإسكندرية، 1975، في عدلي علي أبو طاحون، مرجع سابق، ص 473.

(13) إسحاق ثروة ، المهمشون من الفئات الدنيا في القوى العاملة. القاهرة : المركز القومي للبحوث الإجتماعية و الجنائية، 1987.

(14) نبيه إسماعيل، الإغتراب لماذا ؟ و الإنتماء لماذا ؟. القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، 1982، ص 04.

(15) سعد المغربي، الإغتراب في حياة الإنسان. القاهرة : الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1980، ص ص 249، 278.

(16) نبيل رمزي إسكندر، مرجع سابق، ص 284.

(17) Theirry ALBERHNE , Criminologie et psychiatrie. Paris : Ellipses, 1997. P.P 136,138.

(18) Ibid, P. 138.

(19) Jean BERGERET, La violence fondamentale in R.F.P, N° 06, 1981, P.P 1335 – 1351, N° 20.

(20) Dr. Adolfo Fernandez. ZOILA, Freud et les psychanalyses. Paris : Ed Fernand – Nathan, 1986, P.184.

(21) وفاء محمد البرعي، دور الجامعة في مواجهة التطرف الفكري. ط 1، الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية، 2002، ص ص 35 – 40.

(22) إبراهيم وجيه محمود، التعلم، أسسه، نظرياته و تطبيقاته. الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية، ص 173

(23) أحمد محمد عبد الخالق. عبد الفتاح محمد دويدار، علم النفس : أصوله و مبادئه. الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية، 1993.

(24) محمد السيد عبد الرحمان، نظريات الشخصية. القاهرة : دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع، ص 526.

(25) عدلي علي أبو طاحون، مرجع سابق، ص 479.

(26) نفس المرجع، ص 479.

(27) نفس المرجع، ص 476.

(28) نفس المرجع، ص 476.

(29) حسن توفيق إبراهيم، العنف السياسي في مصر، دراسة كمية تحليلية مقارنة في مجلة المستقبل العربي، العدد 117، الكويت، 1988، ص ص 15 – 29

تهانـــــي الشبكـــــة بالسنـــة الهجريـــة الجديـــــدة

نسعد بكم/معكم مهنئين بسنة قمرية جديدة 1431 وذكرى هجرة الرسول محمد (عليه أفضل الصلاة والسلام) لنشر دعوة الحق التي ضاق بها المشركون في موطنه ...

هاجر رسول الله الموطن الذي رأى النور فيه والذي بدأ فيه بتلقي الوحي وشرّف فيه بحمل أمانة الرسالة وتبليغها...

هاجر الموطن الذي قال في حقه " **والله إنك لخير أرض و أحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت...**

هاجر ليبلغ رسالة الإيمان بالإسلام إلى العالمين...

نعم أن " **لا هجرة بعد الفتح؛ لكن جهاد ونية** "، نعم لا هجرة للمسلمين من مكة، قبلة المسلمين و حجهم بعد الفتح إلى قيام الساعة... لكن ألسنا في عصرنا هذا بحاجة إلى **هجرة من نوع آخر...**

هجرة فكر زادنا اغترابا و انبتاتا...

هجرة ركود وجمود عقلي أعاق انطلاقتنا...

هجرة انهزام حضاري أعاق نهضتنا...

و إن لم نفعل... هل نكون خير سلف لخير أمة أخرجت للناس، يوم أتم الله لنا ديننا و أكمل علينا نعمته و رضي لنا الإسلام دينا.

ونحن نحتفل بذكرى هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام و بداية **سنة قمرية جديدة**"1431"، أعاده الله عليكم/ علينا بالخير واليمن والبركة و هدانا و إياكم لما فيه رفعة العلوم النفسية خيرا للعالمين... ، **هل ما زال خيار هجرة من نوع آخر قائما.**

و كل عام و أنتم بخير و أهل الخير و العطاء

الدكتور جمال التركي
شبكة العلوم النفسية العربية

الجــــــذور النفسيـــــــة لجرائـــم الابــــــادة الجماعيـــــــة*

د. صـــلاح كَرميـــــــان – سيدنـــــــي، استراليـــــا

selah.germian@yahoo.com.au

شهدت البشرية على مرّ التاريخ غزوات وحروب وصراعات دموية بين قوى متصارعة و بين إمبراطوريات كانت تسعى كل منها الى التوسع وإخضاع الشعوب والممالك الى دائرة نفوذها. إكتسحت جيوش أسكندر الكبير كل البلدان والأمصار الممتدة مابين ماسادونيا (مقدونيا) والهند وكانت تفني وتهلك كل من يواجهها أو يعرقل مسيرها. وغزت حشود جنكيزخان و تيمورلنك وهولاكو معظم بلدان آسيا وهم يقتلون وينهبون و يحرقون ويعيثون في الأرض دماراً وخرابا. وفي أوروبا المسيحية وتحت ظل الكنيسة، أبيدت الملايين من سكان أمريكا الأصليين من قبل الإسبان عقب إكتشاف كريستوفر كولومبس للقارة الجديدة، ثم أعقبهم الإنكليز في إكمال مهمة الإبادة بكل الوسائل، حتى وصل الأمر الى الفتك بهم بنشر وباء الجدري بينهم.

واتبعت القوى الإستعمارية نفس السياسات اللاإنسانية ضد السكان الأصليين في المكسيك وبقية دول أمريكا اللاتينية وكندا وأستراليا. واثناء المد الإستعماري الأوربي، أخضعت شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بأقسى أنواع العنف والقسوة لسيطرة القوى الاستعمارية، التي تنافست فيما بينها لنهب الثروات الطبيعية. وراحت الملايين من البشر ضحايا تلك الغزوات والحروب التي كانت تشعلها نزوات وميول وأطماع الأباطرة والملوك والحكام وقادة الجيوش. وارتكبت جرائم شنيعة ومجازر جماعية استهدفت بعضها الإبادة الكاملة لمجموعات أثنية أو طوائف دينية أو مذهبية.

وشهد مطلع القرن العشرين إبادة المليون ونصف المليون من الأرمن على أيدي الأتراك العثمانيين. وفي المانيا قامت النازية الهتلرية للفترة بين 1938-1945 بمذابح الهولوكوست Holocaust ضد اليهود والسلاف والشيوعيون والغجر والمثليين جنسياً Homosexuals والأسرى الروس، راحت ضحيتها ستة ملايين إنسان. وفي سنة 1932-1933 قام ستالين بإبادة سبعة ملايين من الأوكرانيين بتجويعهم حتى الموت. ورغم صدور ميثاق الامم المتحدة لعام 1948 الذي هدف الى منع تكرار تلك الجرائم ضد الإنسان، لكن جرائم بشعة ارتكبت في النصف الثاني من القرن الماضي من قبل الخمير الحمر إستهدفت الإبادة الجماعية للسكان في كمبوديا. وقام النظام الدكتاتوري في العراق بمذابح الأنفال مستهدفاً إبادة الكورد في كوردستان. وفي أفريقيا جرت مذابح جماعية من قبل مقاتلي الهوتو ضد السكان من قبائل التوتسي في رواندا. ولاتزال إرتكاب المذابح الجماعية مستمرة لحد هذا اليوم في إقليم دارفور من قبل قوات الجنجويد المدعومة من الحكومة السودانية.

على ضوء ماورد في الإستعراض السريع، وحسبما عرّفه رافائيل ليمكين (1900-1959) Raphael Lemkin فأن الابادة الجماعية Genocide هي: "ممارسة قديمة في تطورها الحديث، وتتضمن إجراءات طويلة الأمد تهدف الى تدمير المقومات الأساسية لحياة مجموعات قومية، ويحدد المفهوم محاولات التدمير لمجموعات بأكملها".

من المسلم به أنه ليس بإمكان فرد متسلط أو مجموعة متنفذة معينة من الأفراد قتل الملايين أو حتى المئات من البشر، وتدمير المدن والقرى كاملة، دون إشراك أعداد كبيرة من الناس وتوريطهم في تنفيذ الأوامر والقيام بإرتكاب جرائم القتل أو الإبادة الجماعية دون وعي أو إدراك منهم حول ما تم التخطيط له من قبل أصحاب النفوذ والسلطة الذين تلقى الأوامر منهم. فلا "نيرون" أو "الحجاج" أو "تيمورلنك" أو "هولاكو" في العصور الماضية، ولا الزعيم النازي "هتلر" أو الفاشي "موسوليني" أو الطاغية "صدام حسن" أو الرئيس الصربي "ميلوسوفيج" أو الزعيم الكمبودي "بولبوت" أو رئيس حكومة رواندا "هابري مانا" في العصر الحديث، نفذوا جرائمهم الكبرى بأنفسهم أو من قبل أفراد حاشيتهم أو ممن حولهم من رجالات السلطة.

وعند التمعن في الأسباب التي تقف وراء إرتكاب تلك الجرائم والتي تختلف طبيعة كل واحدة منها عن الأخرى طبقاً للعصر الذي حدثت فيه والظروف السياسية والإجتماعية القائمة وقت حدوثها وطبيعة الأنظمة واللاعبين الكبار الذين قاموا بتنفيذها، يتضح إن هناك بجانب العوامل السياسية والإجتماعية والإقتصادية، مجموعة عوامل وأبعاد سيكولوجية لعبت أدوراً رئيسة في حدوثها، وتُعدّ كعوامل مشتركة في إرتكاب جميع جرائم الإبادة الجماعية عبر العصور وفي كل المجتمعات والثقافات. وسنحاول هنا تسليط الضوء على الجوانب الاساسية منها.

سيكولوجيـــــــة السلطـــــــة الإستبداديـــــــة

تُعدّ السلطة في الأنظمة الشمولية (التوتاليتارية) والدكتاتورية من أكثر أنواع السلطة إستبداداً وبطشاً بالمعارضين لها، حيث تنتهج أشد أساليب العنف والإستبداد في سبيل ضمان إستمرارها. وتحاول إخضاع الناس لطاعتها أو كسب ولائهم بكافة الوسائل. حيث إن الأفراد يتأثرون بمجالات السلطة ويتوحدون معها، إذ يؤكد عالم النفس الألماني كيورت ليفين (1890-1947) Kurt Lewin مؤسس نظرية المجال النفسية، على إن الأفراد يختلفون فيما بينهم بإختلاف المجال الذى يتواجدون فيه، أي إن السلوك وظيفة المجال الموجود وقت حدوث السلوك. فالأفراد الذين يعملون مع السلطة التوليتارية أو من هم ضمن حلقاتها الرئيسة، يتطبعون بصفات خاصة، وتؤثر مجالات السلطة في إحداث تغييرات فى سمات شخصياتهم وخاصة في الأشخاص الضعفاء الذين يتسمون بسمات الشخصية المتقلبة والإنتهازية.

وللسلطة الإستبدادية خصائص وسمات سيكولوجية تتميز بها عن غيرها مثل: الخوف والحذر وفقدان الثقة بالجماهير، واللجوء الى أساليب الخداع والمكر وإستخدام أشكال العنف ضد المناوئين لها، و ضيق الخناق على كل من لايظهر الولاء لها وبالتالي عزلهم بعيداً عن دائرة النفوذ والتأثير. و كذلك تميل السلطة المستبدة الى نزعة الإنتقام من كل من يحاول النيل منها أو يهدد وجودها. في حين تلجأ مثل هذه السلطة الى الإدعاء بتطبيق العدالة والحرية، تسعى في نفس الوقت الى إخفاء مظاهر أنانيتها وحرصها على المصالح الذاتية و يؤدي مثل هذا السلوك للسلطة الى ظهور الإزدواجية لديها.

وعلى عكس الأنظمة الديموقراطية، تلجأ السلطة في الأنظمة الشمولية، الى إستعمال أقسى أنواع العنف والقسوة ضد أفراد وشرائح المجتمع لإحكام قبضتها. وكثيراً ما تقوم بإصدار القرارات والقوانين التعسفية وفرض حالات الطوارئ ومنح الصلاحيات الواسعة الى أجهزتها القمعية وتعمل على خلق جدار من العزلة بينها وبين الجماهير وتزداد الفجوة بينهما (التي غالباً ما تكون نفسية أكثر من كونها مادية) إتساعاً الى أن تنتهي بظهور حالة من الإغتراب بين السلطة والجماهير.

إن السلطة الشمولية لاتثق بالجماهير لأنها تدرك إنها لم تنتخب وإنما فرضت نفسها عنوة على الجماهير، لذا فإنها تعيش هاجس الخوف والتهديد بإستمرار وتحسب لكل حركة أو بادرة من أي فرد أو فئة من شأنها إثارة الجماهير، وتواجهها بكل بطش وإرهاب لبث الرعب لدى الآخرين. وتلجأ أحياناً كثيرة الى إستخدام الأساليب النفسية لترويعهم أو الى وسائل الترغيب لكسب ولاءهم. وتلجأ أجهزة السلطة الشمولية و مسؤوليها الى أساليب التمويه والخداع والمكر والتحايل و تشديد المراقبة والتجسس على الجماهير بدلاً من الصراحة والشفافية والدخول في الحوار معهم، بسبب التزمت الفكري (Dogma) الذي يسيطر عليها حيث لا تعترف بالرأي الآخر ولا تقيم وزناً للآخرين، بل إن الإقصاء وإلغاء الآخر هي أحد أهم سماتها.

يقول موسكوفيسي Moscovici (1984)، كسب الحزب النازي شعبية كبيرة لدى الألمان، نتيجة إستمراهم في تكرار خطاباتهم وشعاراتهم لمدة عشرون سنة تقريباً. وعندما تغيرت الحالة الإجتماعية وتلائمت أكثر وتوافقت مع خطابهم الثابت، أصبحت الناس أكثر ميلا لقبول إدعاءاتهم. ولم يتردد النازيون في الكف عن هذا الاسلوب أبداً الى أن بدوا للألمان وكأنهم على صواب. أما لاتاني Latane فإنه وعلى وفق نظرية تأثير الدينامية الإجتماعية Dynamic Social Impact Theory يرى، أن التأثير الذي يخلفه الآخرين على إتجاهات الشخص، وإعتقاداته، وسلوكه، يتقرر بواسطة السلطة (الموقع والخبرة) ومدى القرب (المادي أو الإجتماعي) وعدد من مصادر التأثير. وبمرورالوقت، فإن الإعتقادات تنتشر وتصبح أكثر وضوحاً وقبولاً لدى الجماهير.

تدرك السلطة المستبدة سيكولوجية الجماهير جيداً وتعي بأن الجماهير ستثور بوجهها متى ما توافرت الظروف المناسبة وحينها يكون من الصعب على أجهزة السلطة الوقوف بوجهها. لذلك فإن السلطة المستبدة تلجأ الى وسائل أخرى لتشويه الحقائق وإظهار نفسها بمظاهر مغايرة للواقع ولتبرير أخطاءها والتقليل من شأن الإنتكاسات والهزائم التي تمنى بها، فضلاً عن الأجهزة القمعية التي تمتلكها. وتسخر لأجل هذه الأهداف، آلتها الإعلامية التي تقوم بممارسة غسل الأدمغة وتخدير عقول الجماهير.

ومن المعروف إن الأنظمة التوتاليتارية تستخدم الإعلام في تزييف وعي الجماهير وإقناعهم بالوقوف الى جانب النظام وتأجج نار العدائية لديهم ضد أعداء السلطة. ويلجأ الحكام عادة الى إستغلال العوامل السيكولوجية الإجتماعية لتنفيذ مخططاتهم، فإذا ما نجحوا في ذلك فإنها ستصبح متناغمة مع القيم الإجتماعية. وعند النظر الى إعلام وأدبيات النخبة الحاكمة في الأنظمة الإستبدادية التي ارتكبت الإبادة الجماعية، نرى إنها تصور بوضوح تام ضحايا جرائمها، كمتمردين وتصفهم ليس فقط بصفات الحقارة والرذيلة وإنما تعتبرهم أشراراً وتضعهم في مرتبة الأعداء.

كان الإعلام القومي الصربي مثلاً، يحرّض على إثارة الكراهية العرقية عن طريق تزييف الأحدث التاريخية والراهنة لبث حالة الخوف وزرع روح العداء لدى الصرب. فيما كان يتم تحذير طلاب المدارس من خطورة المسلمين ويلقنونهم دروساً عن معارك قديمة جرت في كوسوفو في القرن الرابع عشر. أما النظام الدكتاتوري البائد في العراق فقد دأب على إعتبار الكورد بمثابة الكفار الذي دعا الاسلام الى القضاء عليهم وإعتبار ممتلكاتهم وحتى أطفالهم ونساءهم غنائم حرب، وفق ما جاء في سورة الانفال القرآنية، فضلاً عن إطلاق مسميات لتشويه حقائق الأوضاع ونعت الكورد بسليلي الخيانة وعملاء إيران وكلاب يجب سحق رؤوسهم وغيرها من الصفات البذيئة لتعبئة الأجواء وإيهام العراقيين بمشروعية سياساتهم الإجرامية.

وتسيطر نظرة الدونية على السلطة الشمولية تجاه أعدائها ومناؤيها. وإلصاق الدونية لاتمت بصلة بالجوانب العسكرية أو الإقتصادية، بل تقوم على أساس فكري وأيديولوجي. وبتكريس النظرة الدونية يموت الضمير والواعز الأخلاقي ويغيب الشعور الإنساني وتؤدي الى ترسيخ العنصرية وإبادة الشعوب، ورغم ذلك فأن قادة السلطة الشمولية يشعرون بأنهم يؤدون عملاً حضارياً. وهذه النظرة الدونية كانت هي نظرة هتلر وقادة الحزب النازي تجاه اليهود والغجر والسلاف والمثليين جنسياً في محرقة الهولوكوست، وكانت هي نظرة صدام حسين وقادة البعث والعروبويون تجاه الكورد في مذابح الأنفال، و كانت هي نظرة ميلوسوفيج والقوميين الصرب تجاه البوسنيين والكروات، ونظرة زعماء الهوتو تجاه المواطنين من قبائل التوتسي في رواندا.

يُعدّ نظام صدام حسين البائد الذي خطط لإبادة الكورد وتدمير البنية الإقتصادية والنسق الإيكولوجي Ecosystem في كوردستان، انموذجاً صارخاً للسلطة الدكتاتورية الشمولية. وتميز في كونه من أشد الأنظمة الشمولية عنفاً ودموية، وكان يمارس أبشع أنواع القمع والإستبداد ضد الإنسان العادي ناهيك عن السياسي المعارض. وكثيراً ما كان يلجأ الى تلك الممارسات بهدف الترويع فقط، لكي لايدر في خلد أحد ما، أية أفكار تعارض سياسة النظام مثل القرارات التعسفية الغريبة كقطع اللسان والأذان ووشم الجباه الذي أصدرها النظام أثناء الحرب مع إيران. وشملت ممارسات النظام كذلك:

– إتباع سياسة التوريط والإيقاع في شرك دائرة المسؤولية والإنتماء للنظام، حيث كان أحد الأهداف الرئيسة في منح الأوسمة والأنواط ومن ثم الإعلان عن ذلك على الملأ عن طريق وسائل الاعلام، هو تحسس الفرد الذي يكافأ بأنه أصبح جزءاً من النظام ومقرباً ومتعاوناً وشريكاً في تنفيذ

سياسات السلطة وممارساتها. وكان هذا من شأنه أن يجعل منه فرداً ممسوخاً واقعاً في أحابيل السلطة ولامفر منه الاّ الدفاع عنها لان مصيره أرتبط بمصير السلطة.

– القيام بحملات إعدامات علنية أمام الجمهور في الساحات العامة والملاعب الرياضية وإجبار الناس على التصفيق والنساء على إطلاق الزغاريد. وكان النظام يقوم بتشجيع الناس بمنحهم أنواط الشجاعة للإبلاغ عن أبناءهم أو أخوانهم المناهضين للسلطة الحاكمة أو الرافضين الإلتحاق بالخدمة العسكرية والذهاب الى جبهات الحرب، وكان لذلك دور كبير في تفسّخ القيم الإجتماعية.

– دأبت أجهزة النظام الإعلامية على عرض المشاهد المروعة للمعارك الحربية ولأشلاء القتلى من الجنود الإيرانيين أثناء الحرب مع إيران في برامج تلفزيونية وخاصة عند المساء وفي فترات برامج الأطفال على الأغلب. والهدف كان واضحاً في زرع الروح العدوانية لدى الناس وخاصة الأطفال والمراهقين منهم، لخلق جيل متشرب بأفكار شوفينية وعدوانية.

– شجع النظام أفراد الجيش على النهب والسلب عند الدخول الى المدن الإيرانية وأثناء غزوها للكويت، حيث كانت لهذه الممارسات التي زرعتها السلطة الدكتاتورية إنعكاسات على جيل كامل من العراقيين. وبرزت إفرازاتها أثناء سقوط النظام في عمليات النهب والسلب التي طالت كل المؤسسات والمرافق الحكومية بإستثناء وزارة النفط التي كانت الوزارة الوحيدة التي وفرت القوات الامريكية الحماية لها.

سيكولوجيـــــــــة شخصيـــــــــة الطاغيـــــــــة

لاشك إن لقادة الشعوب وحكام الدول أدواراً كبيرة في ما تجري من أحداث في بلدانهم. وقد أظهرت الدراسات إن القادة الذين تسببوا في حدوث الحروب والمآسي لشعوبهم أو إرتكبوا جرائم الإبادة الجماعية سواءاً ضد شعوب بلدانهم أو شعوب البلدان الأخرى، كانوا يعانون من خلل وإضطرابات في شخصيتهم. وتؤكد تلك الدراسات وجود أنماط شخصية معينة لدى هؤلاء القادة الذين يميلون إلى السلوك الإستبدادي. وفي هذا السياق يشير كوالسكي Kowalski (2001) الى ثلاثة أنواع من الشخصيات جلبت إنتباه الباحثين لإخضاعها للتجربة وهذه الانواع هي:

:: النرجسية Narcissism
:: الميكافيللية Machiavellianism
:: السيكوباثية Psychopathic

ورغم الإختلاف في منشأ تلك الأنواع الثلاثة التي يطلق عليها (باولهوس و وليم، Paulhus & Williams,2002) الثالوث المظلم The Dark Triad of personality، فأن تلك الشخصيات تشترك بعدة مميزات. فكل الأنواع الثلاثة تتصف بخاصية الحقد الإجتماعي مع نزعات سلوكية نحو الإرتقاء بالذات، والبرود العاطفي، والإزدواجية، والعدوانية. وبرهنت التطورات الأخيرة للمقاييس غير الكلينيكية لكل المتغييرات الثلاثة على وجود علاقة مترابطة بين الميكافيللية والسيكوباثية، والنرجسية بالسيكوباثية، والميكافيللية بالنرجسية وكما موضح في الشكل التالي:

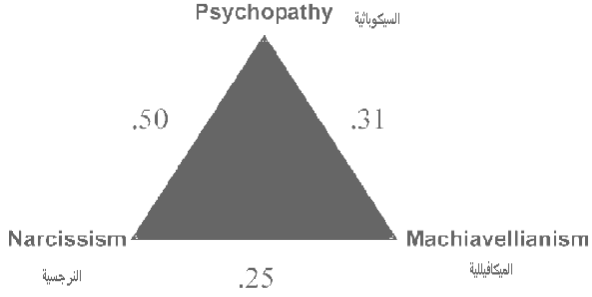

شكل يوضح العلاقة الارتباطية بين الثالوث الاسود للشخصية النرجسية والميكافيللية والسيكوباثية

وفيما يلي تعريف موجز لأنماط الشخصية الثلاثة:

الشخصيـــــــة النرجسيـــــــة

إن الفرد ذو الشخصية النرجسية هو من يكون لديه شعور مفرط بحب الذات والإعجاب الشديد بنفسه وبمواهبه وقدراته، ويتصور بأنه هو الأفضل في كل شئ وهو المبدع والمبتكر والفنان ويتوقع من الناس تقديره وكيل الثناء والمدح له وإبداء الإعجاب بشخصيته وفق ما يتصوره هو عن نفسه.

الشخصيـــــــة الميكافيلليـــــــة

الفرد ذو الشخصية الميكافيللية هو ذلك الشخص الذي له مواصفات تلك الشخصية التي أوصى به المؤلف الإيطالي نيكولا ميكافيللي (1469 – 1527) وحدد سماته في كتاب "الأمير". ومثل هذا الفرد يحاول تحقيق أهدافه بكل الوسائل وشعاره هو "الغاية تبرر الوسيلة" أي إن الشخص الميكافيللي يهمه الوصول الى الغاية أو الهدف الذي يريده مهما بلغ الثمن.

الشخصيـــــــة السيكوباثيـــــــة

وهي شخصية الفرد الذي لا يراعي النظام والقوانين, ولايهمه المصلحة العامة ويتمتع في الخروج على كل العادات والتقاليد والقوانين المرعية. ومثل هذا الشخص لايهمه الاّ نفسه وإشباع أهواءه ورغباته.

إن القادة التوتاليتاريين من أمثال هتلر في المانيا، موسوليني في إيطاليا، فرانكو في إسبانيا، ستالين في روسيا، بولبوت في كمبوديا، بينوشيه في شيللي، صدام حسين في العراق، ميلوسوفيج في صربيا، وغيرهم من القادة التوتاليتاريين في بلدان أخرى من العالم، يتميزون بوجود صفات الشخصيات الثلاث التي سبقت الإشارة اليها لديهم، رغم إختلاف الثقافات والبيئة الإجتماعية لبلدانهم. فإنهم لم يكتفوا بالسيطرة على أعلى مواقع السلطة المدنية والعسكرية والحزبية ومسك زمام كل الأمور والشؤون والقضايا، وإنما كانوا يتحكمون في سن القوانين والتشريعات التي غالباً ما كانت تأتي وفق لأهواءهم ونزواتهم. وكانوا هم لاغيرهم، أصحاب العظمة والفخامة وصانعوا الأحداث والمعجزات ويمثلون الله في الأرض ولهم الأمر والنهي. وليس للجماهير الاّ الطاعة والخضوع لسلطانهم.

ويرى رومل Rummel (1996) بأنه ليست مصادفة أن نرى عمليات الإبادة الجماعية والحروب في القرن العشرين، حدثت في الدول غير الديموقراطية. وإن أحد أهم مميزات الدول التي أرتكبت فيها الإبادة الجماعية هي وجود قادة لأنظمة وحكومات توتاليتارية. إن تأثير هؤلاء القادة يكون في تحوّل أو تعظيم المقومات القائمة ضمن المجتمع الى "ثقافة عملاقة monolithic culture" كما يطلق عليها ستاوب (Staub،1989). فمثل هذه الثقافات غالباً ماتكون لها تاريخ من الخضوع للدولة والحكام التوتاليتاريين فضلاً عن ضعف روح التسامح مع التنوع الثقافي. وتلعب القادة التوتاليتاريين دوراً كبيراً في تحريك الثقافة نحو العنف الجماعي وغالباً ما يتم ذلك بهدف تقوية السلطة وتمركزها وإنهاء المعارضة وتمتين الإقتصاد لمصالح ذاتية وخلق بنية تحتية وأيديولوجية هدامة.

سيكولوجيـــــــة العـــــــدوان

أظهرت الدراسات الحديثة أن اللاوعي الفرويدي لا يعطي تفسيراً مقنعاً لأشكال العنف المتطرفة عند الإنسان على المستويين الفردي والجماعي. ويبدو أن جذور ظاهرة العنف تصل الى ما هو أعمق من مستوى فترة الولادة الأولى التي يؤكد عليها نظرية التحليل النفسي الفرويدي. بينما كشفت البحوث الخاصة بالوعي، مصادر مهمة أخرى للعنف والعدوان. ويمثل العدوان Aggression ظاهرة سلوكية منتشرة يمارسها الأفراد والدول والمجتمعات على السواء. وطال العدوان حتى الطبيعة، حيث لم تفلت من العدوان المتمثل بإبادة بعض عناصرها وتلويث البعض الاخر.

إن العدوان مفهوم غامض الى حد ما لتداخله مع مفاهيم سايكولوجية أخرى كالعدائية والعنف والارهاب. والعدوان في نظر باندورا Bandura هو السلوك الذي يؤدي الى إحداث الضرر الشخصي أو تدمير ممتلكات. وهناك فرق بين العدوان Aggression والعدائية Hostility والتي يقصد بها الميول التي تحرك العدوان كالحقد والكراهية والغضب . أما العنف فهو استعمال القوة أو التهديد بأستعمالها، وهو نهاية مطاف السلوك العدواني.

يربط دولارد وميللر (1939) Dollard and Miller بين الإحباط والسلوك العدواني ويعتقد بأن السلوك العدواني بصوره المختلفة يرجع الى أنواع من الإحباطات. إن العوامل التي تؤدي الى تعقيد الظروف الحياتية لدى المجتمعات التي لم تعتد مثل هذه الظروف تشعرهم بالإحباط، وتمثل أكبر تهديد بإنتشار مظاهر العنف والعدوان. فقد ارتبطت معظم عمليات الإبادة الجماعية في القرن العشرين بأزمات عدم الإستقرار ومشاعر الإحباط، التي من شأنها تهيئة الأرضية لتغييرات في بنية تلك المجتمعات. ونتيجة الحروب، ظهرت الى الوجود أزمات إقتصادية وسياسية و إفرازات نفسية وإجتماعية في السنوات التي سبقت أو صاحبت جرائم الابادة الجماعية الانفة الذكر.

إن العدوان مرفوض في كثير من أشكاله لدى المجتمعات ولكنه يكون مقبولاً عندما يكون الهدف منه الحفاظ على الذات وتحقيق الوجود والحرية والبقاء. لذا يلجأ كثير من الناس الى إخفاء السلوك والنزعات العدوانية السلبية تحت شعارات وأهداف إيجابية. فعلى سبيل المثال، دعي المشاركين في الحرب الصليبية الى التضحية بحياتهم من أجل المسيح لإسترجاع الأرض المقدسة من أتباع محمد. وإستغل هتلر الحوافز المثيودولوجية في التفوق للعنصر الآري وفي إستعماله "الصليب المعقوف" الذي يمثل الرمز الآري القديم. وإعتبر النازيون أنفسهم ومن ينتمي الى العنصر الآري متفوقون وإن الأعراق الأخرى كالسلاف واليهود والغجر يلوثون المانيا وكانوا يشبهون اليهود بالفئران التي تنشر الطاعون. وفي الامبراطورية العثمانية أعتبر الأرمن خطراً داخلياً وعملاء للقوات الروسية والأرمنية المحتلة. و قادة الهوتو في رواندا إعتبروا قبائل الهوتو متفوقين على التوتسي (حيث كانوا يوصفون التوتسيين بالصراصير) أثناء الإبادة الجماعية التي جرت لهم في عام 1994.

وإستند الطاغية صدام في مذابح الأنفال على سورة الأنفال القرآنية لتبرير أهدافه العدوانية والقيام بجرائمه في تلك العمليات ضد الأبرياء في كوردستان الذين جعلهم في مقام الكفار والمشركين عند الإسلام، وكان رموز النظام البعثي ينعتون الكورد بشتى أنواع الصفات البذيئة ويصرحون علناً بسحق رؤوسهم. وهكذا هي النزعات القومية المبنية على إيديولوجية عنصرية التي تحمل في جوهرها التمييز والتحيز العرقي والايمان بالتفوق القومي، ويعدّ ذلك من الأسباب الرئيسة للعدوان وإرتكاب جرائم الإبادة الجماعية.

إن اكثر جرائم الإبادة الجماعية في القرن العشرين أرتكبت من قبل الدول التي لها تاريخ حافل بالعنف والنزاعات العدوانية. و هذا يدل على أن السلوك العدواني لايقتصر على الأفراد وإنما يمكن أن يشمل كذلك، الدول والشعوب. ففي غياب التفاهم وتبادل الأفكار وقبول الطرف الاخر، فأن الدول ذات التوجه العدواني تفترض بأن جماعة ما تشكل خطراً ويتوقعون منها الكراهية والعدوان، وبما أن العدوانية تطغى على سلوك قادتها، فأنهم يلجأون الى إبادة مصادر الخطر الذي يهدد مصيرهم وكيانهم دون إكتراث لنتائج جرائمهم.

سيكولوجيــــــــة الطاعـــــــــة

هناك أسئلة كثيرة تبادر الى الذهن وتفرض نفسها عند التفكير في الأسباب التي تؤدي الى حدوث الجرائم التي تستهدف إبادة مجاميع كبيرة من البشر: ماهي دواعي إنصياع الآلاف من الناس ممن ليسوا في مواقع السلطة، لرغبات والميول العدوانية لأصحاب القرارات والاوامر في المواقع العليا للسلطة، الذين يخلقون الظروف والأجواء السياسية والنفسية لتنفيذ الجرائم الكبرى؟ وماهي الدواعي وراء الرضوخ والطاعة العمياء لتلك الاوامر؟ هل هي الروح العدوانية لديهم؟ أم هي الخوف والرهبة؟ أو هي الانتهازية والأنانية والطمع بنيل مكاسب مادية أو معنوية من أصحاب النفوذ والسلطة؟

تشير الدراسات الى أن الناس يميلون الى الإبتعاد عن التفكير العميق حول القضايا والأمور التي ليست لها تأثير مباشر على حياتهم ويتابعون المعلومات التي تعكس معتقداتهم بدلاً من تلك التي تنافي نظرتهم الواقعية الى الامور. ولتفسير الإبادة الجماعية، فأن الأفراد غالباً ما يلقون اللوم على القادة الذين يصدرون الأوامر أو ينسبونها الى الأحقاد المتأصلة لدى طرفي النزاع. و يؤكد ليفين (1989) على أن الطقوس والمعايير، سواء في مؤسسات تربوية أو دينية، أو تعاونية أو إجتماعية، تساعد على إدامة الإلتزام والإمتثال والطاعة. وغالباً ما تكون هناك عقوبات شديدة تتراوح بين النبذ والتوبيخ، إلى العنف الجسدي عند عدم الإلتزام بتلك المعاييرالتقليدية. وهكذا يتعرض أفراد الجماعة للضغوط بغية المشاركة في أعمال الكراهية والعنف، وهم يعرفون تماماً نتائج عدم إمتثالهم.

أكدت دراسات ميلكَرام (1965-1975) Milgram حول الطاعة، على التأثير القوي الذي يمكن لنوع السلطة أن يضعه على سلوكنا. ويقول ميلكَرام: إذا كان تعرض ملايين الناس للقتل وإعدام أعداد كبيرة من البشر يأتي حسب ما يمليه أفكار شخص ما، إلا أنه ليس بالمستطاع تنفيذها على هذا النطاق الواسع لولا خضوع أعداد كبيرة من الأشخاص للأوامر.

وهنا لابد من الإشارة الى دور الثقافة والدين في المجتمع في ترسيخ الطاعة والخضوع لاسيما عندما تستغل لصالح السلطة الإستبدادية. فحسب نظرية التنسيب (العزو) attribution لــ (فريتز هيدر 1896-1988 Fritz Heider) حول تنسيب أو عزو الفرد سلوكياته الى أسباب خارج عنه، لا سيطرة له عليها، حيث تلجأ الكثير من الناس الى تبرير خضوعهم وإذعانهم لأوامر الأنظمة الإستبدادية ويقومون بتنفيذ جرائم بشعة دون قناعاتهم تحت ذرائع وتبريرات شتى وينسبون ذلك الى كونهم مأمورين وعليهم تنفيذ الواجب وهناك ممن ينسبون أفعالهم واذعانهم لأوامر السلطة الى الآية القرآنية " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم "، على إعتبار أن السلطة هي اولي الامر الذي تشير اليها الآية وان إطاعتها فرض حسب ما نصت عليه.

سيكولوجيــــــــة الجمـــــــوع (الجماهير)

يتناول كَوستاف ليوبون Gustav Le Bon تصوراته عن سيكولوجية الجماهير في ظل السلطة في كتاب له نشره عام 1895بنفس العنوان، بتحليلات قيمة إثر الفوضى التي أحدثتها الثورة الفرنسية، وكان ليوبون يخاطب الحكام ويحذرهم من غضب الجماهير، ويقول أن الجماهير حينما تنتفض فان الروح الجماعية هي التي تتحكم بهم وإن الجمهور يصبح ككائن بدائي واحد، ورغم إنه يتألف من عناصر متنافرة، لكنها متراصة الصفوف من أجل أهداف آنية، وتتلاشى شخصية الفرد الواعية عند إنخراطها بين صفوف الجماهير التي تسيرها الأفكار والعواطف الآنية وتطغى عليها النزعات العدوانية. ويعتبر كتاب سيكولوجية الجماهير أول دراسة في علم النفس الاجتماعي ظهرت حول ثقافة الجماهير وسيكولوجيتها. ورسخت هذا الجانب ظهور دراسة سيكَموند فرويد بعنوان "سيكولوجية الجماعة وتحليل الأنا" في عام 1921. ويشير جاي كونين (2000) Jay Gonen الى أن هتلر كان على إطلاع بنظرية ليوبون وكذلك بدراسة فرويد والدراسات المشابهة. ويقول كونين "لم تكن تعبئة الجماهير من قبل النازية بإستعمال الخوف والإرهاب فحسب وإنما كانت بالآحرى بسبب الخطابات الأيديولوجية النازية المستهدفة، التي كانت تتضمن جوانب سيكولوجية". فالوعي واللاوعي للشعب الألماني تحت النازية لم

يكن يمثل غير تعلق الألمان برجل واحد وبفكرة فرويد عن الأب المثالي ideal father.

يمكن إعتبار الجماهير ككيان ذات العقل الجمعي، مثلما تتجمع بالإتفاق والتألف بين أعضاء أفرادها، تتفرق عندما تدرك بأنها تتعرض الى تهديد مباشر. وتهتم قادة السلطة الإستبدادية بالعقل الجمعي نتيجة إهتمامهم بسيكولوجية الجماهير، وذلك لكي تمرر سياساتها العدائية ضد الجماهير ويسهل لها السيطرة علي تحركها وتفريق شملها قبل أن تشكل تهديداً جدياً للسلطة.

كثيراً ما يلجأ مرتكبي جرائم الإبادة الجماعية الى خلق الذرائع لتبرير جرائمهم بالقاء التبعية واللوم على الجماعات المستهدفة. أن الكثير من البحوث ركزت على فهم العلاقة بين التحامل والعنف ووضعت عدة نظريات التي خلصت الى شرح هذه العلاقة. ومن أقدم المحاولات لفهم تلك العلاقة هي نظرية تعرف بـــ"كبش الفداء" لـــ "رينيه كيرارد Rene Girard" التي تفترض أنه عندما تشعر الناس بالإحباط، كما في حالة تدهور الإقتصاد فإنهم يتوجهون بالقاء اللوم على جماعات مهمشة في داخل المجتمع. وعلى أساس ذلك فأن الموجودين في مواقع السلطة العليا يستخدمون الأساليب النفسية–الإجتماعية مع الجماهير على نطاق واسع لإحكام السيطرة على السلطة أو يقومون بإنشاء مؤسسات حكومية جديدة ذات برامج سياسية خاصة ويحكمون السيطرة على قنوات الدعاية والإعلام. وكمثال على تلك الممارسات التي تقوم بها السلطات في تمرير إرتكاب جرائم الإبادة الجماعية، قامت الطائرات العراقية بقصف مدينة حلبجة بالغازات السامة، ولجأ النظام العراقي مستخدما كافة الوسائل وخاصة الإعلامية منها، الى اظهار قوات البشمركة المناوئة للنظام كعملاء للأجنبي وإتهامهم بجلب القوات الإيرانية لإحتلال المدينة وعلى أن القوات العراقية قامت بالرد على هجماتهم لإسترداد المدينة دفاعاً عن الوطن وإنتقاماً منهم على عمالتهم، دون أن تشير الى إستعمال الأسلحة الكيمياوية المحرّمة دولياً. وتحت نفس الذرائع قامت القوات العراقية بإرتكاب جرائم الإبادة الجماعية في حملات الأنفال عام 1988. وهكذا وعند إستعمال العنف الجماعي أو القيام بالأبادة الجماعية، تكتمل عملية الإقصاء بإستبعاد الضحايا من دائرة الأخلاق، فلا ينظر اليهم كبشر منذ تلك اللحظة، وهم ليسوا الا ديدان ضارة لابد من إفناءهم أو أعضاء متفسخة يتوجب بترها.

العامل المهم الآخر هو تأثير الإجماع الخاطئ false consensus effect عندما تعتقد الناس بشكل خاطئ بأن إتجاهاتهم أو إعتقاداتهم ستتم الإجماع عليها من قبل أغلبية الناس الآخرين. طبقاً لـــ "باندورا Bandura "، إن مثل هذه الإعتقادات الجماعية تعطي تبريراً إجتماعياً للتحرر الأخلاقي، وبالتالي تخدم كبوادر للعنف الجماعي.

ومن خلال نظريته يناقش باندورا دور كل الأطراف: الضحايا، مرتكبي الجرائم، المساهمون فيها، والناس المتفرجون. وقد أكد بأن علاج الضحايا، أمر أساسي للتقليل من إحتمال تحوّلهم الى مرتكبي جرائم. وغالباً ما يشار الى نظريته بـــ "نظرية الحافز الثقافي الإجتماعي" Socio-cultural Motivation Theory لأنها تركّز على تعدد التأثيرات المتفاعلة التي تؤدي الى إزدياد حدة عنف المجموعة. وتركز النظرية على التغييرات لدى الفرد والمجموعة، وكيفية تفاعل العوامل المؤثرة.

هل تفـــادي إرتكـــاب الإبـــادة الجماعيـــة، أمـــر ممكـــن؟

قطعت البشرية شوطاً كبيراً من التقدم والتطور في كل المجالات. فالتقدم الهائل الذي تشهده العالم لاسيما التقدم التكنولوجي وسرعة تبادل المعلومات التي شهدت قفزات كبيرة و ساهمت في التطورات الحاصلة في كل الحقول الأخرى لهو أمر في غاية الأهمية لتحقيق الرفاهية للإنسان والعيش بسلام، وخاصة في تحسين مستوياته الإقتصادية والإجتماعية والصحية والتعليمية. ولكن في الجانب الآخر، فان هذا التقدم شمل نواحي خطيرة أخرى قد تكون لها آثاراً كارثية على الإنسانية إذا ما لم يتم إحكام السيطرة عليها. فقد تطورت الأسلحة والمعدات الحربية بشكل مذهل. فالقدرة التدميرية للصواريخ والقنابل زادت عشرات الأضعاف وأصبحت إنتاج الأسلحة النووية تشكل خطراً كبيراً على السلام العالمي. ولم تعد إنتاجها تقتصر على الدول الصناعية الكبرى، بل دخلت دول أخرى في مضمار إنتاجها وإجراء التجارب عليها وكذلك في إنشاء المفاعلات النووية، كالهند وباكستان وكوريا الشمالية وإيران. فيما لاتزال هناك بؤر للنزاعات والصراعات السياسية والعرقية. كما وإن المنافسة الاقتصادية بين الدول على أشدها، ولايزال هناك قادة وزعماء وحكام دكتاتوريين وأنظمة شمولية تتحكم في مصير الشعوب، وتسيطر عليهم حب الذات والنزوات والميول العدوانية ولايهمهم مصير الملايين من الناس. واذا ما إحتدمت الصراعات فأن الأمر ستكون في غاية الخطورة، وأن البشرية ستواجه كوارث حقيقة كبرى لايمكن التكهن بنتائجها.

يتطلب الأمر تكثيف أقصى الجهود في القيام بالأبحاث والدراسات الخاصة بالجوانب السيكولوجية المتعددة التي تلعب أدوراً كبيرة في التشخيص، والمساهمة في التقليل من حدة الصراعات وضبط الإنفعالات والتحكم في الدوافع. إضافة الى العمل على نشر التوعية العامة على مستوى عالمي بواسطة القنوات الإعلامية كافة، وضرورة إدخال برامج خاصة في المناهج التعليمية على جميع المستويات لتساهم في زيادة الوعي ونشر روح التسامح ونبذ الأحقاد والعنف، والدعوة الى اللجوء الى العقل والحكمة في تحويل مجرى الصراع عند نشوب الخلافات والنزاعات. وكذلك فإن خلق نظام عالمي جديد و إعطاء المزيد من الصلاحيات للمؤسسات الدولية المهتمة بفض النزاعات الدولية وإخراجها من دائرة هيمنة الدول الكبرى لهو أمر في غاية الأهمية لكي لا تواجه الشعوب المزيد من الحروب والمآسي والكوارث الإنسانية، وبهدف قطع دابر الممارسات التي ستنجم عنها الإبادة الجماعية وقتل الأبرياء أثناء نشوب الصراعات.

المصـــــــــــادر

1- Stanislav Grof, “Planetary Survival and Consciousness Evolution: Psychological Roots of Human Violence and Greed.” *Primal Renaissance:* The Journal of Primal Psychology 2(1): 3-26.

2- Lifton, JAY, (1986).The Nazi Doctors: medical killing and the psychology of genocide.
NY, Basic Books

3- Hall, Calvin S. & Lindsey, Gardner. Theories of Personality. New York: Wiley, 1978.

4 - المهدي، محمد (2004). سيكولوجية الاستبداد. موقع المانين على الانترنيت.
http://www.maganin.com/articles/articlesview.asp?key=168

5 - Crane, John (2007). The Psychology of Genocide. Available at: http://www.cranepsych.com/Travel/Bosnia/Genocide_psych.html

6- المصدر السابق.

7- Woolf, Linda M and Hulsizer, Michael R. (2005). Psychosocial roots of genocide: risk, prevention, and intervention. Journal of Genocide Research, 7(1), 101–128 .

8- سالم أحمد سالم (2007) حتى نفهم قضية دارفور: موقع سودانايل على الانترنيت
9- Kowalski, R. M. (Ed.). (2001). Behaving badly: Aversive behaviors in interpersonal relationships. Washington, DC: American Psychological Association.
10- Paulhus, D., & Williams, K. (2002). The Dark Triad of personality: Narcissism, Machiavellianism, and psychopathy. Journal of Research in Personality. Elsevier Science (USA). 36 PP.556-563
11- علي، بختيار. من الرغبة في القتل الى رغبة النسيان . السليمانية، مجلة ره هه ند ، (7)، 252-333.
12- Staub, E. (1989) The Roots of Evil: The Origins of Genocide and Other Group Violence (New York: Cambridge, University Press
13- المهدي، المصدر السابق.
14- ابو فوزة، خليل قطب (1996). سيكولوجية العدوان. القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة.
15- Woolf, Linda M and Hulsizer, Michael R. op. cit. P. 102
16- Ibid. P. 103
17- Milgram, S. (1974). Obedience to authority. New York: Harper & Row.
18- Attribution theory, available at: http://en.wikipedia.org/wiki/Attribution_theory
19- Le Bon, Gustave (1895). The Crowd: A Study of the Popular Mind. Retrieved on November 15, 2005.
20- Jay Y. Gonen. The Roots of Nazi Psychology: Hitler's Utopian Barbarism. Lexington: University of Kentucky Press, 2000. 224 pp.
21- Engle, Phillip (2005). Scapegoat theology and the Problem of Violence. Greensburg, PA: Laurel Highlands Media.
22- Crane, John. op. cit.

* ورقة مقدمة الى المؤتمر العالمي للتعريف بجرائم الابادة الجماعية ضد شعب كوردستان المنعقد في هولير/ أقليم كوردستان للفترة من 2008/1/26 ولغاية 2008/1/28

Arabpsynet Links

Arabic Edition
http://www.arabpsynet.com/HomePage/Psy-Links.Ar.htm
English Edition
http://www.arabpsynet.com/HomePage/Psy-Links.htm
French Edition
http://www.arabpsynet.com/HomePage/Psy-Links.Fr.htm

Arabpsynet Reviews

Arabic Edition
www.arabpsynet.com/HomePage/Psy-Reviews.Ar.htm
English Edition
www.arabpsynet.com/HomePage/Psy-Reviews.htm
French Edition
www.arabpsynet.com/HomePage/Psy-Reviews.Fr.htm

ePsydict C – Complete Edition (CD)

Arabic English French - French English Arabic - English Arabic French

تنزيل النسخة التقييمية من الإصدار الكامل
www.arabpsynet.com/HomePage/ePsyCs.exe

ePsydict EF – English - French Edition (CD)

English French - English French

تنزيل النسخة التقييمية من الإصدار الإنكليزي الفرنسي
www.arabpsynet.com/HomePage/ePsyEFs.exe

البنيـــــــــة النفسيـــــــــة للفاشيـــــــــة و الشخصيـــــــــة التسلطيـــــــــة

تحليـــل النـموذج الصهيـوني

أحمـــــد مصطفـــــى جابـــــر – دمشـــــق، سوريـــــا

mohammed_gh456@yahoo.com ; a_m_harthi@yahoo.com

في تحليل صار يعتبر كلاسيكيا للفاشية انطلق أدورنو الإيطالي في مقياسه الشهير[1] من فرضية مفادها أن الاعتقادات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تشكل نمطا واسعا متماسكا يعبر عن نزعات عميقة في الشخصية، وفسروا البناء الشخصي لأصحاب الشخصية التسلطية من خلال ضعف (الأنا) التي تتوق إلى بناء قيمي سليم مما يدفع لتعويض ذلك بالبحث عن مصادر خارجية يستندون إليها في خلق بناء قيمي شكلي خاص بهم، وان كان في حقيقة الأمر لا يعبر عن قدرة ذاتية حقيقية متميزة. وهكذا بإمكاننا تلخيص سمات الشخصية التسلطية عند أدورنو وزملائه: بالتقليدية والالتزام بقيم الطبقة الوسطى المحافظة والقبول غير النقدي بالسلطات ورفض ومعاقبة الخارجين على القيم التقليدية ومعارضة التفكير التأملي والتمسك بالمزاجية والنمطية وإسقاط الدوافع الانفعالية واللا شعورية على الخارج والافتتان بالقوة واحتقار العلم والتركيز المفرط على القضايا الجنسية [2].

وقد انتقد روكيتش الاستناد إلى هذا المقياس (أدورنو وزملائه) لقياس الفاشية لأنه نشر أصلا على أساس أنه مقياس للتسلطية ، وقد اعتبر أن الانتقال من الفاشية إلى التسلطية يمثل انتقالا من الخاص إلى العام، فالتسلطية عند ميلتون روكيتش أوسع من الفاشية التي يعتبرها (تسلطية يمينية)[3] وهو يرى أن مقياس الفاشية يقيس جانبا واحدا من جوانب التسلطية مركزا في تحليله على التصلب والجمود.

ويشير التصلب إلى عجز نسبي عن تغيير الشخص لسلوكه واتجاهاته عندما تتطلب الظروف الموضوعية ذلك والتمسك بطرائق غير ملائمة للسلوك والشعور، و التصلب يمثل مقاومة اللجوء إلى أنواع جديدة من الاستجابات التكيفية[4] . ويتصل التصلب بمفاهيم أخرى أهمها (عدم تحمل الفوضى) الذي تحدث عنه فرانكل برونشفيك والمقصود به الرغبة بالتعامل مع كل شيء على أنه أبيض وأسود وهكذا يقسم الفاشي العالم إلى أقسام، فهناك أنا والآخر، نحن والغوييم.

ويرتبط التصلب بمفهوم الجمود أي «مقاومة التغيير بالنسبة للأنساق كلية المعتقدات فالجمود خاصية للنسق الكلي للمعتقدات التي تعيق صاحبها عن إحداث تغيير[5] فمرجع سلوك الذهن الجامد هو النسق الكلي للأفكار أكثر منه فكرة واحدة.

ويشير مفهوم الجمود عند روكيتش إلى مجموعة من المظاهر السلوكية المعرفية المتعلقة بالأفكار والمعتقدات المنتظمة في نسق ذهني مغلق مسبقا. فهو طريقة منغلقة على التفكير مرتبطة بأيدلوجية، بصرف النظر عن مضمونها، وبنظرة تسلطية في الحياة وعدم احتمال الأشخاص الذين يختلفون ويعارضون المعتقدات الخاصة بأصحابها.

يرتبط الجمود بنظرة الفاشي إلى ثبات العالم، فالعالم عنده كيان ثابت معطى مسبق، وهو على صورته (للمصادفة) يتعين عليه مجرد التكيف معه، وأي خروج عن هذه القاعدة تحيل الفاشي إلى الاضطراب والبحث عن موازنة فورية وإعادة تقويم لاستعادة المنظور الملائم والمألوف، وهكذا بعد استخدام كل الحيل تلجأ الفاشية إلى العنف المتسم إرهابا.

ونظرة الفاشي (الصهيوني نموذجا) إلى ثبات العالم تنعكس في الصورة المنمذجة التي يقدمها عن الآخر، فالعرب والمسلمون في نظره، متخلفون، بدو مغامرون، محبون للجنس بشكل مثير للاشمئزاز، كسالى وخاملون، وشرقيون عموماً، والفلسطينيون في الذهنية الصهيونية إن لم يكونوا ديداناً أو صراصير حسب الحاخام عوفاديا يوسف، فهم إرهابيون، قتلة، مخبولون، أفاع وكلاب، معادون للسلام.

واستكمالا لنظرة أشمل يركز روكيتش على (المجاراة) (conformity) فإن الشخص يستجيب كما تريد منه الجماعة أو طبقا لتوقعاتها، وهو لا يعتقد فيما يفعله بصورة واقعية، فهو يساير الجماعة دون اتفاق (بينه وبين نفسه) خاصة معها[6].

يحيل هذا المنطق إلى نقص في المرونة الفكرية، يرتكز على ثوابت ومسلمات لا تقبل النقاش لأنها محاطة بدلالات وجدانية وشحنات لا شعورية تجعل كل نقاش مهدد لثبات الحياة ومعناها.

ترتبط هذه الصفة بسلوك الاستبرار الذي يتبعه الفاشي وهي عملية نفسية علائقية تهدف إلى تبرير العدوان على الغير من خلال تأثيره، كما يحدث، رد فعل براءة للذات، وعندما تضطرب شخصية الفاشي وتتبدد سكينته لأسباب موضوعية أو ذاتية فان السلوك المتوقع هو البحث بكل الوسائل عن إعادة النظام للعالم الذي ينهار من حوله واستعادة السكينة والأمن الداخلي، فيبحث عن آخرين مطابقين له، يجدهم في عشيرته أو حزبه أو شيعته، ويشكل هؤلاء الآخرون صورة تكاد تكون امتداداً بيولوجيا للأم الحامية، ويلعبون دور (الحضن الطيب) حسب تعبير ميلاني كلين[7].

حيث يسود التماثل ويطغى نقاء المجموعة، ويتجسد النظام الطبيعي، و نلاحظ من جديد أن المجموعة التي تضيق بأي نقد تشعر أنها مهددة نرجسيا عندما يخاطر أحد بمناقشة قناعاتها أو بإبراز نقاط ضعفها.

قد يكون مفيدا أن نلفت النظر إلى أن من يقرأ تحليل لوكاتش المذهل للآثار السيكولوجية للمعاناة الألمانية إثر هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، يلحظ بين السطور تاريخ الولايات المتحدة بعد 11 أيلول، لقد أنتجت هزيمة الحرب الأولى هتلر وحزبه النازي، موسوليني وحزبه الفاشي وتحولت الأنا المضطربة الألمانية والإيطالية إلى نظام فاشي والمؤشرات جميعها تحيل إلى هذه الأنا المضطربة نفسها المسيطرة على المجتمع الأمريكي بعد 11 أيلول فيصبح التحرش بالفاشية أشبه بإيقاظ وحش نائم وربما تكون الحسنة الوحيدة (بتحفظ) التي تنتج عن هذا التحرش، عن مهاجمة العالم المنظم للفاشية هي أنه في لحظة البحث عن الانتظام وإعادة الضبط لنظامه وسلوكه يكشف عن وجهه الحقيقي وتتبدد دفعة واحدة جميع الأقنعة المستعارة التي تم الركون إليها للاختباء خلفها في لحظات الهدنة مع العالم النازع للتمرد.

الفاشيـــــة باعتبارهـــــا استبـــــداداً:

يشير التحليل (النفس – اجتماعي) أن الفعل المؤسس للاستبداد هو فعل

يكتسب الاستبداد معناه السيئ من كونه اغتصابا واحتكارا للحق المشترك مع الآخرين، فهو فعل يقوم على الاستحواذ والاستيلاء والسيطرة على شيء هو حق مشترك مع الغير[8].

والاستبداد في إفادته معنى الانفراد فإنه يتضمن دون شك نفي الآخر وعدم الاعتراف به مشاركا في الحق العام

والاستبداد يحول العلاقات بين الأفراد من علاقات تحكمها وتنظمها قوة الحق إلى علاقات تضبطها محض القوة.

نجد توافقا كبيرا وشبه تطابق ما بين الاستبداد والشمولية بمحتواها الفاشي، فإذا كانت الشمولية ترتكز على عنصر التركز حول الذات (الإيكوسنترية) ما يعني الميل إلى رد كل شيء إلى الذات، فهي أيضا ترتكز على الإثنوسنترية ما يحيل إلى ميل للحكم على كل شيء بمعايير الرهط الاجتماعي الذي ينتمي إليه الفرد[9].

أو كما يلحظ ماكس فيبر[10] أن المؤسسة الاستبدادية هي مفهوم نوعي يجمع سمات لطبقة كاملة من المؤسسات المتخصصة في التحفظ على الأشخاص والضبط الاستبدادي لنمط حياتهم. وفي مقال نشره الفيلسوف الإيطالي جيوفاني جنتيلي بعنوان «الأسس الفلسفية للفاشية» استعمل صفة التوتاليتارية totalitarian بمعنى الإحاطة والشمول واحتواء كل شيء في صفة للنظام الفاشي[11].

أما الاستبداد بمعناه النفس فرويدي فقد لحظ أنه يستعمل بالترادف مع مفهوم المتسلط، باعتباره شخصية مرضية، تتصف بالزورية (البارانوئيدية paranoid) بمعنى الاتصاف بالتوقع الدائم أن الآخرون ينتقصون من قيمة الفرد، أو يحاولون إلحاق الأذى به أو تهديده، على شك دائم بإخلاص وصدق المحيطين به دون مبرر وفرط باليقظة والانتباه والانزلاق بسرعة إلى الحنق ووهم الشهرة وعدم التسامح مع أي سلوك يتم تقييمه على أنه مهين، وعدم الثقة بالآخرين بسبب الخوف الدائم من إمكانية استغلال أي معلومة ضده، نلاحظ هنا تطابقا تاما مع سيكولوجيا الحصار والبحث عن الأمن واختراع الأعذار لتشديد الحصار الداخلي واتخاذ موقف عدائي تجاه الخارج. لقد رأينا أن الصهيونية تضيق بأي نقد، وتغضب بشدة إزاءه فيصبح الناقد إذا كان يهوديا وكارها لذاته، ومرتدا عن قيم الشعب اليهودي، أما إذا لم يكن يهوديا فهو ببساطة (لا سامي) ويعلم الجميع كيف تستخدم الصهيونية المحرقة بشكل تجاري أرعن لاحتكار المأساة وتظهير نفسها باستمرار محتكرة دور الضحية لليهود، مبررة سلوكها مسلك الجلاد بهذا الاحتكار الوقح.

أما النرجسية فهي صفة أخرى من صفات هذه الشخصية، وباختلاطها بالتعصب بأشكاله تعطي نتائج كارثية، لتتميز بالتعجرف والنقص في التعاطف وفرط الحساسية تجاه آراء الآخرين و إعزاء العنصر الايجابي للنفس وإسقاط النوازع السلبية على المختلف الذي لا ينتمي للرهط فتبالغ في إنجازاتها وحسناتها وتتوقع من الآخرين أن يعترفوا لها بالجميل بصورة خاصة بمبرر أو بدونه ، وتستحوذ على النجاح والشهرة والتألق هذا النمط من الناس غالبا ما يمتلك مشاعر مزعزعة بالقيمة الذاتية وتعتبر آراء الآخرين واعترافهم به مهمة جدا، ويستجيب لأي نقد سلبي، بالغضب أو بمشاعر الإهانة أو الإذلال ويميل هذا النمط لاستغلال الآخرين و استخدامهم جسرا لتحقيق أهدافه الخاصة مع نقص في التعاطف معهم أو الحساسية لهم[12] لذلك تعمل الفاشية على خلق المسافة مع الآخرين والبعد عنهم، فكلما ازدادت المسافة بين (الأنا والآخر) كلما اطمأنت الأنا وخف قلقها.

والسادية من جهة أخرى سمة لازمة للفاشية (نتحدث هنا عن الفاشية كنظام وبنية وليس عن أفراد منتمين إلى الفاشية) ، بتعبيرها عن سلوك عدواني وعنيف وقاس تجاه الآخرين من اجل تحقيق السيطرة في العلاقات الخارجية ويحافظ أصحاب هذا النمط على السيطرة على الآخرين من خلال وسائل تتراوح بين الإرعاب والإرهاب اللفظي وصولا إلى سوء المعاملة الجسدية، وغالبا ما يستمتعون بإيلام ضحاياهم أو إهانتهم وفي الغالب يقيدون حرية الأشخاص مع ولع شديد بالأسلحة. وهكذا تصبح السادية حسب إيريك فروم[13] «الشغف بالحيازة على رقابة موجود حي رقابة مطلقة»، فإرغام أحد أن يتحمل الألم والإذلال دون أن يكون بوسعه الدفاع عن نفسه يكون مظهرا من مظاهر الرقابة المطلقة.

لقد شاهد العالم بأسره ذلك المظهر–الذي تكرر كثيرا في الحقيقة– عندما اقتحمت القوات الإسرائيلية سجن أريحا وأرغمت عشرات الأشخاص العزل على الوقوف عراة أمام عدسات التلفزة في تلذذ واضح بعذاب الضحية وبدون أي مبرر سوى الإذلال والرغبة في إظهار التحكم الكامل عبر تحطيم أرواح البشر، وأكثر من ذلك في سلوك تصوير الضحايا وهي من سلوكيات الفاشيين المعروفة في الهند وألمانيا وإسرائيل والشيشان والأمريكتين والعراق.

كل هذا يشير إلى ضعف الشخصية الفاشية في أعماقها، فالقوة تعني شخصية واثقة من نفسها مرنة تقبل النقد من الآخرين، منطقية وديمقراطية، تحترم إمكانات الغير، بينما الشخصية الفاشية تتستر خلف جمودها وسلطويتها من أجل قمع الآخرين وعدم إظهار ضعفها، عاجزة عن النقاش المرن الديمقراطي وعاجزة عن تقبل الآخرين وتقبل الحقائق المنطقية وتصبح القوة هي المرجع الأساس للعلاقة بحق الآخرين والموقف منهم.

البنيـــــة النفسيـــة للنظـــام الفاشـــي في إسرائيـــل:

في إحدى مقابلاته سئل الكاتب البيروني الكبير ماريو فارغاس يوسا فيما إذا كان «يمكن القول أن الشعوب والطغاة يتقاسمون مسؤولية الأنظمة الاستبدادية؟ » فأجاب «هل كان باستطاعة فرانكو أن يكون موجودا دون الأسبان، هتلر دون الألمان، ماو دون الصينيين؟ بإمكان جميع الشعوب في بداية أي نظام استبدادي أن تقاوم، ولكن الحقيقة أن أغلب الديكتاتوريين ينجحون لبرهة في جذب وإغراء أكبر شريحة من الجماهير، وإذا استثنينا الدعم العسكري نجد أن الطغاة يأتون لأننا نطلبهم، كان تروجيللو شعبيا جداً إلى درجة أن الشعب الدومينيكي لو كان التقى القتلة ليلة اغتياله لافترسهم، ما أريد توضيحه أن الديكتاتورية ليست فقط الإذلال والتعذيب والقهر وإنما هي أيضا انهيار بطيء لمجتمع بأكمله»[14].

أظن أن قارئا حصيفا بإمكانه أن يطور بقليل من التمعن أطروحة يوسا الآنفة، فبالنسبة للنموذج الإسرائيلي ليس الأمر مجرد ديكتاتور جاء إلى سدة الحكم وإنما هو موضوع مجموعة بشرية كاملة تجمعت من أطراف الدنيا لتقيم دكتاتوريتها على أنقاض شعب آخر، وهكذا لم يكن انتخاب فاشي كشارون أو ليبرمان أو شاؤول موفاز أو بيرس مجرد صدفة في تاريخ السياسة الشعبية الإسرائيلية، وإنما هي النتيجة الطبيعية التي يفرزها مجتمع من هذا النوع، لقد حصلت الأحزاب المعادية كلياً للشعب الفلسطيني والسلام على ما يزيد على 50 صوتاً في الكنيست السابعة عشرة، إذ حصل شاس الحزب الديني الرجعي على 12 مقعدا، والليكود اليميني المتطرف على 12 مقعدا و الحزب الفاشي الذي لا يخجل من الإعلان عن نفسه إسرائيل بيتنا على 11 مقعداً، والاتحاد الوطني والمفدال على 9 مقاعد وحزب المتقاعدين بقيادة مجرم الحرب ايتان على 6 مقاعد وهذا كله من أصل 120 مقعدا دون ذكر الفاشيين في كديما والعمل وميرتس أمثال موفاز وديختر ويعالون وبيرس وتساهي هنغبي وغيرهم كثير.

ولكن كيف يمكن أن تتحول جموع غفيرة من الناس إلى منظومة منضبطة للقتل والإرهاب والكراهية؟ لقد ذكرت حنة أرندت إن «افتتان

الدهماء بالشر والجريمة افتتاناً أكيداً ليس بالأمر الجديد، إذ طالما ثبت أن الرعاع يرحبون بأعمال العنف قائلين بإعجاب "لئن كان ذلك غير جميل فإنه بالغ القوة بالتأكيد" »[15] حنة آرندت تقدم مشروعا للإجابة في تحليلها «لتفاهة أو بساطة الشر»[16] حيث عندما تمت محاكمة (أيخمان) أحد جلاوزة النظام النازي الذي لم تكن علاقته سلبية تماما بالصهيونية وقادتها، والذي تسبب بموت الآلاف في غرف الغاز، بحث الكثيرون عن الخطأ الأساسي في التركيبة النفسية لهذا الإنسان، فلم يجدوا شيئا، فالرجل «كان يقوم بعمله فقط»، كان بيروقراطيا ينفذ التعليمات على أفضل شكل ممكن، على العكس تماما، الرجل كان منظما ونظيفا ولطيفا في تعامله، يذكرنا هذا الوصف بتعليق يوسي سريد زعيم ميرتس على «دماثة ولطافة وحسن أخلاق» الفاشي ليبرمان بعد عشاء حميم بينهما، ولكن ليبرمان ليس مجرد أداة للنظام بل جزء لا يتجزأ منه. ولا بد من الاعتراف أن هذا التحليل قد يفارق تحليلنا السابق لشخصية الفاشي. ولكن استكمالا لتحليل أرندت أثبتت تجارب ستانلي ملغرام حول (مدى الانصياع للسلطة) [17] أن معظم الناس العاديين يمكن أن يتحولوا إلى وحوش من الناحية الأخلاقية، يعذبون الأبرياء بدون روادع أخلاقية تذكر، إذا وضعوا في ظروف مناسبة من حيث طاعة السلطة، تصرفات الجنود الإسرائيليين الشبان الذين لا تتجاوز أعمارهم الثامنة عشرة على الحواجز التي يقيمها الجيش الإسرائيلي من تنكيل وتعذيب وإهانة للفلسطينيين تندرج تحت هذا التحليل.

وقد توصل البروفيسور دانيئيل بارطال من جامعة تل أبيب ورئيس المنظمة العالمية لعلم النفس السياسي[18] إلى النتائج التالية: 1- الشعب اليهودي في إسرائيل غير طبيعي، مفرق ويعاني من انقسام حاد، معسكر قومي جبري يقول بـ (لا حل للنزاع في الشرق الأوسط) ومعسكر حمائمي مضغوط هستيري وكلاهما يهرب من الواقع، الأول يتنكر لعلاقة السلام والثاني يهرب من المسؤولية إلى عالم الخيال. 2- عن السبب النفسي للخوف من التغيير يقول بارطال أن إسرائيل استثمرت الكثير في النزاع مع العالم العربي من ناحية عسكرية واقتصادية ومعيشية وتم تشديد أيدلوجية تفسر وتبرر هذا السلوك، من الصعوبة تغييرها«أسهل أن نواصل رؤية السلبيات لدى الخصم من أن نبذل جهدا لرؤية ألوان رمادية داخل اللون الأسود». 3- استذكر بارل طال «في تجربة وضع المجتمع الإسرائيلي على أريكة المحلل النفسي» أبحاثا كان أنجزها في السابق ودلت على أن الأطفال اليهود منذ عمر الثانية والنصف يتكون لديهم تصور سلبي عن العرب ويبقى العربي في تصورهم مفردة ملازمة لصفات سلبية شريرة. وقد فحص منذ أكثر من عشر سنوات كتب التدريس العبرية فوجد أنها لا تنفك تكرس النزاع وتمجده، وفي فحص متجدد عام 2002 وجد أن كتب التدريس العبرية ما تزال تعاني من التثبت بالماضي، ويقول «يبدو أن السلام بقي خارج حدود المدرسة».

عقــــــد الصهيونيــــــــــة:

يعرف (هيسنر)[19] العقد بأنها ليست أشياء غريبة ملقاة في أعماق الوجود، وقابلة للصعود إلى سطحه، بل منظومات من التصرفات الحاضرة بصورة مستمرة، هي أجزاء من التصرف لم تكن أبدا موضع الاندماج بصورة تامة، معزولة أو مجزأة، مستمرة مثلما كانت قد أثيرت متصلبة جاهزة على نحو مستمر لأن تنطلق.

ثمة ظاهرتان ترتبطان بالعقدة: الأولى شمولها أوضاعا أخرى غير الأوضاع التي تثيرها بصورة مباشرة، والثانية هي انطلاق رد الفعل لمجرد إشارة تلخص وضعا متميزاً.

تنزع العقدة إلى نقل العدوى إلى كلية الوجود، مثل هذا التشوه للواقع وللسلوك العقدي مميزان أساسيان الأول انه سلوك مفرط يتجاوز الحد، مثال إضافة لإضفاء المأساوية على الوضع، والثاني انه سلوك ذو قوالب جامدة رتيب ومتكرر[20]

عقـــــدة المســــــادة: تفكيـــــــك أسطــــــورة

ارتبطت الأسطورة المسماة بهذا الاسم بقصة رواها مؤرخ واحد يدعى يوسيفوس فلافيوس من التابعية الرومانية وقد رافق الجيش في حملته على فلسطين في القرن الأول للميلاد[21]. وهناك روايتان للمسادة، واحدة سائدة، مختلقة مزيفة، وأخرى رواها يوسيفوس وإن لم تكن بالضرورة حقيقية لكنها تلتزم بمعايير التأريخ الكلاسيكي الرصين.

ومفاد القصة حسب يوسيفوس: أن مجموعة من العبرانيين تحسبوا لمواجهة الرومان فصعدوا إلى جبل مسعدة قرب البحر الميت مع عوائلهم من نساء وأطفال، وتحصنوا في قلعة أعلاه وبلغ تعدادهم 960 شخصا، وتضيف الرواية أن هؤلاء فضلوا الانتحار وقتل نسائهم وأطفالهم بأيديهم اذا ما اقتحم الرومان القلعة على الاستسلام.

وقد أشار يوسيفوس(المؤرخ الوحيد للحادثة) أن هؤلاء كانوا مجرمين وقطاع طرق، وهم من جماعة السيكاري المتعصبة اليهودية التي ازدهرت في زمن ما أصبح يعرف بالثورة الكبرى ضد الرومان (66-73م) ودعت إلى ممارسة الإرهاب والاغتيالات، وارتكبت مجزرة عين جدي ضد الفلسطينيين آنذاك، ووصفها يوسيفوس«إنها عصابة من القتلة هلكت في أعلى المسادة»[22].

رغم وضوح النص التاريخي حول حقيقة المجموعة التي هلكت في المسادة إلا أن قادة إسرائيل ومؤرخيها وكتاب صهاينة حولوا القصة إلى دراما شعبية إسرائيلية عبر التحرك باتجاهين: أركيولوجي وفولكلوري.ورغم فشل الإثباتات الحفرية وخبو الحماس العلمي للقصة إلا أن الصهاينة واصلوا حماسهم الفولكلوري عبر العمل على استثمار قصة المسادة وتحويلها إلى دراما شعبية تستقطب عواطف اليهود وغير اليهود من ذوي الإيمان التوراتي. فتحولت القصة إلى (أسطورة قومية) ترمز إلى (نهوض قومي يهودي) وتشبع نوعا من الشرعية التاريخية على وجود دولة إسرائيل، ما يولد قناعة لدى المستوطنين اليهود بأنهم أحفاد ماض مجيد، وأن استعادة هذا (الماضي المجيد) لا تتم إلا بتعزيز سيادة دولة إسرائيل وضمان استمرارها، وكرمز له هذا البعد تولد قصة المسادة إحساسا بالتناغم والتضامن بين المستوطنين القادمين من خلفيات حضارية متباعدة. وقد مارست الرواية الأسطورية التأثير على ملايين الإسرائيليين بمن فيهم شخصيات معروفة في النخبتين السياسية والعسكرية.

في تجربة شخصية لاكتشاف حقيقة المسادة أتيح لنحمان بن يهودا المؤرخ الإسرائيلي أن يكتشف أنه قد تم استغلاله وخداعه في نظام التربية الإسرائيلي وفي الجيش وفي منظومة معرفية متكاملة حيث يقول إنه حصل عن المسادة على معرفة «لم تكن خاطئة وحسب، بل كانت شديدة التحيز أيضاً»[23]. حيث «لم تكن المسادة مجرد حكاية تروى بل زودت هوية جيلي من اليهود الإسرائيليين بعنصر هام من عناصر تعريف هويتنا اليهودية والإسرائيلية».

ويشير بن يهودا هنا إلى منظومة المعتقدات الهامة التي تم تسريبها له ولمئات الآلاف غيره واتضح إنها قائمة على سلسلة من الغش والمزاعم المغرضة والمزيفة أيضاً، هذه المنظومة لا تشكل بناء بالغ الأهمية لتطوير عقول الشباب فحسب بل تشكل حجر الأساس لشعب برمته.

ولقد شكك الكثير من العلماء ليس في صحة النسخة الصهيونية من الرواية فقط بل في صحة رواية يوسيفوس الأصلية، وأبرز هؤلاء عالم الآثار اليهودية شعيا كوهين الذي أشار إلى أنه شخصيا عثر على ست عشرة رواية مشابهة لرواية يوسيفوس ترجع إلى حضارات مختلفة وتنتمي إلى نفس العصر الذي عايشه المؤرخ. و الأسلوب الملحمي الذي استخدمه يوسيفوس كان هو الغالب في تلك الفترة[24] ناهيك عن أن يوسيفوس شخصيا لم يكن شخصا جديرا بالثقة.

وكان برنارد لويس أحد أوائل الباحثين منذ 1975 الذين اتخذوا موقفا صارما من رواية المسادة، وهو بانتمائـــه إلـــى المنظـــور الاســـتدلالي الاجتماعي في تفسير الذاكرة الجمعية يؤكد أن الرواية الحديثـــة للمســـادة تشكل إحدى الحالات في ما يدعوه «التاريخ المختلق». بـــدورها قـــدمت شارغل عام 1979 ما يمكن اعتباره أول محاولة تفصيلية لفهـــم الروايـــة الأسطورة للمسادة كأسطورة سياسية تقوم على حدث تاريخي محـــدد ثـــم تستخدم التحليل الوظيفي حسب كتابات دوركهايم وماليونوفسكي للقـــول أن أسطورة المسادة لعبت دورا حاسما في المجتمع الإسرائيلي كوسيلة لتحقيق الشرعية الاجتماعية والدمج في المقام الأول. حيث أن التماهي مع المسادة يؤكد ادعاء اليهود بالشرعية على هذه الأرض حسب أطروحـــة برونـــر وغورفين (1984) التي تفيد أن أسطورة المسادة مثلت غلافـــا خارجيـــا للأيدولوجيا كما أسهمت في خلق الانضباط الاجتماعي وبلـــورة الهويـــة الفردية والقومية وبلورة صلة روحية قوية مع يهود اعتبرهم الإسرائيليون محاربين شجعان قبل ألفي عام ممـــا مـــنحهم الإحســـاس بالاســـتمرارية والتواصل مع الماضي البعيد ومع الأعمال السامية البطولية.

وفي كتاب صادر عام 1992 طرحت أنيتا شابيرا فرضـــية أساســـها القول أن استعانة الصهيونية العلمانية بقصة المســـادة وتوظيفهـــا كـــان المقصود منه إضفاء الشرعية على استخدام العنف[25] .

ولعل ذلك يتجلى في أن النوازع اللاواعية لدى قادة إسرائيل تكشـــف عن أزمة مع الذات وتشير إلى نزوع نحو انتحار جماعي. حيـــث تأخـــذ الأسطورة طابع (قوة محركة) تدفع قادة إسرائيل نحو تحقيق تماثل بـــين مصير أبطال الأسطورة ومصيرهم.

وفي سبيل هذا التماثل يعيش هؤلاء القادة في حالة هوس للربط بـــين واقع خيالي ماض وواقع حالي لا بد من جعله بطوليا، وكان الصـــحافي الأمريكي ستيوارت ألسوب في النيوزويك إبان السبعينيات أول من لاحظ نزوع قادة إسرائيل في مسلكهم السياسي والدبلوماسي نحو محاكاة الحالة الانتحارية الماثلة في قصة المسادة. جاء ذلك في معرض تعليقـــه علـــى مواقفهم المتشددة أثناء المفاوضات مع مصر أواسط السبعينيات. وقد ردت غولدا مائير على ذلك الصحفي في مؤتمر صحفي أثناء زيارتها لواشنطن فقالت «نعم يا سيد ألسوب نحن عندنا عقدة المسادة، وعقدة الهولوكوست وعقدة أفران الغاز»[26].

فـــــــــرادة الضحيـــــــــــــة:

تعتبر فكرة الضحية مسألة حاسمة في تمثيل الواقع اليهودي والهويـــة اليهودية من زاوية مشروع التحرير الصهيوني[27] «الذي استند بحزم إلى أسطورة ضرورة تخليص اليهود من منافهم ومن عـــذاب المنفـــى عبـــر جمعهم في أرض الميعاد» أصبح كل مطلع يعرف زيف هذه الأســـاطير ولكن تحليلها باستمرار يبقى ضروريا لكشف وقاحة الصهيونية وزيفها في سبيل دحضها النهائي.

ورغم ولع مؤرخي الصهيونية وأنصارها بروايـــة تـــاريخ اليهـــود كضحايا أبديين لكراهية دائمة وشاملة، إلا أن فكرة أنه بالإمكان روايـــة تاريخ ضحايا آخرين، بل وأن جزءا منهم هم ضحايا «القومية»اليهودية، تثير معارضة عنيفة، ففي حالة المؤرخين الليبراليين تصيبهم مثـــل هـــذه الطروحات بعمى أبستمولوجي والى بلبلة فكرية، وتتكشف عندها عدميتهم ولا عقلانيتهم ومفارقة طروحاتهم للمنهج العلمي، وهكذا ينكشف الخطاب الصهيوني، وما يلحق به عن أعراض عدم الراحة من مجـــرد فكـــرة أن اليهود أنفسهم أنتجوا ضحايا، والتفسير السائد للتاريخ لا يفســـح مجـــالا للحديث عن اليهود كمضطهدين جماعيين على امتداد ســـنوات التـــاريخ الصهيوني منطلقا من أن اليهودي واستمراره الإسرائيلي هو ضحية فقط.

الهولوكوســت: فــرادة الضحيـــة وضعـــف المنفـــى

تعتبر دراسة (الهولوكوست) فرصة لإلقاء الضوء على حالة فريدة من سياق مختلط شديد التعقيد من عوامل سيكولوجية وسياسية واقتصادية في إطار أيدلوجي تضليلي نادر!!

تشير القصة الرسمية الإسرائيلية إلى أن «الكارثة (بالعبرية شوآة) هي الفظائع التي حلت بالشعب اليهودي إبان الحكم النازي في أوربا في الفترة من 30 كانون ثاني 1933 عندما أصبح هتلر مستشارا لألمانيا وحتـــى 8 مايو أيار 1945 (يوم النصر) عندما انتهت الحرب في أوربا.

و بغض النظر عن حقيقة الهولوكوست التي ليست موضـــوع هـــذا البحث، ولكن المهم هنا هو الطريقة التي تم خلالها استبطان الهولوكوست كمركب داخلي وعنصر أساسي في الشخصية اليهودية الحديثة. وإظهـــار كيف انه (وكما في موضوع المسادة) تم تصـــوير المحرقـــة مـــن قبـــل الصهيونية بشكل أيدلوجي ينطبق عليه ما قاله جون ستيوارت مـــل منـــذ زمن بعيد عن أن «الحقائق التي لا توضع موضـــع التحـــدي المســـتمر ستتوقف في نهاية المطاف» عن أن تمتلك وقع الحقيقة، لأن تلك الحقائق ضخمت حتى غدت باطلا»[28].

ولم تستخدم حكاية الإبادة النازية لليهود لتبرير السياسات الإجراميـــة لدولة إسرائيل كما يذهب فنكلشتاين[29] فحسب، بل أيضا لإعادة صـــياغة الهوية اليهودية وتشغيل ماكينة بوتقة الصهر المروعة، التي لا تقل بشاعة في الحقيقة – وان رمزيا- عن (غرف الغاز) الهتلرية، وقد يبدو هذا حكما أخلاقيا لا يليق بدراسة تتوخى العلم منهجـــا، غيـــر أن دراســـة تـــاريخ الجماعات اليهودية المهاجرة إلى إسرائيل وخصوصا اليهود الشـــرقيين، وعمليات محو ذاكرتهم وتاريخهم وإعادة إنتـــاجهم كـــأجزاء مـــن آلـــة الصهيونية التي لا ترحم تثبت هذا الحكم الذي ذهبنا إليه[30].

هكذا أصبحت «ذكرى الإبادة النازية بعد أن مررت من خلال موشور أيدلوجي أداة فعالة في يد القيادة الإسرائيلية واليهود في الخارج»[31].

وقد لاحظ الكاتب الإسرائيلي المعروف يواس ايفرون أن «الـــوعي بالهولوكست»هو في الواقع «عملية تلقين دعائية رسمية، تمخض عنهـــا شعارات وتصورات زائفة عن العالم، وليس هدفها فهم الماضـــي علـــى الإطلاق بل التلاعب بالحاضر».

وقد صيغ الهيكل الأيدلوجي للهولوكست على ما يذهب فنكلشتاين على مذهبين جامدين (دوغماوين) مركزيين، الأول: أن الهولوكوســـت تشـــكل حدثا تاريخيا فريدا بصورة مطلقة في تأكيد على (الفـــرادة) والثـــاني أن الهولوكوست تشكل ذروة كراهية أبدية لا عقلانية يكنها الأغيار لليهود.

وهنا بالضبط يأتي القبول الصهيوني بمصطلح (الهولوكوست) تعبيراً عن عملية (إبادة اليهود) من قبل النازيين حيث أن في هذا القبول تأكيـــد على المذهبين الآنفين، فالنازيون الأغيار عبـــروا عـــن ذروة الكراهيـــة اللاعقلانية لليهود (لا سامية مطلقة) من جهة، واختيار اليهود (كضـــحية) للإبادة النازية تعبر عن فرادة اليهود الذين حرقوا لأنهم أكثـــر الشـــعوب قداسة (قربان مقدس بل الأكثر قدسية).

وهنا يبرز الاستقطاب العنيف للهولوكست في البنية الذهنية لليهـــود المعاد اختراعهم صهيونيا، ما يعني تمجيداً للكارثة واحتفالاً بها كتعبير عن الفرادة، وكنتيجة للفرادة من جهة وما بين رفض لها لما تمثله من ذكرى اليهودي الضعيف في المنفى، المساق إلى الـــذبح بـــدون مقاومـــة ومـــا يتعارض به هذا المفهوم مع فكرة العبري الجديـــد الرائـــد الاســـتيطاني المحارب، وكان أيخمان النازي الشهير في محاكمته الأكثر شهرة بعد

اختطافه إلى (إسرائيل) قد أثار الكثير من الدهشة عندما صرح بـأن سلوك الضحايا اليهود كان مدهشا حين لاقوا حتفهم بدون مقاومة، وفـي النقاشات اللاحقة نظر الجيل الجديد من أبناء الاستيطان الصهيوني إلى هذا السلوك باعتباره سلوكا نموذجيا ليهودي الجيتو الضعيف (الـذي يجـب استئصاله) مقابل العبراني الجديد القوي.

الاستقطاب العنيف يبرز في معادلة مستحيلة إذ كيف يمكن استئصال هذه الشخصية، وفي الآن ذاته استمرار تحويل الهولوكوست إلـى هويـة لمواطن الدولة اليهودية ولدولة في حد ذاتها؟

في الحقيقة فان فكرتي الفرادة وكراهية الأغيار لليهود، رغم كونهمـا واسطتي العقد في أدبيات (الهولوكوست) إلا أن أياً منهما لم تبرز علـى الإطلاق في الأبحاث الأكاديمية الحقيقية حول الهولوكوست النازية.

والادعاء بفرادة الهولوكوست هو جزء مـن المنظومـة المخترعـة المتكاملة حول (شعب الله المختار) و (الشعب الكاهن) إذ ليسـت معانـاة اليهود هي ما جعل الهولوكوست فريدة بل كون اليهود، واليهود تحديـداً، هم من عانوا، بمعنى آخر الهولوكوست مميزة لأن اليهود مميزون وليس العكس. وهذا ما ينزع الأهمية عن أي حادثة مشابهة أو أكثر فظاعة عانت منها مجموعة بشرية أخرى على مر التاريخ.

وقد عبر ايزمار شورش رئيس المعهد اللاهوتي اليهـودي بسـخرية لاذعة عن ادعاءات فرادة الهولوكوست بوصفها بأنها «نسـخة علمانيـة بغيضة عن فكرة الاصطفاء (الشعب المختار)»[32].

ومن المعروف أن الحركة الصهيونية في سـعيها للاسـتيلاء علـى فلسطين استخدمت إلى جانب القوة المادية الغاشمة أدوات فكرية مزدوجة ذات طابع ديني وعلماني يعبر الخلط الانتقائي فيما بينها عن طبيعة تفكير فاشي صريح، فإلى جانب فكرة أرض الميعاد ووعود (يهوا) الغامضـة، المفتقدة لأي حس أخلاقي، أو ملمح للعدالة المتوقعة من (إله)، اسـتغلت أيضا مذهبية الهولوكوست الجامدة القائلة بكراهية الأغيار الأبدية لليهـود لتبرر ضرورة وجود دولة يهودية، ولتفسير العداء الموجه لإسرائيل، حيث وبمقتضى هذه المنظومة من الأفكار تصبح «الدولة اليهودية هي الملجـأ الوحيد أمام التفجر الآني و (المحتوم) للاسـامية الإجراميـة» ويعلـق فنكلشتاين ساخرا على هذه الدعاوى «إذا كان العالم بأجمعه يريد اليهـود أمواتاً، فالعجيب في الحقيقة هو أنهم ما يزالون أحياء، بل هم على عكس قسم كبير من البشرية لا يتضورون جوعا»[33].

واستخدمت هذه الدعاوى كما ذكرنا لتبريـر العدوانيـة الصـهيونية المستمرة، عبر منح تعويض كامل لإسرائيل فإذا كان الأغيـار عـازمين كحالهم أبداً على قتل اليهود، فلهؤلاء الأخيرون كل الحق في حماية أنفسهم وبالطريقة التي يرونها (في أعقاب الاعتداءات الإسرائيلية المروعة على لبنان في العام 1996 والتي بلغت ذروتها بالمذبحة التي ذهب ضحيتها مئة من المدنيين في قانا، لاحظ الكاتب الصحفي الإسرائيلي آري شـافيت أن بإمكان إسرائيل التصرف متمتعة بالحصانة، «لأن لدينا اللجنة المعاديـة للتشهير ومتحف ياد فاشيم ومتحف الهولوكوست»)[34].

عقـــدة المحاصـــر

ترتبط عقدة الهولوكوست وفرادة الضحية بوثوق بعقلية الحصار، وقد كتب شاريت في يومياته[35] عن لجوء المؤسسة السياسية –العسكرية في إسرائيل إلى خلق عقلية الحصار بين المستوطنين ورفد خرافـة التهديـد العربي بإبادتهم وبالتالي تبرر العنف والعدوان «كنت أتأمل في السلسـلة الطويلة من الأحداث المفبركة والأعمال العدائية ضدنا التي اخترعناهـا والكثير من الصدامات التي افتعلناها، والتي كلفتنا الكثير من الدماء، وفي خروقات القانون الدولي التي قام بها رجالنـا وكلهـا جلبـت مصـائب خطيرة،بالمحصلة حددت مجرى الأحداث كلها وأسهمت في خلق أزمـة الأمن»هذا ما أدخل الاستيطانية الصهيونية في حلقة مفرغة مـن عقليـة الحصار التي تغذي الدوران والعدوان الذي يعمق عقلية الحصار، ووصف موشيه دايان عقلية الحصار هذه بأنها «الحلف الحيوي لنا الذي يسـاعدنا على الاحتفاظ بدرجة عالية من التوتر بين سكان إسرائيل، كمـا داخـل الجيش ومن أجل تحفيز الشباب للذهاب إلى النقب، علينا أن نصرح بأنه في خطر».

عقلية الحصار هذه تخلق ما يسميه جورج أورويل في روايته (1984) عناصر بنية ثقافة الخوف باعتبارها البنية المؤسسة على التفكير المزدوج وهي تقوم على أن تعرف وأن لا تعرف، أن تعي حقيقـة صـادقة كـل الصدق، وترى بدلا منها كذبات موضوعة بعناية، أن يكون لـديك فـي اللحظة نفسها وجهتا نظر متباينتان وأن تعتقد وتؤمن بكلتيهما وأن تستخدم المنطق ضد المنطق وتنكر الفناء وادعاءه، وتؤمن أن الديمقراطية غيـر ممكنة وفي نفس الوقت تدعي أنك حاميها[36].

ولتعزيز عقلية الحصار تلجأ الفاشية الصهيونية إلى طرق عدة نكتفي بنموذجين واضحين في مجالي الجيش والإعلام. فعنـدما تقـرر وزارة المالية القطع من ميزانية الأمن لا تمر أيام حتى يبدأ جنرالات الجيش من مختلف الأفرع بالنواح والادعاء أن «الأمن سيتأذى وأننا علـى أبـواب حرب»[37] وتتمة الاسطوانة «سنقلص الأنشطة العسكرية إذا ما قلصـتم الميزانية وسنتوقف عن التزود بأي عتاد جديد» أما الإعلام الصـهيوني فمهمته حماية المجتمع من أي معرفة للسياق الذي ينتج المآسي الفلسطينية فلا يوجد ذكر للاحتلال والإهانات وعمليات الاغتيال والاعتقال الجماعي وهدم البيوت والمجاعة التي ولدت الهجمات الانتحارية[38] وهكذا حـين يكون العقل العام مغلقا بحذر شديد فإنه ليس من الغرابة بمكـان أن يـتم قبول السياج دون شروط من قبل معظم الإسرائيليين لأنـه لـه معادلـة سحرية، هذا الجدار لذي يزيد الإحساس الهائل بالعزلة ويعـزز عقليـة الحصار التي غذت السياسات العدائية المتصلبة لجميع حكومات إسرائيل.

تلك المحرمات ترهنها الفاشية لصالحها بعد أن تجعـل مـن نفسـها الحارسة لها والمدافعة عنها ومن خلالهـا وباسـمها تفـرض سـلطتها وتمارسها، وقد لا تكتفي بالموروث من المحرمات، بل تبتكر في الغالـب محرمات جديدة أخرى مضافة وخاصة بها في لحظـة تاريخيـة معينـة وتجعل منها بمرور الوقت وبالاستثمار قوة قمع ورعب وسيطرة.

المراجـــــــع

1- www.anesi.com/fscale.html

2- لؤي خزعل جبر. نقدا للفاشية: (مدرسة فرانكفورت) وانبثاق مفهوم الشخصية التسلطية. في: جريدة المدى http://almadapaper.com/sub/02-604/n09.htm

3- د. معتز سيد عبد الله. الاتجاهات التعصبية. ط1 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. سلسلة عالم المعرفة. 1989) ص74.

4- المرجع السابق. ص69

5- المرجع السابق. ص72

6- المرجع السابق. ص75

7- سامر جميل رضوان: المتسلط. المستبد. شخصية مرضية . في: قراءات في سيكولوجية العنف. مجموعة. مجلة شبكة العلوم النفسية العربية عدد 4 أكتوبر نوفمبر ديسمبر 2004 .

8- محمد هلال الخليفي. جذور الاستبداد في الحياة السياسية العربية المعاصرة. في: الجزيرة- المعرفة-تحليلات2005
9- جان بيير كوت و جان بيير مونيه. عناصر من أجل علم اجتماع سياسي. ترجمة أنطون حمصي.ط1(دمشق: وزارة الثقافة. 1994) ص37
10- كوت و مونيه. مرجع سابق. ص73
11- إمام. مرجع سابق. ص64
12- رضوان. مرجع سابق.
13- فرويد وأدلر وآخرون. مدارس التحليل النفسي في تطور مستمر. ترجمة وجيه أسعد. (دمشق: وزارة الثقافة. 1992) ص155
14- أنطوان شلحت. أسلبة الإعلام الإسرائيلي. عرب 48. 2006/2/19
15- أرندت : مجتمع بلا طبقات في: www.Assuaal.com
16- www.ladeeni.net/forum/viewtopic.php?c=574
17- لمزيد من المعلومات عن اختبار ملغرام: http://ar.wikipedia.org
18 - أنطوان شلحت. تشريح"العصاب الجماعي الإسرائيلي. في: المشهد الإسرائيلي 4 كانون أول 2006
19- رد جرمو شيلي. العقد النفسية. ترجمة وجيه أسعد (دمشق: وزارة الثقافة السورية. 1985). ص41
20- المرجع السابق. ص 49
21- سلوى العمد. عقدة المسادا. في: الرأي الأردنية. 1991/11/5
22- نحمان بن يهودا. أسطورة المسادا. في: الكرمل. عدد67 ربيع 2001 . ص.213
23- المرجع السابق.
24- العمد. مرجع سابق
25- بن يهودا. مرجع سابق. ص214-215
26- سلوى العمد. مرجع سابق
27- ايلا شوحاط. ذكريات ممنوعة. ترجمة إسماعيل دبج. (دمشق: كنعان للدراسات والنشر، 2004) ص 119
28- نورمان فنكلشتين. صناعة الهولوكوست: تأملات في استغلال المعاناة اليهودية. ترجمة سماح إدريس. وأيمن ح حداد. ط1(بيروت: دار الآداب2001) يعتبر هذا الكتاب بجملته وثيقة هامة تخدم الكشف عما يراد الاشارة إليه في السياق. ص18
29- المرجع السابق ص8
30- أحمد مصطفى جابر. اليهود الشرقيون في إسرائيل: جدل الضحية والجلاد. دراسات إستراتيجية 92ط1(أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية. 2004)ص 20
31- فنكلشتين. صناعة الهولوكوست. مرجع سابق. ص49
32- المرجع السابق. صناعة الهولوكوست. ص50
33- المرجع السابق ص.58
34- المرجع سابق. ص85
35- الياس شوفاني. إسرائيل في خمسين عاما. المشروع الصهيوني من المجرد إلى الملموس. الجزء الأول.ط1 (دمشق: جفرا للدراسات والنشر. 2002) ص75
36- عبد الرزاق عيد. ثقافة الموت. محاضرة ألقيت في منتدى الأتاسي بدمشق www.mowaten.org
37- ميزانية الأمن تتضخم المشهد 2003/3/14
38- آيلان بابه. السياج في قلب فلسطين. المشهد الإسرائيلي 2003/1/15

Arabpsynet Reviews

Arabic Edition
www.arabpsynet.com/HomePage/Psy-Reviews.Ar.htm
English Edition
www.arabpsynet.com/HomePage/Psy-Reviews.htm
French Edition
www.arabpsynet.com/HomePage/Psy-Reviews.Fr.htm

APN eJournal

Index
www.arabpsynet.com/apn.journal/index-apn.htm
Reviews FORM
http://www.arabpsynet.com/review/RevForm.htm

Arabpsynet

www.arabpsynet.com
Arabic Edition
www.arabpsynet.com/defaultAr.ASP
English Edition
www.arabpsynet.com/defaultEng.ASP
French Edition
www.arabpsynet.com/defaultFr.ASP

ملامح سيكولوجية التعصب * (التعصب في المجتمع العراقي نموذجا)

مدخل نفسي لثقافة السلام

أ.د. قاسم حسين صالح – علم النفس – العراق
qassimsalihy@yahoo.com

ما سنتطرق اليه ليس بحثاً اكتملت مقوماته العلمية، إنما هو أقرب الى مقالة أو ورقة تحمل أفكاراً قد تفضي، بعد مناقشتها واغنائها، الى مشروع انساني أو برنامج عمل وطني يؤسس لثقافة جديدة تنعكس في سلوك مهذب يعتمد الحوار وسيلة للتعامل في تسوية الخلافات وحل النزاعات، والحد من التعصب الذي كان السبب في معاناة مئات الملايين من الناس، وقتل عشرات الملايين غيرهم من البشر.

والتعصب prejudice ظاهرة عالمية موجودة في كل المجتمعات ، متعددة الأسباب والمصادر والصور التي تظهر فيها . فقد تكون أسبابها دينية أو طائفية أو عرقية ... وقد تكون مصادرها سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ... وقد تحدث بصور بسيطة تأخذ شكل تجنب الاختلاط أو عدم الزواج ، إلى صور قاتمة ومرعبة... في إبادة بشرية جماعية .

وفي تاريخ البشرية ، وتاريخ الشرق الأوسط ، كان السبب الرئيس للكثير من الحروب والنـزاعات ، هو التعصب . ففي سبيل المثال ، كان مجتمع الهنود في شمال أمريكا قد انخفض من ثلاثة ملايين في القرن السابع عشر إلى حوالي ستمائة ألف في القرن العشرين ، بسبب القتل الذي تعرضوا إليه . وتشير كتب التاريخ إلى أن اكثر من ستة ملايين يهودي قتلوا من قبل النازيين في الأربعينات (1940) بحجة ((تنظيف أو تنقية)) العرق الأوربي . ويعلّق أحد الباحثين (هيرش Hrsch,1995) انه بالرغم من مرور اكثر من نصف قرن على استئصال النازية ، وبعد تحرير معسكرات الاعتقال فأن السلوك المتعصب ((مايزال مستمراً دون أن تتكسر له شوكه ، ودون أن يلقى العقاب أو يتم تداركه . ففي ما كان يُعرف بيوغسلافيا ، ظل التعذيب والقتل والاغتصاب والتجويع يجري كممارسة يومية)) .

وفي زمن من تاريخها ، استوردت أمريكا أفارقة وجرى التعامل معهم بوصفهم عبيداً ، وجزءاً من الملكية الشخصية . وحتى النصف الأول من القرن العشرين ، كان معظم الأفارقة الأمريكيين يتم عزلهم ، بموجب القانون ، عن المطاعم ودور السينما وحافلات نقل الركاب ... وظلوا حتى بعد إلغاء قانون العزل ، يعيش معظمهم تحت خط الفقر . وليس الأفارقة الأمريكيين الأصليين هم الذين تعرضوا للتعصب العنصري في الولايات المتحدة فحسب ، إنما أيضا من أعراق أخرى ، يعيشون تحت خط الفقر وليس أمامهم سوى العمل الخدمي .

وفي التسعينات (1995) شهدت رواند وبوروندي نزاعاً اخذ شكل الإبادة البشرية genocide بين جماعتين هما التوتسي والهوتو. وكان الفرق أو الاختلاف بين التوتسي (وهم الأقلية العددية ، ولكنهم الطبقة الاجتماعية الاقتصادية العليا) والهوتو، هو في المستوى الاجتماعي وليس فرقاً في اللغة أو العرق أو الثقافة . وقد حدثت حرب أهلية بين رواند و بروندي ، بالرغم من أن أجيالا منهم كانوا يتزاوجون فيما بينهما ، لدرجة أن الاختلاف في الشكل والبنية الجسدية ما عاد ملحوظاً بين أفراد الجماعتين .

وفي السبعينات (1975) شهدت لبنان حرباً أهلية بسبب التعصب الديني والطائفي . ويوجد التعصب (و التحيز و التمييز) في كل المجتمعات العربية من دون استثناء ، وان اختلفت أسبابه وصوره أو حالاته .

في العراق، أخذ التعصب ثلاث صور واضحة، هي:

1- التعصب الإجتماعي:

ويحصل هذا في محدودية التزاوج القائم على أساس العرق أو الدين أو الطائفة . فبعض العشائر الكردية لا تعطي امرأة لعربي . وبعض العشائر العربية لا تعطي امرأة لكردي . وغير مقبول أن يتزوج المسيحي من مسلمة . والأسرة المسيحية لا تعطي امرأة لمسلم . وقد يحصل أن يتزوج مسلم من امرأة مسيحية ، ولكن بعد أن تترك دينها وتدخل في الإسلام ، إلا في حالات نادرة يكون فيها النضج الثقافي لدى الطرفين في أعلى درجاته . وقل الشيء نفسه فيما يتعلق بالأديان الأخرى ، وان حصلت حالات فهي من النوادر .

وإذا تحدثنا بصراحة أكثر فأن هنالك مدنا ذات طابع سنّي لا تعطي امرأة لشيعي . ومدنا ذات طابع شيعي لا تعطي امرأة لسنّي . وهنالك أسر في العراق يطلق عليها اسم ((السادة)) – أي الذين يرجعون بنسبهم إلى النبي محمد(ص) – لا تعطي امرأة إلا لمن كان ((سيداً)) . بل أن هناك اسراً من ((السادة)) في عشيرة معينة ، تحصر زواج بناتها في داخل نسبها أو عشيرتها ، ولا تعطي امرأة لشخص آخر حتى لو كان من ((السادة)) ، ولن تعطيها بالمطلق حتى لو ((تبور!)) .

وبالرغم من ان هذا النوع من التعصب ليس فيه أذى عام ، إلا أن له آثارا نفسية سلبية تتعلق بتفضيل اجتماعي واعتباري ((للأنا)) على ((الآخر)) قد لا يكون صحيحاً ، وليس مبرراً، فضلا عن انه غير منطقي .وكان من النتائج المؤلمة لهذا التعصب أن أقدم " أبو العيال " مختارا أو مجبرا أو مضطرا الى تطليق زوجته " أم العيال " بسبب الاحتراب الطائفي بين السنّة والشيعة ، لاسيما في أحياء بغداد بدءا من عام 2005 وما بعده .

2 - التعصب المؤسسي.

ويقصد به احتكار مواقع اتخاذ القرار في السلطة والمراكز الحساسة والمؤثرة في مؤسسات الدولة لطائفة معينة. ويشير واقع الحال إلى أن اكثر من (75%) من هذه المواقع والمراكز شغلها أشخاص من طائفة معينة ، منذ تأسيس الدولة العراقية عام (1921) لغاية سقوط النظام في (2003) . وهذا النوع من التعصب مؤذي اقتصادياً واعتباريا .

3 – التعصب السلطوي

وفيه يأخذ التعصب شكل الحروب التي تصل أحيانا إلى حدَّ الإبادة البشرية . وابرز حالاته ، التعصب العرقي ضد الأكراد، الذي مورس من قبل السلطات العربية التي توالت الحكم على العراق في تاريخه الحديث . ثم التعصب الطائفي ، الذي كشفت عنه المقابر الجماعية مؤخرا .

ويقودنا التحليل الى أن الحالة السيكولوجية الخطيرة التي تعيشها الآن طائفتا السنّة والشيعة في العراق ، أن إحداهما كانت في السلطة والأخرى في المعارضة على مدى ألف وثلاثمائة عام ، وأن ما حصل بينهما بعد 2003/4/9 هو تبادل للأدوار يشبه في فعله النفسي تبادل الدورين بين من كان بيده الأمر فصار مهمّشا ،وصار المهمّش يأمر وينهي . ويشبه في خطورة وساوسه "البارانويه" تبادل الدورين بين "الضحية " و " الجلاد ".

ولكي نفهم الأبعاد النفسية والاجتماعية والثقافية للتعصب والصورة النمطية وما يترتب عليها من نتائج ، بهدف الوصول إلى مبتغانا المتمثل باقتراح أساليب أو وسائل لخفضها أو الحدّ منها ، ينبغي تحديد مفهومي التعصب والصورة النمطية .

إن المعنى الحرفي لكلمة التعصب في اللغة الإنجليزية (Prejudice) هو الحكم المسبق . فيما ينظر علماء النفس الاجتماعي للتعصب على انه اتجاه سلبي غير مبرر نحو فرد ، قائم على أساس انتمائه إلى جماعة لها دين أو طائفة أو عرق مختلف ، أو اتجاه عدائي نحو جماعة معينة قائم على أساس الانتماء إليها . ويعني أيضا النظرة المتدنية لجماعة أو خفض قيمتها أو قدراتها أو سلوكها أو صفاتها ليس لها أساس منطقي . كما يعني أيضا إصدار حكم غير موضوعي بشأن جماعة معينة . وهو اتجاه مؤذي قائم على تعميمات غير دقيقة بخصوص جماعة على أساس اللون أو العرق أو الدين أو الجنس ، أو أي فرق أو اختلاف آخر قابل للملاحظة ، يتضمن شيئا سلبيا قائما على اعتقاد الشخص بشأن جماعة أخرى غير جماعته .

1.3. ما سبـــــب نشـــــوء هذا التعصـــــب؟

والجواب يكمن في ((الصور النمطية Stereotypes)) بوصفها المكوّن المعرفي للاتجاه التعصبي ، والتي تعني تحديدا : تعميمات غير دقيقة يحملها الفرد بخصوص جماعة معينة ، ولا تستثني أحدا منها .. وقد تكون هذه التعميمات إيجابية وقد تكون سلبية . والتعميم الإيجابي يتضمن صفة جيدة أو مفضّلة يضفيها الفرد على جماعته التي ينتمي إليها ، ولنفترض أنها (س) فيقول : إن جميع المنتمين إلى (س) أذكياء أو طيبون مثلا . فيما يتضمن التعميم السلبي صفة سلبية أو غير مفضلة يضفيها الفرد على الجماعة الأخرى التي تختلف عن جماعته في العرق أو الدين أو الطائفة ، ولنفترض أنها (ص) فيقول : إن جميع المنتمين إلى (ص) هم أغبياء وشريرون مثلا . وهكذا يتبين لنا أن الصور النمطية (Stereotypes) – وهي في الأصل مستعارة من عالم الطباعة التي تعني القالب الذي يصعب تغيره بعد صنعه– سواء كانت إيجابية أم سلبية هي أحكام خاطئة أو غير دقيقه ، و أنها تكون مؤذيه لثلاثة أسباب :

الأول : إن الصور النمطية تسلب قدرتنا على التعامل مع كل عضو في الجماعة على انه فرد بحد ذاته . ذلك ان المضمون النفسي للصور النمطية الاجتماعية يعني تصورات مجردة بالغة التبسيط والتعميم يحملها الناس عن جماعتهم أو عن جماعة أخرى . فعندما نحمل صورة نمطية عن جماعة ، فإننا نميل إلى أن نتعامل مع كل عضو فيها كما لو كان شخصا يحمل كل صفات الجماعة ، بغض النظر عما إذا كان هذا الشخص يحمل تلك الصفات أم لا . وحتى لو كانت الصورة النمطية صحيحة جزئياً أو قائمة على حقيقة معينة ، فإن الكثير من أفراد تلك الجماعة سوف يختلفون عن الصورة النمطية لجماعتهم بأمور جوهرية .

إن أحد أشكال الأذى الذي ينجم عن ذلك هو أننا إذا كانت لدينا صورة نمطية عن جماعة عرقية أو طائفية معينة بأنها قليلة الذكاء مثلا، فإن النتيجة الخطيرة المترتبة عليها أن الفرص التربوية و الوظيفية لجميع أفراد تلك الجماعة ستكون قليلة إن لم تكون معدومة .

الثاني : إن الصور النمطية تقود إلى توقعات ضيقة بخصوص السلوك . فصورنا النمطية تقودنا إلى أن نتوقع بأن أفراد جماعة معينة سيتصرفون جميعهم من دون استثناء بطريقة معينة . ففي سبيل المثال ، نحن نتوقع من النساء أن يتصرفن جميعهن بطرائق مهذبة ، وبتعاون وعطف وشفقة ، فيما نتوقع من الرجال أن يتصرف جميعهم بأساليب خشنة وعدوانية وتنافسية . وما ينجم عن هذا ان الفرد ، سواء كان رجلاً أم امرأة ، إذا تصرف بطريقة لا تتطابق مع الصورة النمطية التي نحملها عن الجنس الذي ينتمي إليه، فإننا سننظر له كما لو كان شاذا.

وعليه ، فإن الصور النمطية يمكن أن تكون قوة محددة للأشخاص الذين لا يتطابق سلوكهم مع توقعاتنا الضيقة .

والثالث : إن الصور النمطية تقود إلى عزو خاطئ . فعلى وفق نظرية العزو القائمة على فكرة أن الناس يكونون مدفوعين لاكتشاف الأسباب الأساسية للسلوك كجزء من جهودهم لأن يجعلوا معنى لتصرفاتهم من خلال وصولنا إلى تعليلات سببية لما يصدر عن الآخرين وعن أنفسنا من سلوك في المواقف الحياتية المختلفة ، فإنه غالباً ما يعزى السبب إلى مصدرين : داخلي أو ذاتي يخص الشخص القائم بالسلوك ، وخارجي يخص الآخرين أو الموقف الذي نكون فيه .

وما يحصل لدى الفرد المتعصب انه يعزو الصفات الإيجابية إلى شخصه والى جماعته التي ينتمي إليها ، ويعزو الصفات السلبية إلى الجماعة الأخرى التي يختلف عنها في القومية أو الطائفة أو الدين .

والمؤذي في ذلك ، انه في حالة حصول خلاف أو نـــزاع بين جماعته والجماعة الأخرى فإنه يحّمل الجماعة الأخرى مسؤولية ما حدث من أذى أو أضرار، ويبرئ جماعته منها ، حتى لو كانت جماعته شريكا بنصيب اكبر في أسباب ما حدث .

ونستزيد أكثر فنقول : إن علماء النفس الاجتماعي انشغلوا لعقود من الزمن بدراسة الصور النمطية ، وتوصلوا الى أن انطباعاتنا الأولى عن الآخر تنشأ أو تقوم أساسا على توقعاتنا المسبقة . فحيثما ندرك موضوعا أو حدثا ما فأننا نقوم داخليا بتصنيفه من خلال مقارنة المعلومات القادمة إلينا بما تخزنه ذاكرتنا من موضوعات أو حوادث سابقة مماثلة ،استقرت فيها على شكل مخططات Schemas . ويعني المخطط (نظرية) عن الكيفية التي يعمل بها العالم المادي والاجتماعي ، بأن تقسّم (الناس، الأشياء، الحوادث، والمواقف) الى أصناف تأخذ صيغة مكوّن معرفي تساعدنا على إدراك وتنظيم ومعالجة المعلومات . وبهذا يكون المخطط ، معارف ومعتقدات منظّمة بخصوص عالمنا الاجتماعي . وكما تستعمل المخططات في التعامل مع الأشياء والحوادث الجديدة ، بأن نبحث في الذاكرة عن المخطط الأكثر اتساقا معها ، فأننا نستعملها أيضا مع الناس الذين نقابلهم أو نعيش معهم . فنحن نصنف الأفراد على أساس خصائص معينة مثل : العرق ، الجندر أو الجنس ، العمر ... أو بعلاقتهم بهويتنا الاجتماعية مثل (نحن مقابل هم) . بل أننا نصنفهم أحيانا حتى على أساس المنشأ أو الانتماء الجغرافي . تأمل ذلك في العراقيين عندما يقابل أحدهم شخصا يقول له أنه من : البصرة أو سامراء أو الموصل أو العمارة أو الناصرية ...فأنه يتصرف معه بمعالجة المعلومة بناء على الصنف الاجتماعي أو الجغرافي أو العرقي ...أو أي صفة أخرى تكون لها دالة على انتماء الشخص .

والذي لا نعلمه أن الصور النمطية تعمل فينا وتقرر سلوكنا بنشاط تلقائي (أوتوماتيكي) . تأمل ذلك – مرّة أخرى – في العراقيين عندما يتعرف أحدهم على شخص يقول له انه من : شمّر مثلا ، أو زوبعي ، أو ياسري ....، أو تكريتي ، أو بصري ، أو عاني ، أو كوفي ، أو مصلاوي ...،فأنه يتصرف معه بطريقة معينة ، حتى ليصبح الأمر في تصنيفم للناس على أساس : (المدينة، أو العشيرة، أو الجنس، أو العرق ...) يشبه عملية قيادتهم للسيارة ... أعني عملية تلقائية أو تعودية ، تعمل على مستوى يكون خارج درايتنا به .

والذي لا نعلم به أيضا ، أن الصور النمطية تعمل ترابطات أو اقترانات وهمية بين أحداث أو موضوعات غير موجودة في الواقع ، تدفعنا الى أن نعمل استدلالات نبني عليه أحكاما غير دقيقة . خذ، في سبيل المثال، الترابطات أو الاقترانات الوهمية الآتية عند العراقيين :(المصلاوي والبخل ، البصراوي وخفة الدم ، الكوفي والغدر، الشروكي– العمارتلي بشكل أخص– وقلة الذوق، الدليمي والفطارة ..)

والأمّر من ذلك أن هذه الأوهام تتحكّم في الكثير من تصرفاتنا ونحن عنها غافلون !. وأننا لن نكون في مأمن من الكارثة حتى لو وصفنا أنفسنا وتحدثنا عبر القنوات الفضائية بأننا نعشق الديمقراطية قولا وفعلا ، فيما نحن في بيوتنا ومع أهلينا متعصبون حدّ النخاع !.

2.3. التعصـــــــب العرقـــي Ethnocentrism

يعدّ التعصب العرقي اخطر أنواع التعصب و أكثرها أذى . وتعنى العرقية Ethnocentrism، النزعة لدى الفرد نحو **تفضيل** الجماعة التي ينتمي إليها على باقي الجماعات الأخرى . ونظرته إلى جماعته على أنها مركز كل شئ ، والحكم على الآخرين بمقاييسها . وتميل الجماعة العرقية إلى ان تضع نفسها فوق الجماعات الأخرى ، وتنظر بازدراء إلى الغرباء عنها ، وتعتقد أن طريقتها في الحياة هي الطريقة الصحيحة .

وثمة حقيقة نفسية خافية عن الناس هي انهم يحابون جماعتهم العرقية، وينظرون إلى أعضائها بمنظار غاية في المحاباة . إذ يرون أنفسهم بأنهم يمتلكون صفات لطيفة ، وسلوكاً مهذباً ، وانهم محبوبون للغاية . والعامل المزاجي في هذه الحقيقة النفسية هي ان الناس ينـــزعون إلى تصنيف عالمهم الاجتماعي الى صنفين ((نحن)) و ((هم)) . وانه من هذا التقسيم ينشأ التعصب و الصراع و التحيز و التمييز .

وما يدعو للدهشة والتأمل ان أفراد الجماعة العرقية ينزعون الى رؤية قدر كبير من الاختلاف (لا التشابه) فيما بينهم كأفراد، فيما يرون قدراً اكبر من التشابه (لا الاختلاف) بين أفراد الجماعة الأخرى . لنأخذ صفة الكرم في سبيل المثال . فعندما يطبقونها على أنفسهم ، فانهم يرون في أعضاء الجماعة التي ينتمون إليها من هو كريم ، ونصف كريم ، وبخيل ، وبخيل جداً . أما إذا طبقوها على أفراد جماعة عرقية أخرى ، فهم يرون فيهم جميعاً ، بخلاء دون استثناء . وقس على ذلك خصائص أخرى ، مثل : الذكاء ، الصدق ، الأمانة، الشجاعة... وما يعاكسها من صفات . (تفحص نفسك وتفحصها بين العراقيين) .

وعلينا أن نعترف بحقيقة نفسية أخرى ، هي حاجة الإنسان إلى هويتين : واحدة للذات وأخرى اجتماعية . الأولى تمثل كينونته ووجوده و(أناه) الخاص به . والثانية تمثل عضويته في جماعة مرجعية (قومية، دينية، مذهبية ...) . ونشير هنا الى أن الاعتزاز بالقومية أو الدين أو المذهب ، يحقق حاجتين نفسيتين لدى الإنسان : الحاجة الى هوية اجتماعية والحاجة الى الانتماء ، وهما حاجتان إنسانيتان مشروعتان ، شرط أن لا تكونا مصابتين بالتضخم الذي يقود الى الاستعلاء ، أو الإحساس بالنقص الذي يفضي الى الشعور بالاضطهاد ، وكلاهما من صنف (البارانويا) . وأبشع ما في البارانويا أنها اذا ما تمكنت من صاحبها فأنه يصاب بهذيان (لأتغدى به قبل أن يتعشى بي) ، ولن يرتاح إلا بعد أن يفعلها ، وهذا ما يحصل الآن بين العراقيين ، لدرجة أن القتل صار يستهدف من أسمه " عمر " و "حيدر " و "كاكا سيروان" !.

ان للعربي الحق في أن يعتز بعروبته ، والحق نفسه للكردي في أن يعتز بكرديته ، وكذا التركماني والقوميات الأخرى . وكما للسنّي الحق في الإيمان بمذهبه ، فأن للشيعي الحق نفسه في الإيمان بمذهبه ، وكذا اليزيدي ومن هو على مذهب أو دين آخر .

غير أن الجانب السلبي في الهوية الاجتماعية يبرز عندما يعمد صاحبها، شعوريا أو لا شعوريا ، الى إعلاء مكانة واعتبار الجماعة التي ينتمي إليها، وتفضيلها على الجماعات الأخرى .

والغالب في مجتمعنا العراقي ، أن الجماعات المرجعية العرقية تميل إلى أن تهتم اكثر بتغذية الجانب السلبي من هذه الهوية في تنشئة أطفالها ، وتعزيزه في الحديث اليومي للراشدين منهم ، والتركيز عليه في خطاباتها السياسية والثقافية والدينية بأن تعمد إلى تضخيم ما أصابها من حيف أو ظلم من الجماعات الأخرى (بمعنى انهم طيبون والآخرون أشرار)، او الإكثار من تمجيد تاريخها والزهو به،لا بصيغة تبيان حقيقة موضوعيه واعتزاز مستحق إنما بصيغة تحمل، تصريحاً او تلميحاً ، أفضليتها على الجماعات الأخرى ، وإنها كانت ، عبر تاريخها الطويل ، منزّهة من كل خطأ ، وإن كانت ارتكبته فأن الآخرين كانوا هم السبب !. وهذا لسان حال كل الجماعات في كل المجتمعات ، ظالمة كانت أم مظلومة ، حتى لتحسبها سجية في البشر !.

وما لم ينضج وعينا الى مستوى إدراك أن حق الآخر مشروع كمشروعية حقنا ، ونرتقي تلقائيا الى سلوك مهذب يحترم الهوية الاجتماعية للآخر، فأن الحال يؤول الى ما يمكن تسميته (حرب المعتقدات) . والمشكلة أن المعتقد اذا ما أصيب بـــ (الالتهاب) يصير هو (فيروس) التعصب ..ينتشر بين (نحن مقابل هم) في عدوى هستيرية تشعل حربا تكون أشد ضراوة وأكثر سخفا من حروب الأيديولوجيات .

3.3. أسبـــاب التعصـــب والصـــور النمطيـــة وسبل خفضــه

تمثل الصور النمطية المكوّن المعرفي لاتجاه التعصب . ونعيد إلى الذهن بأن الصورة النمطية Stereotype تعني : تعميمات أو أحكام غير موضوعيه بخصوص جماعة معينه، لا تستثني من أفرادها أحدا، بالرغم من وجود اختلافات حقيقة فيما بينهم . ويمثل التمييز Discrimination المكوّن السلوكي لاتجاه التعصب . ويعني التمييز: فعلاً عدائيا أو سلبياً أو مؤذياً غير مبرر نحو أفراد من جماعة قائم أساساً على عضويتهم في تلك الجماعة، وليس لسبب آخر . وهذا يعني أن أي إنسان يمكن أن يكون هدفاً للتعصب .

ويمكن تحديد أربعة جوانب في الحياة الاجتماعية تفضي إلى التعصب هي :

الطريقة التي **نفكر** بها، والطريقة التي من خلالها **نضفي المعنى** على الأشياء، والطريقة التي **تخصص** بها موارد العيش والثروة، والطريقة التي **نتمثل** بها المعايير والقواعد الاجتماعية .

إن عملية الإدراك أو التعرف الاجتماعي مهمة في خلق الصور النمطية التي تفضي إلى التعصب . والخطوة الأولى في نشوء التعصب تبدأ بتصنيف بعض الأفراد في جماعة واحدة على وفق صفات أو خصائص معينة ، ووضع الآخرين في جماعة أخرى على وفق صفاتها أو خصائصها المختلفة . فالفكرة الأساسية في الإدراك الاجتماعي هي أن تجميع التنبيهات يكون قائماً على أساس ما بينها من **تشابهات،** ومقابلتها بتنبيهات على أساس ما بينها من **اختلافات** . ومن هذه الفكرة تنشأ عملية عقلية أخرى تقسّم الناس الى ما اصطلح على تسميته بـــ ((داخل الجماعةIn- group)) و ((خارج الجماعة Out-group)) . ومن هذه العملية ينجم ما نريد ان نسميه بـــ ((**الحَوَل الادراكي**)) ، وهو مصطلح منّا نريد ان ندخله في ثقافتنا . ويكون هذا الحَوَل على نوعين :

حَوَل **داخلي** : يرينا ما هو **إيجابي** في جماعاتنا **ولا** يرينا ما هو **سلبي** فيها .

و الواقع إننا جميعاً مصابون بهذا الحَوَل، والاختلاف فيما بيننا هو في الدرجة ليس إلا .

و إذا كان تصحيح الحَوَل البصري يتم من خلال عدسات معينة، فأن ((حولنا العقلي)) يمكن تصحيحه أيضا من خلال :

- التربية .
- الثقافة .
- الاختلاط .
- العدالة .

ففيما يخص التربية ، فإننا نعني بها كل أشكال التعليم الرسمي في المدارس و التنشئة الأسرية ، والتعّلم الاجتماعي بمجالاته المختلفة . وبما أن التعصب سلوك ، فانه يتم تعلّمه مثل أي سلوك آخر . فأذا كان الوالدان – في سبيل المثال – يحملان صورة نمطية سلبية عن جماعة تختلف معها في الطائفة أو العرق او الدين... فأن أطفالهما سيحملون الصورة النمطية نفسها ، ويتصرفون بنفس الطريقة . وإذا ما وجدوا تعزيزا لها من أقرانهم فأن تلك الصورة ستتقوى لديهم ، ويصعب من ثم تعديلها .

والملاحظ على المجتمع العراقي أن عقله محشو بصور نمطية لا تحصى، وبشكل عجيب غريب . ففضلاً عن الصور النمطية المتعلقة بالعرق والدين والطائفة والجندر (المرأة والرجل بالمفهومين النفسي والاجتماعي)... فأن فيه صوراً نمطية أخرى قائمة على أساس المدينة . فـ ((المصلاوي)) لدينا عنه صورة نمطية ، وكذا : البصراوي ، والنجفي ، والعاني ، وناصريه ، والدليمي... وأهل أربيل لديهم صورة نمطية عن أهل السليمانية ، والعكس موجود أيضا ، " وبعضهم على بعض يقول النكات !"..

و الأغرب انك تجد صوراً نمطية قائمة على أساس المحّلة : ابن الفضل ، ابن باب الشيخ ، ابن الشواكه ، كظماوي، معظماوي (وكلها أحياء سكنية في بغداد)... وما يجعلك تندهش أنهم يعِّدون أنفسهم مختلفين تماماً بعضهم عن بعض ، بالرغم من انهم يسكنون في محلات متجاورة . ولا تجد تفسيراً لذلك سوى انهم مصابون بـــ ((الحَوَل العقلي)) .

وثمة أربع ملاحظات

● الأولى ، إن " الموروث السيكولوجي البدوي " في رذيلة التعصب ما يزال يتحكم بنا لاشعوريا ، برغم أننا غادرنا الجمال والحمير الى المرسيدس والأيرباص ، وأننا تركنا بنات العشيرة السمراوات وتزوجنا الشقراوات عابرات المحيطات . فضلا عن أننا نجهل بأن هذا التعصب مصحوب برذيلة أخرى هي هاجس " بارانويا " الشك بالآخر والخوف من غدره .

● الثانية ، أن عقولنا ،نحن العراقيين بالذات ، تتحكم بها ما نجم عن أحداث مضى عليها قرون لا ما يمليه علينا الحاضر من أحداث وإدراك معاصر . وأن اللاشعور الجمعي للعامة من الناس قولب عقولهم من ألف سنة على حوار السيف بدلا من حوار الكلمة في خلافاتهم السياسية والفكرية .

● الثالثة ،إن العربي عموما مصاب بهوس الملكية الشخصية لثلاثة : **المرأة والأرض والسلطة** . أعني أنه اذا حصل على السلطة فان قيمه التي ورثها من ألف سنة تدفعه الى أن يعظ عليها بأسنانه ، وينفرد بها انفراده بزوجته.

● والرابعة ، أن نضج الوعي السياسي (الحالة التي يصل فيها العراقي الى أن ينتخب : الكردي عربيا والعربي كرديا والسنّي شيعيا والشيعي سنّيا ..." يبدو أنه يخضع لنفس قوانين النضج البيولوجي ..أعني أن يتم عبر مراحل. وأن " الشعب " هو الآن في مرحلة الرضاعة من وعيه بالانتخابات الديمقراطية .

ومع أنه من غير المعقول أن نطلب من رضيع " بدوي " القفز بالزانة ! ، فأن الكثير من السياسيين العراقيين يدّعون أن هذا ممكن ..ومطلوب أيضا ، مع أن أفضلهم نضجا لم يصل بعد مرحلة الحداثة ..في الممارسة ، برغم أنه يجيد صناعة الكلام بامتياز .

وبالعودة الى مناهجنا الدراسية (اعني تحديداً : كتب المطالعة والتربية الوطنية والديمقراطية وحقوق الإنسان...) فان عليها أن تنتبه للصور النمطية التي أشرنا الى عدد منها ، وتعمل على محوها ، خاصة بعد أن شاع بين تلاميذ المدارس سؤال بعضهم لبعض :" أنت سنّي لو شيعي ؟!".وهو أمر مخجل وخطير جدا على مستقبل الجيل القادم ، ينبغي على مناهجنا الدراسية معالجتها ، وان تلتقط موضوعات تعتمد الحوار وسيلة لحل النـــزعات بين الجماعات والأفراد . ويكون ذلك بتعاون مؤسسات الثقافة في بغداد والمحافظات . فالتربويون يجيدون اختيار مثل هذه الموضوعات، فيما المهتمون بالثقافة (لاسيما المعنيون منهم بثقافة الأطفال) يمتلكون الأسلوب المشوق في صياغة مفرداتها ، وسعة الخيال في جمالية صورها . وعليها ان تركز في مسألة غاية في الأهمية هي ان تعيد لقيمة ((**الحياة**)) اعتبارها بعد أن هوت من مكانتها السامية بفعل حروب كارثية ، ثم أجهز عليها الإرهاب ببشاعة الوحوش الضواري . فضلاً عن رخص حياة العراقي بعيون العسكري الأجنبي ((المتحضر جداً!)) .

ويبقى على الناس تعزيز وتعميق الاختلاط والاتصال الحميم فيما بينهم . غير ان هذا لن يكون – كما ينبغي – ما لم يشعر الجميع بأنهم متساوون في المكانات، وان توزع الثروة بينهم بالعدالة ، ليحيوا الصلات الاجتماعية القديمة المعروفة عنهم بروح عصرية جديدة ، بعد أن أرعبها انعدام الأمن الذي اجبر الناس على الهجرة أو الجلوس في بيوتهم ، أو القبول بالموت على أنه قدر محتوم ، برغم يقينهم أنهم يلقون بأنفسهم الى التهلكة ..في أي شارع يمشون !.

أخـــيراً.

إن نقطة الشروع في تحقيق هذا المشروع ، هي أن **نعترف** جميعاً بأننا مصابون بما اصطلحنا عليه : ((**الحَوَل الإدراكي**)) .. اعني انحيازنا الى جماعتنا ونظرتنا لهم بعين الرضا ، عين المحب للمحبوب ، والى الغير بعين تبدي المساوئ ، عين الكاره للمكروه . وان نكون **راغبين** حقاً في تصحيحه . ففي ذلك أجمل المنافع وأرقى الصفات ...أحوجها أن لا يوصف **السياسي** من العراقيين بأنه ((**أحول عقل**)) !.

والحقيقة أنني لا أستثني من هذا الحول أحدا ، فهو مرض شائع في العقل العربي والإسلامي ، ما يزال يشكل أحد أهم أسباب مآسينا وتخلفنا أيضا . وأنه ما لم يتم علاجه بإعادة صياغة ثقافتنا وخطاباتنا الدينية والسياسية والإعلامية ، واسهام المواقع الإلكترونية والصحافة التقليدية في تحرير الوعي الشعبي من أوهام ومعتقدات معبئة بالحقد والكراهية ... فأننا سنبقى نتعارك والعالم يضحك علينا . فأكثر مشاهد الكوميديا سخرية ، تلك التي يتعارك فيها مجاميع من الحولان !.

*ألقي في المؤتمر التأسيسي للمجلس العراقي للثقافة عمان – الأردن 14-2007/5/16

المنظـــــــور النفســـــــي و الإجتماعـــــــي للعنـــــــف السياســـــــي و الدينـــــــي

قـراءة على هامش أحـداث مظاهـرات الإسكندريـة

د.علـي إسماعيـل عبـد الرحمـن – مـدرس الطـب النفسـي والأعصـاب بطـب الأزهـر

alysmail4@gmail.com - alysmail@maktoob.com

مقدمة :

العنف هو سلوك قصدي يستهدف إلحاق الضرر بالشخص أو الممتلكات، ويعتبر العنف السياسي هو أشهر أنواع العنف، وهو عنف يوجه نحو جماعة معينة (طائفة)، ولا يقتصر علي رموز الجماعة أو الممثلين الرسميين لها، بل يستهدف أيضاً جمهور الجماعة أيضا.

والعنف السياسي يتسم بالعلانية لأنه في نظر من يقوم به أنه شرف كبير يستحق التباهي، كما يتوقف الحكم علي مرتكبه سلبا أو إيجابا (إرهاب ، استشهاد) علي خلفية الشخص الثقافية والاجتماعية مما يجعل الحكم علي نفس السلوك بحكمين متضادين.

العنف السياسي لا تحركه المصالح المادية المباشرة، بل تحركه محاولة تحسين أوضاع الجماعة المنتمي إليها الفرد أو الصالح العام للمجتمع ككل.

العنف السياسي لا تحركه الدوافع الفردية نحو شخص ما (الثأر) بل نحو أفكار هذا الشخص وما يمثله كرمز لجماعة معينة.

ويعتبر العنف السياسي الديني (الموجه من طائفة دينية إلي أخري) هو الأعلى ضجيجا في عالم اليوم ، وما حدث في الإسكندرية هو صورة من صور العنف السياسي الموجه من جماعة دينية إلي أخري ، وهو صراع طائفي من المستوي الثاني الذي يتميز بتنوع أطرافه واتساع مجاله عن الصراع الفردي (المستوي الأول) وإن كان أقل تعقيدا من الصراع الدولي (المستوي الثالث).

وقد سبب هذا الصراع الكامن حدوث **أزمة** (تحول مفاجئ عن السلوك المعتاد ، مما ترتب عليه نشوء تهديد مباشر لقيم أو المصالح الجوهرية لأحد أطراف النزاع) قام بها مجموعة من الأفراد العاديون الذين لم يكونوا ضمن تنظيم سياسي أو ديني ، حيث اندفعوا للمشاركة في الأزمة إثر شرارة سلوكية صغيرة ، وهي تسرب معلومة منقوصة وهو ما يطلق عليه (الإشاعة).

ولكي تتكون الإشاعة لابد من توافر جزأين أساسيين ، أولهما أن يكون محتواها ديني أو جنسي ، وثانيهما أن يكون جزء كبير من المحتوي غامض أو مجهول حتي يتيح للأفراد المشاركين في نقلها إلي إضافة جزء كبير من معتقداتهم أو خيالاتهم.

تحليـــــــل الأزمـــــــــــة

هو صراع علي المستوي المجتمعي (طائفي)، ديني من حيث الموضوع، علني من حيث درجة الظهور، متعدد الأطراف، عنيف الدرجة، وهو صراع معلوماتي، قيمي، علاقاتي من حيث السبب.

معلوماتي [ناتجة عن نقص المعلومات، افتقاد المعلومات الصحيحة، استخدام أسلوب التعمية (خروج البابا وشيخ الأزهر لتأكيد الوحدة الوطنية)].

علاقاتي (لأنه قائم علي عداء كامن بين الطرفيين وافتراضات سلبية من كليهما تجاه الأخر).

قيمي (لأنه مرتبط بالعقيدة الدينية مما جعله يتأجج.

ما الذي أدي إلي استمرار الأزمة لفترة ؟

1- ســـوء العلاقـــات بيـــن الطرفييـــن (الافتراضات السلبية)

فالمسلمون يفترضون أن المسيحيين عملاء ومأجورين وأكد علي ذلك استخدام أمريكا لورقة المسيحيين عند أي أزمة مع الحكومة المصرية مما أعاد إلي الأذهان استخدام أوربا للمارونيين أثناء العهد العثماني.

ويري المسيحيون أن المسلمين يودون القضاء عليهم ويظهر ذلك في طريقة تعامل المسيحيون داخل المجتمع لمصري حيث يتعاملون علي أنهم جماعة اثنية (لهم طقوس وعادات مميزة) وأنهم مختلفون عن محيطهم الوطني من ناحية ومتحدين كجماعة من ناحية أخري (ظهور الانطواء علي الذات وتعميق النزعة الطائفية لديهم).

2- العـداء الكامـــن بيـــن الطرفييـــن والرغبـــة فـــي الثـــأر

فالمسلمون يرون أن المسيحيين انتصروا عليهم في مشكلتي وفاء قسطنطين وماري عبد الله ، ولابد من الثأر للدين طالما أن الدولة لم تفعل ذلك، والمسيحيون يرون أن المسلمين يقومون باستقطاب الشباب المسيحي نحو الإسلام فأرادوا الثأر من ذلك بالطعن في الدين الإسلامي (المسرحية).

3- الإصـــــرار علـــي الـــرأي وعـــدم التراجـــع عنـــه

وذلك للأسباب الآتية:

(أ) كلا الطرفيين يري أن الأخر هو البادي بالعدوان وأن التراجع ضعف وتخاذل.

(ب) كلا الطرفين يري أن الأخر هو الخارج عن الأصول الصحيحة بينما هو الملتزم بها.

(ج) كلا الطرفين يري أن الأخر لن يتغير مهما حاول إيهامنا بالتغيير.

(د) كلا الطرفيين يري أن الأخر سواء كان مفكرا أو منفذا أو معارضا لفكر جماعته هو عدو ، وأن ما يحدث من تنوع في المواقف هو من قبيل الخداع.

4-اللعـــب علـــي مشاعـــر الجماهيـــر (التحفيز)

المسلمون يقولون (المسيحيون لا يمثلون سوي الأقلية)، ويرد المسيحيون (نحن أصحاب البلد و المسلمون سرقوا مصر من القبط)

يجب أن ننقي من صفوفنا المتخاذلون الذين يدعون إلي الحوار معهم، فهم إما سذج مضللون أو عملاء مندسون، أو ضعاف ترعبهم المواجهة.

5- الإحبـــاط الشديـــد لـــدي الطرفييـــن

وهو نوعين إحباط عام، وأخر خاص.

الإحباط العام لدي الطرفيين يتمثل في فقدان الأمل في المستقبل علي كل المستويات (الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية).

ويمثل **الإحباط الخاص** لدي المسيحيين في إحساسهم بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية ، وأنه لا فائدة ترجي من الحكومة خاصة بعد ظهور ترشيحات الحزب الوطني لمجلس الشعب ووجود فقط اثنان من الأقباط ، مما جعلهم يشعرون بالخديعة فقاموا بمحاولة إحراج السلطة وإظهارها بصورة غير القادرة علي حماية مواطنيها خاصة مع قرب انعقاد مؤتمر أقباط المهجر.

ويمثل الإحباط الخاص لدي المسلمون في رؤيتهم الانصياع الكامل للغرب في تنفيذ كل الأوامر ، وخوف الحكومة الدائم والشديد من استخدام ورقة الأقباط مما يجعلهم يخالفوا القانون والدستور من أجل إرضاء الغرب (مشكلة وفاء قسطنطين).

6- غيـــاب العقـــاب

كلا الطرفيين يعلم أن الدولة تهتم بالتحكم في رد الفعل أكثر من اهتمامها بالفعل نفسه مما يجعلها تلجأ إلي المساومة كحل وحيد للتخلص من الأزمة بشرط عدم خسارة الطرفيين .

التحليـــل الكيفـــي للأزمـــة

1- الطـــلاب الشبـــاب

هم من حركوا المظاهرة وهو ما يشير إلي أن العنف سمة شبابية ، وأنه يخرج دائما من المتعلمين فهم الذين بدئوا في نشر الأسطوانة التي تحتوي علي المسرحية ، كما أن الشباب هم الأكثر انشغالا بقضايا الوطن ، وسماتهم النفسية تجعلهم أكثر انفعالا ، وأقل قدرة علي ضبط النفس والتحكم في الغضب ، وساعد علي ذلك رؤيتهم المحبطة للمستقبل (هم الأكثر تأثرا بالمستقبل).

2- الأشخاص ذوي المستويات الاجتماعية والاقتصادية المتوسطة والدنيا (العمال، الحرفيين، الطلاب):

هم الأكثر تواجدا في المظاهرة، وهو ما يشير إلي عمومية الشعور بالإحباط والرغبة في التغيير.

3- الذكور :

كانوا أضعاف المشاركات من الإناث ، وذلك لأنها قضية تمس الفكر وهو ما يجد صدي لدي الذكور ، ولا يمثل تهديدا للأسرة ومصدر الرزق بصورة مباشرة وهي القضايا الأكثر اهتماما لدي الإناث ، كما أن الذكور مسموح لهم بحرية أكبر في التعبير عن أرائهم .

4- استخـــدام الدولـــة لحيلـــة الإنكـــار

(النائب العام صرح بأنه لا توجد مسرحية) مما أثار حفيظة كلا الطرفيين، وأدي غلي التشكيك الدائم في نوايا الدولة، وأكد ما يعتبر من سمات الطابع القومي المصري.

5- استخـــدام الدولـــة لحيلتـــي الإنكـــار والتعميـــة

(تأكيد شيخ الأزهر والبابا علي عدم وجود فتنة) أدي إلي اتهام الدولة بالجبن وعدم قدرتها علي مواجهة الأزمات.

6- حمايـــة الأفـــراد بعضهـــم لبعـــض

(سيكولوجية التظاهر): حيث تتغير الصفات الشخصية لدي الأفراد فتحل الشجاعة محل الخوف، مما يجعل توقع مسار المظاهرة محل شك.

7- تراجـــع دور القيـــادات السياسيـــة المدنيـــة

في صفوف كلا الطرفيين ، وانتقال مركز الثقل إلي القيادات الدينية (القساوسة أصحاب المسرحية ، الإخوان هم من أنهوا الاعتصام) ، مما يزكي روح الطائفية ويؤكد عدم الثقة بالسلطة.

ومن كل ما سبق نجد أن الدولة كانت هي المستهدفة من الطرفيين: فالمسلمون يرون أنها تحمي الأقباط، والأقباط يريدون قياس مدي التزام السلطة بحمايتهم.

فهي نظرية الابن المدلل، الابن المنبوذ، فالابن المدلل هو الذي يقيس إلي أي مدي يسمح له الأب بالخطأ، والابن المنبوذ هو الذي يستفز الأب ليظهر عجزه عن المواجهة.

الحلـــــــــــول

الأفكار وحدها مهما بلغت من تشوهات انفعالية وفكرية لا تؤدي إلي ظهور أو ممارسة العنف ، فلكي تتحول الفكرة إلي سلوك تحتاج إلي توافر العديد من الخصائص والسمات النفسية والاجتماعية والموقفية ، فكراهية الأخر قد تؤدي إلي العنف ، كما قد تؤدي إلي السلبية (الانسحاب ، أو المقاطعة).

وللقضاء علي العنف يجب الاهتمام بالأتي :

1- الفئات المهمشة (الأكثر قابلية لاستثارة العنف) خاصة الشباب ، الفقراء ، العاطلون، وذلك للتعرف علي مثيرات العنف لديهم ومحاولة خفض هذه المثيرات.

2- الحوار الصحي الايجابي لإعطاء كل الفئات الحق في التعبير وقبول الأفكار مهما كانت درجة الاختلاف معها أو النفور منها، مما يقل من حدوث العنف.

3- التدريب علي المهارات الاجتماعية، ومهارات التواصل، ومهارات الحوار.

4- العقاب الفوري للمخطأ، مما يقلل حدة وتكرار السلوكيات العنيفة.

5- مسئولية السلطة **السياسية:** الإصلاح السياسي بلا خوف أو تردد، مقاومة التزوير، إلغاء القوانين المقيدة للحريات.

4- مسئولية السلطة **الأمنية:** الالتزام بالمعاهدات الدولية الخاصة بحقوق الإنسان، التعامل بحياد تام مع كل المواطنين، محاسبة المتجاوزين من رجال الشرطة.

5- مسئولية **المدارس:** استعادة الدور التربوي، تنمية مهارات التواصل بين الطلاب، وفتح أبواب المناقشة بينهم وتنميتها.

1- مسئولية **الإعلام:** إشاعة قيم التسامح والصدق والعدل والرحمة وغيرها من الأخلاقيات.

2- مسئولية **المؤسسات الدينية :** إشاعة قيم المحبة وقبول الأخر المختلف ، محاربة الفكر الديني الاستقطابي.

3- مسئولية **الأسرة:** الحوار والتسامح والفكر الديني السمح.

الله أكبر ... الله أكبر... الله أكبر.... وإنا لله وإنا إليه راجعون

"كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام"

بمزيد من الحزن والأسى بلغنا نعي علما من أعلام الفكر المغربي / العربي:

أ.د. محمـــــد عابـــد الجابـــــري

أستاذ الفلسفة والفكر الإسلامي في الجامعة المغربية ما بين 1967 و2002 .
صاحب مجلة " نقد و فكر "

بفقده، فقد الفكر العربي أحد أبرز أعمدة مسيرة نهضته...

بفقده، نفقد علما فذا ترك بصمة لا تمحى في مسيرة تأصيل الفكر العربي.

ساهم الجابري في إغناء المكتبة المغربية و العربية، من خلال مؤلفات عدة منها: «**العصبية والدولة: معالم نظرية خلدونية في التاريخ العربي الإسلامي**»، 1971، «**نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي**»، 1980 و «**المنهاج التجريبي وتطور الفكر العلمي**» (1982)، و«**إشكاليات الفكر العربي المعاصر**» (1986) ، وكتابه في «**نقد العقل العربي**»، الذي صدر في ثلاثة أجزاء: «**تكوين العقل العربي**»(1982)، «**بنية العقل العربي**»(1986) و«**العقل السياسي العربي**»(1990)، وقد اعتبر النقاد هذه الثلاثية أهم ما كتب في موضوع العقل العربي، «**التراث والحداثة** (1991)، و«**الخطاب العربي المعاصر**» (1994)، و«**وجهة نظر : نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر**» (1992)، و«**المسألة الثقافية**» (1994) و«**الديموقراطية وحقوق الإنسان**» (1994)، و«**مسألة الهوية: العروبة والإسلام والغرب**» (1995)، «**الدين والدولة وتطبيق الشريعة**» (1996)، و«**المشروع النهضوي العربي: مراجعة نقدية**» (1996)، «**العقل الأخلاقي العربي**» (2001)، «**مدخل إلى القرآن الكريم**» (2008)، **المثقفون في الحضارة العربية: محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد** (2008)، «**الحوار... والمثقف**» (2008). ترجم عدد من مؤلفاته إلى اللغات الإيطالية، الإنكليزية، البرتغالية والإسبانية.

في هذا الظرف الأليم، لا يسعني إلا أن أتقدم **باسمي** و **باسم كافة أعضاء الهيئة العلمية الإستشارية لـ"شبكة العلوم النفسية العربية"** إلى زوجه وأبناءه وآل الجابري بخالص التعازي ، رافعين أكف الدعاء بفاتحة الكتاب ترحما على روحه الطاهرة، سائلين العليّ القدير أن يسبغ عليهم فيض رحمته و يرزقهم جميل الصبر والسلوان في مصابهم الجلل، كما نتقدم بالتعازي إلى كافة الزملاء المغاربة والمفكرين العرب وأخصائيي العلوم النفسية في الوطن العربي.

العين تدمع والقلب تخشع... ولا نراد لقضاء الحق تعالى... نسألك اللهم أن تغمد فقيدنا برحمتك الواسعة وتسكنه فراديس جنانك وتحشره

زمرة عبادك الصالحين، يا أرحم الراحمين... و إنا لله و إنا إليه راجعون

"يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي"

د. جمال التركي
رئيس شبكة العلوم النفسية العربية

التشـــــــــدد العقائـــــــــدي و الوســـــــــواس القهــــــــــــري

د.كلثــــــوم بلميهـــــــوب – أستــــــاذة محاضــــرة بجامعــــة الجزائــــــــــر

belmihoubkeltoum@yahoo.fr

سنعرض في هذا المقال دراسة حالة فتاة عانت من اضطراب الوسواس القهري والذي تبين بعد العلاج النفسي الذي خضعت له أن السبب يرجع إلى اعتقاداتها المتشددة فيما يخص الدين .

وقبل عرض الحالة نبدأ بتعريف هذا الاضطراب وكيفية تشخيصه و طرق علاجه.

1. تعريـــــف الوســـــواس القهـــــــري

الوسواس فكر متسلط و **القهر** سلوك جبري يظهر بتكرار و قوة لدى المريض و يلازمه و يستحوذ عليه و يفرض نفسه عليه و لا يستطيع مقاومته على الرغم من وعي المريض و تبصره بغرابته و سخفه و لا معنوية مضمونه و عدم فائدته, و يشعر بالقلق و التوتر إذا قاوم ما توسوس به له نفسه,

و يشعر بإلحاح داخلي للقيام به.

),زهران 1997.ص 509)

.(. 1983.ص91Cotraux &**al** كوترو و جماعته)

2. الشخصيـــــة الوسواسيـــــــــــة

:تتسم الشخصية الو سواسية القهرية بالصفات الآتية

1.2 الكماليـــــــة :

المبالغة في الاهتمام بالتفاصيل و الترتيب و التنظيم و لو على حساب النتيجة النهائية .

2.2 العنـــــــــاد :

الإصرار على أداء الأشياء كما تراها هي و حسب القواعد التي وضعتها.

3.2 البـــــرود العاطفــــــــي :

لديها صعوبة في التعبير عن المشاعر الدافئة .

4.2 الشــــــــك :

التردد في اتخاذ القرارات خشية القيام بخطأ.

5.2 الأخـــــلاق :

يقظة الضمير إلى أقصى حد.

(François le lord et al.1995. p104)

3. العلاقة بين الشخصية الو سواسية القهرية واضطراب الوسواس القهري

بينت الدراسات الابيديمولوجية أن العلاقة بينهما اقل ارتباطا مما افترضته نظرية التحليل النفسي فقد وجدت أن بين 50 إلى 90 % من المصابين بالوسواس القهري ليس لديهم سمات الشخصية الوسواسية القهرية و أن الغالبية العظمى ممن لديهم شخصية وسواسية قهرية لم يصابوا أبدا باضطراب الوسواس القهري.(Freeston,et al,1996)

4. أعـــــراض أو أشكـــــال الوســــــواس القهـــــــري

الأفكار المتسلطة و يكون معظمها تشككية أو فلسفية أو اتهامية أو عدوانية أو جنسية و الانشغال بفكرة ثابتة تتسلط و تحرض على القيام بسلوك قهري أو إثبات صورة معينة لمنظر حميد أو كريه يشغل الفرد و يقلقه.

المعاودة الفطرية و التفكير الاجتراري.

التفكير الخرافي البدائي و الإيمان بالسحر و الشعوذة و الأحجبة و الأفكار السوداء و التشاؤم و توقع الشر و توقع أسوء الاحتمالات و الكوارث.

الانطواء و الاكتئاب و الهم و حرمان النفس من أشياء و متع كثيرة و سوء التوافق الاجتماعي و قلة الميول و الاهتمام نتيجة التركيز على الأفكار المتسلطة و السلوك القهري.

الضمير الحي الزائد عن الحد و الشعور المبالغ فيه بالذنب و الجمود و عدم التسامح و العناد و الجدية المفرطة و الكمالية و الحذلقة و الدقة الزائدة.

القلق إذا وقع الفرد في المحظور و خرج عن القيود و الحدود و التحريمات التي فرضها على نفسه فكرا وسلوكا.

الطقوس الحركية مثل المشي بطريقة معينة و عد الأشياء أو لمسها.

النظام و النظافة و التدقيق.

الروتينية و الرتابة.

(ص.1997زهران 512)

5. تشخيـــــص الوســـــواس القهـــــــري

يعتبر الفكر وسواسيا و السلوك قهريا عند تكرار وقوعه و ظهور القلق و التوتر عند مقاومته و إعاقة أو منع الفرد من تأدية عمله اليومي و التأثير على كفاءته و سوء توافقه الاجتماعي.

المرجع السابق.1997.ص512

تحدد الجمعية الأمريكية للطب العقلي في تصنيفها الرابع تشخيص اضطراب الوسواس القهري إذا تجاوز ت الوساوس و الأفعال القهرية مدة ساعة في اليوم.(Freeston,et al,1996.)

6. العــــــلاج المعرفــــــــي السلوكـــــــــي

تعتبر النظرية السلوكية الطقوس القهرية نتيجة للتعود ولذلك هي تستخدم تقنية سلب الحساسية المنتظم و تقنيات التعريض و منع الاستجابة.أما العلاج المعرفي فيعتبر الوسواس نتيجة لخلل على مستوى معالجة المعلومات كما يركز على بنية أفكار واعتقادات الفرد الوسواسي. و يهدف العلاج المعرفي إلى

تعليم الفرد ملاحظة أفكاره و مشاعره و مساعدته على مناقشة طرق تفكيره اللامنطقية.(François le lord et al.1995. p104)

(Freeston,Market al ,.1996.)

1.6عـــــــــرض الحالــــــــــة

الآنسة أ طالبة في الإعلام الآلي عمرها 20 سنة طلبت مساعدتنا بسبب ما تعانيه من وسواس قهري

2.6 المحيــــــــــــط العائلــــــــــي

هي الثالثة في الترتيب الميلادي من أسرة متكونة من الأب و الأم و 5 أولاد اثنين ذكور وثلاثة إناث

يشتغل الأب كموظف بسيط أما الأم فهي ماكثة بالبيت.

7. الطفولـــــــة و المراهقـــــــــــة

كانت طفولة عادية ماعدا حادثة تعرضت لها حينما كان عمرها 5 سنوات و التي بمجرد تذكرها بدأت تبكي و ترتجف كأنها ارتكبت جرما لا يغتفر وقد ذكرتها في المقابلة الأولى و تتمثل في أن أخاها الأكبر منها والذي كان عمره 10 سنوات, عندما ينام الجميع يعتلي ظهرها و من شدة حرجها كانت تتظاهر بالنوم ملتحفة برداء من رأسها إلى أخمص قدميها .

وهي تشعر بالذنب كلما تذكرت هذه الحادثة خصوصا وهي من أسرة متدينة فالأب شديد التدين إلى درجة منعهم من سماع الموسيقى و قد كان يأخذها معه إلى المسجد و هي في المرحلة الابتدائية ثم توقفت عن الذهاب إلى المسجد في مرحلة الدراسة المتوسطة وحينها اجبرها أبوها على لبس الحجاب وبعدها عاودت الذهاب إلى المسجد في المرحلة الثانوية فقد اصبحث أكثر التزاما و اقتناعا بالتدين عن ذي قبل و خاصة بالحجاب و امتنعت عن مشاهدة التلفزة و سماع الموسيقى.

1.7 الدراســـــــــــة

كانت دائما متفوقة في دراستها فقد حصلت على علامة 15 من 20 في البكالوريا وهي في سن 17 سنة

2.7 الحيــــــاة العاطفيــــــــــة

لقد كانت دائما تكبت مشاعرها اتجاه الذكور بناء على تربيتها الدينية المحافظة

8. السوابـــــــــــق المرضيــــــــــــة

لقد عانت المفحوصة من قلق الموت بعد وفاة جدتها حيث كانت أول حادثة موت في العائلة ثم تحسنت حالتها بانشغالها بتحضير شهادة البكالوريا.

كما عانت من الوسواس فيما يخص الوضوء و الصلاة والصوم في اليوم الموالي لزلزال 2003 الذي ضرب شرق الجزائر العاصمة .زادت الأعراض حدة مع مرور الوقت و في سنة 2005 بدأت تعاني من وساوس كفرية و الخوف من ان تصبح كافرة و الاعتقاد في الردة بسبب هذه الوساوس. و لكي تتوب من الردة حسب اعتقادها تغتسل و تغسل ملابسها.

1.8 الأعـــــــــــــراض

تعاني المفحوصة منذ اربع سنوات من الوساوس القهرية التالية

التفتيش

الغسل

طقوس تكرار الاستنجاء و الوضوء و الصلاة

مقاومة الأفكار و الصور الجنسية

الوساوس الكفرية

تقضي المفحوصة وقتا معتبرا في التفتيش عن السوائل و الإفرازات المهبلية وحتى أثناء النوم تنهض لمراقبة السوائل فإذا وجدتها نامت لأنها قررت الاغتسال في الصبح وإذا لم تجد شيئا تقضي الليل في المراقبة.تتجنب القيلولة في النهار حتى لا تضطر الى الغسل.

بعد كل صلاة تقوم من التأكد من جفاف المهبل لأنها إذا وجدت أي إفراز تعيد الوضوء و الصلاة.رغم أنها تمكث في المرحاض نصف ساعة وهي تكرر الاستنجاء و الاغتسال من الصرة إلى أطراف القدمين .حتى تزيل كل شك في وجود أي إفرازات أو قطرات من البول.

تعاني المفحوصة من الوساوس الجنسية التي تتسلط عليها حتى أثناء الصلاة,الى درجة أنها لا تقرا في الحافلة أي كتاب إذا كانت الحافلة مختلطة لان الصور الجنسية تتسلط عليها و لمقاومتها ومنعها تقوم بخدش وجهها أو رقبتها لتحويل انتباهها إلى الألم بدل الصور الجنسية.

9. طريقـــــــة التشخيـــــــص

بعد الاستماع بكل اهتمام للمفحوصة لكسب ثقتها طلبنا منها التعاون من اجل الوصول إلى تحديد المشكلة للوصول إلى حلها ولتحقيق هذا الهدف استخدمنا التقنيات التالية

تقنية المراقبة الذاتية

والتي تتطلب الإجابة على الأسئلة التالية

متى تظهر الأعراض؟

فيما تتمثل هذه الأعراض؟

في أي الظروف تظهر؟

ماذا يحدث من قبل و ماذا يحدث من بعد؟

ما هي الأفكار التي تفكر فيها في تلك الأوقات بالذات؟

كيف اثر هذا المشكل على حياتها؟

وقد تم توجيه المفحوصة الى كيفية تطبيق تقنية المراقبة الذاتية و ذلك بالإجابة على الأسئلة السابقة عند كل نوبة قلق.

11. نتائـــــج المراقبـــــة الذاتيـــــة

تظهر الأعراض المذكورة أعلاه كل يوم بل عدة مرات في اليوم و قد اثر هذا المشكل على كل مجالات حياتها كما سنبين في ما يلي

حياتها النفسية

تشعر بالاكتئاب و التعب و التعاسة رغم ما تجده من تفهم من طرف أهلها

حياتها الاجتماعية

لا تشارك في اي نشاط اجتماعي كالخروج مع صديقاتها أو زيارة الأهل خوفا من تعاليقهم التي تحرجها و تزيد من ألمها

حياتها الدراسية

بما أنها طالبة في الإعلام الآلي الذي تتطلب الدراسة فيه تفرغا كاملا فهي تعاني من تضييع الوقت في الأفعال القهرية كتكرار الغسل وغيره من الأعراض الأخرى و تبذل جهدا كبيرا من اجل التركيز في دراستها لسيطرة الوساوس عليها وهي لا تشارك في القسم بسبب فقدانها الثقة في نفسها و حتى في حالة تيقنها من الإجابة فان الوساوس تتسلط عليها فيما يخص الفتنه في حال إعجاب الذكور بها

فتمتنع عن الإجابة.

12. تحليـــــل المعطيـــــات

تبين لنا من خلال المقابلة العيادية و معطيات المراقبة الذاتية أن المريضة تعاني من التوتر في مجالين هامين في حياتها و هما الدراسة و الدين .

1.12. أولا الدراســـــــــــة

تتميز المفحوصة بحبها الشديد للدراسة تقول ليس لي شيء آخر اهتم به .فقد كانت متفوقة دائما خلال مسارها الدراسي فهي الأولى أو من بين الأوائل .

و لكنها الآن في مدرسة الإعلام الآلي وجدت نفسها مع المتفوقين فقط مثلها فالمنافسة شديدة و قاسية وهي لا تتقبل أن تجد نفسها في غير المراتب الأولى كما تعودت دائما من قبل و قد لاحظنا الارتباط بين حصولها على علامات ضعيفة و نوبات القلق التي تنتابها مما يجعل الوسواس القهري يشتد .

2.12. ثانيـــــا الديـــــن

في أول حصة بمجرد تحدث المفحوصة عن معاناتها مع الوسواس القهري منذ اربع سنوات بدأت تبكي وترتجف خوفا من الله وفي هذه الوضعية المحرجة لى كعيادية طرحت عليها السؤال التالي

ماذا اقترفت من ذنب يجعلك تخافين من الله الغفور الرحيم الى هذا الحد؟

فبدأت تتحدث عن قصة أخيها الذي يكبرها بخمس سنوات والذي كان ينهض في الليل ليتمدد فوق ظهرها و هي تتظاهر بالنوم خجلا مما كان يفعل بها مجرد تمدد لا أكثر) مع ذكرها أنها كانت تغطي نفسها برداء من رأسها إلى أخمص قدميها فهذه الحادثة قد أيقظت جانبها الجنسي مبكرا فقد كان عمرها خمس سنوات و قد تكرر هذا الأمر اقل من خمس مرات على ما تذكر.

و في مرحلة المراهقة بدأت تمارس العادة السرية و عندما أصبحت ملتزمة في الثانوية بدأت تشعر بالذنب و تقاوم رغباتها الجنسية بل حتى مجرد التفكير في الجنس التي كلما قاومتها ازدادت تسلطا عليها ولهذا السبب هي تخاف من الله خوفا شديدا و ازداد هذا الخوف حدة بعد الزلزال.

13. الفرضيـــــــــــة

بعد عدة مقابلات عيادية و تحليل معطيات المراقبة الذاتية تم وضع الفرضية التالية كتفسير لاضطراب الوسواس القهري عند هذه المفحوصة

إن اضطراب الوسواس القهري عند المفحوصة هو استجابة للضغوط التي تتعرض لها في الدراسة و ما يتطلبه الالتزام بالدين كما تدركه هي خصوصا في مجال الجنس.

14. البرنامـــــج العلاجـــــي

بعد و ضع التشخيص بدأنا في تطبيق البرنامج العلاجي الذي تضمن التقنيات التالية

15. اعـــــادة البنـــــاء المعرفـــــي

تصحيح الأفكار اللاعقلانية بخصوص الجنس و تفسير الأحداث الضاغطة مثل الحصول على علامات ضعيفة في الامتحانات.

التخلص التدريجي من الأفعال القهرية مثل إنقاص الوقت الذي تقضيه في الاستنجاء ب 5 دقائق كل مرة حتى تصل الى المعدل العادي.

مقاومة الاستجابة القهرية

لفت انتباه المفحوصة إلى الأشياء الايجابية في شخصيتها من اجل إعادة الثقة بالنفس

قراءة كتاب تأكيد الذات ل كونجي

16. النتائـــــــج

بعد عدة جلسات بدأت المفحوصة تستجيب للعلاج حيث كان أول عرض تخلصت منه رغم انه الأصعب الذي يسبب لها الحرج والمشقة والذي يتمثل في الاغتسال يوميا بل أحيانا عدة مرات في اليوم فكلما شكت في نزول سائل من فرجها تغتسل.وقد شرحنا لها كيف أن هذه الإفرازات المهبلية هي طبيعية عند المرأة من الناحية الفيزيولوجية أما من الناحية الدينية فقد شرحنا لها كيف أن الشريعة الإسلامية لا تعتبر الغسل واجبا إلا في حالة حدوث النشوة مما جعلها تقتنع ومن ثم تناقص الاغتسال إلى أن انطفأ و أصبح عاديا.

العرض الثاني من حيث ترتيب الاختفاء الصور الجنسية بحيث شرحنا لها انه من الطبيعي أن تفكر في الجنس طالما انه دافع قوي خلقه الله سبحانه وتعالى في الإنسان لتعمير الأرض وانه هو سبحانه الذي حدد ما المسموح و ما الممنوع في هذا الموضوع فالأفكار و الأحاسيس الجنسية هي جد طبيعية خصوصا في هذه السن حيث تكون الرغبة الجنسية في أوجها بينما لا يختلف اثنان أن الزنا هو ما حرمه الشرع الحنيف.

لقد حرر هذا الشرح المفحوصة من مشاعر الذنب التي كانت تنتابها كلما راودتها الأفكار الجنسية وقد انعكس هذا الارتياح على سلوكها في الحافلة والأماكن المختلطة حيث لم تعد تمنع أو تقاوم هذه الأفكار بل لا تعيرها انتباها مما أدي إلى انطفائها.

بالنسبة لقلقها عندما تحصل على علامات ضعيفة مقارنة بزملائها, ناقشنا صورة الذات و قيمتها لديها و مدى ارتباطها بالعلامات التي تحصل عليها في الامتحانات, وبدأنا في البحث عن صدق هذه الأفكار و مدى معقوليتها .فهل فعلا العلامة هي من تحدد قيمه أي طالب؟ و هل هناك تفسيرات بديلة للعلامات الضعيفة غير التفسير المرتبط بالعجز الذاتي؟ وهنا بدأت تتحدث عن الظروف المادية التي تعيشها مقارنة بزملائها, فهي لم تستطع الحصول على حاسوب محمول إلا بشق الأنفس, و رغم ذلك

هو متدني النوعية مقارنة بما يملكه زملاؤها من احدث ما أنتجته تكنولوجيا الحواسيب, ولذلك هي تعزي تفوقهم أحيانا عليها في العلامات إلى إمكانياتهم المادية المساعدة, فلو أنها كانت تملك حاسوبا مثل حواسيبهم لما نازعها احد على المرتبة الأولى. وفي سياق حديثها شعرنا أنها تكبت مشاعر المرارة من الفقر الذي تعانيه, و هي تحاول أن لا تشتكي لأنها مؤمنة و المؤمن يرضى بقضاء الله و لكنها في أعماق نفسها تتمنى لو كانت الظروف مختلفة إلى درجة السخط على الله و قول أشياء غير مناسبة في حق جلالته , و أحيانا الشك فيه و في واجباته التي افترضها ما يسمى بالوساوس الكفرية مما يجعلها تشعر بالذنب و لكي تتطهر تقوم بالطقوس القهرية الخاصة بالنظافة والاغتسال و تكرار الاستنجاء و تكرار الوضوء.

17. الخاتمـــــــــــة

بعد حوالي 30 جلسة علاجية تحسنت حالتها كثيرا حيث تقول المفحوصة أنها تشعر بتحسن كبير و أنها تفكر في العمل لمساعدة أهلها و تفكر في الزواج حيث تقول أريد أن أعيش لا أريد أن تقتصر حياتي على الدراسة فقط .

18.المراجـــــع العربيـــــة

- حامد عبد السلام1997,الصحة النفسية والعلاج النفسي,عالم الكتب, ط 3 القاهرة. زهران
- سعفان محمد احمد محمد ابراهيم 1998.الوساوس والافعال القهرية.ط1. دار النهضة . القاهرة

المراجـــــع الاجنبيـــــة

- Belmihoub keltoum.(2009), thérapie cognitivo_comportementale de l ' agoraphobie.in revue électronique d ' Arabpsynet APN eJ n 21_22 hiver et printemps. pp269_270
- Cottraux, J. (2001) .les thérapies cognitives : comment agir sur nos pensees.ed Retz. Paris.
- Cungi, C .(1996), Savoir S'affirmer. Ed. Metz. Paris
- Fontaine, O.Cottraux, j.ladouceur, R. (1983).les thérapies comportementales .Ed soledi .liège Belgique.
- Lelord, F.Andre, C. (1996). Comment gérer les personnalités difficiles .Ed ,Odile jacob.Paris.
- Loo.H,.Olie,J,P.(1997).Cas clinique en psychiatrie,2ed .medecine_science Flammarion. Paris..
- Fontaine, O.,Cottraux, J.,Ladouceur, R.(1983).la clinique des thérapies comportementales .Ed soledi .liège Belgique.
- Freeston,M,H., Ladouceur,R.,Bouchard ,C.(1996).Traitement cognitif et comportementale du trouble obsessionnel _compulsif. Partie 2:interventions therapeutiques.in revue québécoise de psychologie, vol,17.n1.

دعـــوة للمشاركـــة بمقـــالات نفسيـــة

دراســـات نفسيـــة

مجلة علمنفسية محكمة

تصدر عن مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية بالجزائر

باسهامات الباحثين في الموضوعات ذات الصلة بعلم النفس التي تراعي القواعد التالية:

1-ان يكون البحث غير منشور في مصادر اخرى

2-التقيد بالاسلوب العلمي و المعالجة الموضوعية والاحاطة المنهجية

3- لا يقل حجم المقال عن 15 صفحة و لا يزيد عن 25

4-ان يكتب المقال ببرنامج word، الخط باللغة العربية حجم الخط 14 - Arabic Transparent

5-ان يكون البحث مرفق بالمراجع مدونة في نهاية البحث

6-تخضع الابحاث المقدمة للتقييم من قبل الهيئة العلمية للدورية و يبلغ اصحابها بالقرار النهائي المتعلق بالقبول او التعديل

7-الابحاث المرسلة لا تعاد الى اصحابها سواء نشرت او لم تنشر

ترسل المقالات على البريدي الإلكتروني لرئيس التحرير belmihoubkeltoum@yahoo.fr

د.كلتوم بليمهوب
رئيس التحرير
belmihoubkeltoum@yahoo.fr

Cognitive concepts applied to extremist ideology
A Suggested theoretical framework and practical implications

Joseph El-Khoury M.D. & Numan Gharaibeh M.D

n_gharaibeh@yahoo.com - n_gharaibeh@yahoo.com

Extremism is a universal social illness; which is likely to have plagued human society since its inception. While in recent years the focus in the Western media and certain academic circles has been on its resurgence in Arab and/or Moslem societies, historical and contemporary evidence reveals that extremism transcends cultural, religious or ethnic particularities. In this article, we argue that common psychological processes are at play in the formation of extreme attitudes and beliefs in individuals, whether the context is religious, racial, ethnic, national, regional, tribal, etc. Trying to understand the common psychological and mental framework of an extremist are seldom attempted for fear of being perceived as "justifying" his (or–less likely–her) actions or even condoning his cause. We attempt to explore the cognitive psychological makeup of a prototypical, archetypal or stereotypical extremist and examine the issue of early learning, through education or indoctrination, in the formation of radical views. We use the discourse of current public figures known for their radical rhetoric to exemplify the errors of logic (cognitive distortions) that accompany most if not all forms of prejudices from racism to religious intolerance. We also discuss the possibility of later modification, through natural and interventional processes, of extremist ideology and behavior.

LINGUISTIC OVERVIEW

The discourse on extremism [Arabic: التطرّف والتعصّب] includes a number of words, sometimes interchangeably, to describe attitudes or actions that are perceived as at odds with mainstream values: fundamentalism, radicalism, racism, xenophobia, terrorism, etc. These terms, except possibly for radicalism, which was adopted by a number of political formations in the 20th Century (The French Radical Party or 'Parti Radical') carry an intrinsic negative connotation in modern language.

In *Islamic Fundamentalism*, Youssef Choueiri (1990) acknowledged that Fundamentalism is a vague term with a Protestant origin, referring to the "literal yet creative interpretation of the Bible." Choueiri redefined fundamentalism to indicate "a certain intellectual stance that claims to derive political principles from a timeless, divine text." Indeed, while the word Fundamental refers to 'the most important or basics part of a subject or activity' (Collins essential English dictionary 2006) the term fundamentalist is virtually unheard of by 1950 and emerges in the United states in the second part of the 20th century (from Wikipedia, reference needed). Fanatic derives from the Latin word, fanaticus: inspired by a deity, frenzied, or marked by excessive enthusiasm and often intense uncritical devotion. Extreme: Existing in a very high degree; going to great or exaggerated lengths: Synonymous with "*Radical*." Radical from Latin radic-, radix root: of, relating to, or growing from the root of a plant; of or relating to the origin, marked by a considerable departure from the usual or traditional; tending or disposed to make extreme changes in existing views, habits, conditions, or institutions; relating to, or constituting a political group associated with views, practices, and policies of extreme change; advocating extreme measures to retain or restore a political state of affairs (e.g. the radical right).

Xenophobia is derived from the Greek words *xeno* (foreigner or stranger) and *phobia* (fear, panic). Although it literally means fear of strangers and could have easily joined other phobias (Agoraphobia, Arachnophobia) in Psychiatric classification, it instead became synonymous to hate of foreigners or strangers; it is common for fear and hate to walk hand in hand and the original linguistic relation link to other terms that carry a pathological meaning is significant beyond coincidence.

A COMMON PATHWAY TO EXTREMISM

A number of factors act in combination to generate a set of extremist beliefs and attitudes. Some of these are external and other internal. Our focus is on the common pathway that these factors lead to. The common path (the proximate cause) is a rigid cognitive style characterized by lack of choice. Although the extremist thinks that his thoughts, words and actions are an exercise in free choice, in reality his conclusions are the result of firmly established mental processes that have been shaping since birth through years of overt and subtle indoctrination. It is widely recognized that core beliefs are established within the early years of life through a combination of emotional and factual experiences. On this point, Cognitive Psychologists and Psychoanalysts agree, regardless of whether the process happens unconsciously or at a more accessible level.

The formation of the extremist will most probably involve interplay between his genetic make-up, his early experience and the environment. Following the Second World War, a number of US psychologists attempted to explain the passivity if not the collusion of a number of ordinary Germans and lower ranking military with the well know events that scarred that period. They concluded that certain personality types were more prone to extremist views (or following orders with extreme consequences). In that way the Germans were not unique and, common sense, in the absence of verifiable scientific evidence, would dictate that every society contains among its midst individuals with the potential for extremist attitudes given the correct indoctrination and the suitable circumstances. In order to establish their identity, humans are naturally directed towards in-group/out-group discrimination. Extremists in a way only take this normal social phenomenon to its extreme conclusion partly because of the rigid cognitive framework through which they operate.

In a new millennium and in the golden age of communication and access to information one would have expected extremism

to start a gradual decline. Unfortunately judging by the state of affairs over the past nine years, extremism is on the rise and defining a number of conflicts and confrontations around the globe.

THE EARLY YEARS

By the time most children reach the age of abstract reasoning (consensus is that it starts around age 12), they typically would have gone through as many years of education but also indoctrination. The process of indoctrination may be given more subtle names as well: acculturation, socialization, assimilation, tutoring, rearing, upbringing. Parents may be the ones with the responsibility for the process but they are by no means its only agents. Laying down the ground principles through which the future adult will relate to the world does not exclusively take place within officially recognized educational frameworks. In fact, schools—and parents—are facing tough competition from other sources of education as varied and as big as life itself. If parents have control over TV hours, they have little control over content. To get their children "socialized" beyond the class room, parents depend on extracurricular activities, some are school based, some not. Growing access to the Internet and mobile phones at an early age has more recently added another dimension to be reckoned with.

In most cases, the default intention is to reproduce the established cultural, social and religious template proper to the family or the broader social group within the child's mind allowing only for minor variations. The latter is being taught by often well intentioned tutors what typically he or she has no choice at this level of maturity but to accept as fact. This include the or she parents faith, but also views on what is right and wrong, true or false, good or bad etc. By the time the child reaches an age allowing him more independent reasoning, it is difficult to undo these effects and introduce him to flexibility of thought and open mindedness. While we are describing the traditional approach to education, more sophisticated and liberal systems remain the exception rather than the norm for the majority of children across the globe, including in the Western world.

Cognitive principles applied to extremist attitudes

Cognitive Therapy, also known as CBT when combined with behavioral approaches rely on the assumption that feelings, thoughts and behavior are interconnected elements that define our self perception and our interaction with our social environment. Thoughts, being the most accessible of these elements, are the target of the therapy. Cognitive distortions, which are in fact errors in logic that may lead to false conclusions and erroneous beliefs, are also challenged and rectified. We will cover the most common of these distortions and illustrate those using speeches and declarations from a number of public figures broadly considered to hold extremist views, even within their own community.

1. "Either-Or" Fallacies

The prototypical extremist is very comfortable with dichotomous thinking, also known as 'Black and White thinking', 'all or nothing thinking' or the 'either-or fallacy'–If you are not a friend then you must be a foe- He finds shades of grey meaningless and compromises threatening.

Example: "*What this is coming down to is who runs the country. It's us against them. It's the good guys versus the bad guys. It's the God-fearing people against the pagans, and some of the pagans are going to church.*" (Terry, 1992).

2. Overgeneralizations

This is connected to the either/or fallacy mentioned above. The extremist believes that since some members of a certain group have certain characteristics then they must all have that characteristic. This applies both to his in-group and the out-group.

Example: "A Jew cannot look a Muslim in the eye or pass him knowing they have oppressed a Muslim or some other Jew had oppressed a Muslim elsewhere." (Abu Hamza, n.d.)

Example: "If you don't want a Christian nation, then go to one of the many nations that are heathen already, rather than perverting ours. You're welcome to come, but leave your religions, your bibles, all your other things back where you came from. Islam and America are opposites. They hate us. They want to kill us. I'm not anti-Jewish or anti-Catholic. I'm anti-Islam because that religion right there is anti-American." (Fugate, 2002).

3. Emotional reasoning

The extremist establishes his stance based on his likes and dislikes as opposed to a dispassionate weighing of pros and cons. 'Hate' as an extreme emotional state features prominently extremists' discourse. This works very well as a recruiting strategy since the 'heart' is much more accessible than the 'mind' at any stage of maturity.

Example: "Every Muslim, the minute he can start differentiating, carries hate towards Americans, Jews, and Christians; this is part of our ideology. Ever since I can recall I felt at war with the Americans and had feelings of animosity and hate toward them." (Osama Bin Laden, 1998).

Example: "I want you to just let a wave of intolerance wash over you. I want you to let a wave of hatred wash over you. Yes, hate is good... Our goal is a Christian nation. We have a biblical duty; we are called on by God to conquer this country. We don't want equal time. We don't want pluralism." (Terry, 1993).

4. Mental Filter & Disqualifying the positive

Regularly, extremists select from a conversation or an interaction what is consistent with their preconceived views and reinforces their already established beliefs while discarding what is not. Alternative explanations and outcomes are consciously or subconsciously dismissed or ignored. There seems to be a deep seated mistrust of anything positive by "the other." An extreme mindset is threatened and thrown out of balance by a change in circumstances and a new narrative that is at odds with their negative stance of the other.

Example: "Obama is like a wolf with claws deep in your flesh and asking you to give up your defense because he wants peace with you."Obama " is only a blood-spiller of Muslims like his predecessor, (George W.) Bush." (Al-Zawahiri, 2009)

5. "Should/Must" Fallacies

Extremists speak in terms of rules and principles that imply absolute truth without the need for justification. To emphasize their points of view, their discourse is punctuated with "should," "must," "have to," or "ought to" statements.

"We must use the doctrine of religious liberty to gain independence for Christian schools until we train up a generation of people who know that there is no religious neutrality, no neutral law, no neutral education, and no neutral civil government. Then they will be getting busy in constructing a

Bible-based social, political and religious order which finally denies the religious liberty of the enemies of God." (North, 1982)

The long-term goal of Christians in politics should be to gain exclusive control over the franchise. Those who refuse to submit publicly to the eternal sanctions of God by submitting to His Church's public marks of the covenant - baptism and holy communion - must be denied citizenship, just as they were in ancient Israel. (North, 1989)

'To push the enemy - the greatest kufr - out of the country is a prime duty. No other duty after Belief is more important than [this] duty. Utmost effort should be made to prepare and instigate the umma [communitiy of Muslims] against the enemy, the American-Israeli alliance - occupying the country of the two Holy Places...' (Bin Laden, 1996).

6. Personalization, Misattribution & Paranoia

The perception of threat as personal, imminent and existential is common to extremists. Misattribution and misappraisal of reality border on paranoia. Phrases such as "my people" and "my culture" are common.

Example: *"I send recordings to Cairo in which I call upon my people to attack tourists."* (Abdul-Rahman, n.d.).

Example: "*The Muslims refuse our culture and try to impose their culture on us. I reject them, and this is not only my duty toward my culture-it is toward my values, my principles, my civilization."* (Oriana Fallaci, 2001)

7. Labeling and Mislabeling

Common to extremists everywhere is the tendency to reduce complex identities to labels that suit their purposes. In the following declaration, the 'Unbeliever' label includes billions of individuals who share no common characteristics except for Omar Bakri's perception of them. Any attempts at refining the classification would add layers that the extremist is actively seeking to avoid.

We don't make a distinction between civilians and non-civilians, innocents and non-innocents. Only between Muslims and unbelievers. And the life of an unbeliever has no value. It has no sanctity. Omar Muhammad Bakri, 2004)

8. Jumping to conclusions

Extremist rhetoric usually avoids justifying attitudes or providing rational constructs for recalcitrant beliefs. Instead of rational reasoning, extremists' rhetoric relies on readily packaged conclusions or headings are reinforced as absolute undeniable truths.

"*Christianity offers the only viable, reasonable, definitive answer to the questions of 'Where did I come from?' 'Why am I here?' 'Where am I going?' 'Does life have any meaningful purpose?' Only Christianity offers a way to understand that physical and moral border. Only Christianity offers a comprehensive worldview that covers all areas of life and thought, every aspect of creation. Only Christianity offers a way to live in response to the realities that we find in this world -- only Christianity."* (DeLay, 2002).

Such rhetoric leaves little room for skepticism, dissenting views or dialectical argumentation to the opposite. This cognitive distortion is closely tied to the "either/or" fallacy and dichotomous thinking.

9. Magnification and Minimization

Exaggerating, catastrophizing, magnifying and minimizing (as convenient) are very common qualities of irrational minds.

This is not only a quality of extreme minds but also found in our daily lives and styles of thinking and relating. Here is an example of how the mundane and pervasive sexual desire is turned into an existential fight against the other.

"I send recordings to Cairo in which I call upon my people to attack tourists. I explain to them that we must stop tourism to Egypt. Tourism is a plague. [Western] women come dressed in provocative clothing in order to arouse the believers. Tourists use drugs; they party all night in the clubs and casinos, and feel up the belly dancers. And our people [the Egyptians] their eyes are popping out from envy in trying to imitate the infidel tourists." (Abdul-Rahman, n.d.).

Almost all the other cognitive distortions can be subheadings under this general heading of exaggeration. The quotation above has almost all the cognitive distortions previously mentioned. The use of the expression "my people" by sheikh Abdul-Rahman is typical of intolerant minds (and grandiose minds). "Tourism is a plague" is a gross exaggeration and discounts the many positives of tourists, including the badly needed financial return. There is a childish simplicity, ignorance, and may be a sign of low intelligence in the statement "tourists use drugs."

Here is another example of blowing reality out of proportion to an apocalyptic dimension: "*Europe is no longer Europe, it is Eurabia, a colony of Islam, where the Islamic invasion does not proceed only in a physical sense, but also in a mental and cultural sense*." (Oriana Fallaci n.d.)

Practical implications

It would be naïve to expect that human civilization will soon achieve tolerance and moderation by a sudden exercise of rational thinking. Grievances, conflicts, xenophobia and intolerant extremism won't disappear overnight. While political, socio-economical and sometimes military solutions might have a role in dealing with extremism and its consequences, the contribution of the psychological and educational dimensions to the solution are often neglected. It is unfortunate that future generations are indoctrinated with intolerance and hate not only in the "backward" countries but also in the "first world" countries as well.

The psychological elements that breed extremist intolerant views may also be part of the solution. This can be achieved mostly through prevention and–to a lesser degree–treatment. Prevention is a long term but very effective strategy, mainly through adopting an educational approach that emphasizes the development of critical and independent thought in children. Curricula and teaching methods in the Arab world emphasized for decades memorizing as learning tool (and in religious education emphasized blind obedience and submission to absolute concepts). The adoption of alternative teaching methods and curricula require a liberal attitude but not necessarily one that contradicts the basic foundations of non-Western social structures.

Early adolescence is the stage at which children start grasping abstract concepts and this period may be a prime time to start teaching them the skills of critical thinking and how to apply those skills to the texts they read, the speeches they hear and the movies they watch. This can only be done by educators at ease with the concept of critical thinking and the challenges it proposes to dogmas of all sorts. Education does not only involve the formal education received in schools, community colleges, and universities; informal educations takes place within extended families, through the television and cinema, through the internet, and other multimedia, as well as in the mosques,

churches, synagogues and temples. The education of Imams is very important since the pulpit continues to play a role in radicalizing youth. It is not enough to have a high school graduate go through a short training to become an Imam. One may argue that future Imams should at least hold a bachelor's degree including courses in psychology, which may equip them better to positively influence future generations and relate to the complexities of modern life.

In terms of those who already hold extremist views, the issue is more complex and open for debate. While some in the field of behavior (and thought) modification may feel it is a hopeless pursuit to change those over the age of 30 or even 20, there are optimists who feel that there is room to undo indoctrination. Saudi Arabia is already adopting a "rehabilitation" approach to its imprisoned Moslem extremists/Jihadists, although little is known of its theoretical basis and its level of success.

In addition to a modern educational system, a holistic and multidisciplinary approach to the problem of established extremism involves finding practical solutions to the political and economical conditions that have fuelled it for centuries.

REFERENCES:

- Abdul-Rahman, Omar. (n.d.). Quote found at http://atheism.about.com/od/islamicextremismpeople/a/rahman_2.htm
- Abu Hamza (n.d.). [A Muslim Cleric based in the UK] as quoted by BBC at http://news.bbc.co.uk/2/hi/uk_news/4690084.stm.
- Al-Zawahiri Ayman (2009) speech retrieved from http://www.thedailynewsegypt.com/article.aspx?ArticleID=23605
- Bakri, Omar (n.d.) http://74.125.77.132/search?q=cache:http://www.theage.com.au/articles/2004/04/19/1082326119414.html
- Bin Laden, Osama. (1996). Quote published in al-Quds al-Arabi, London, August, 1996
- Bin Laden, Osama. (1998). Interview broadcast on al-Jazira television.
- Buchanan, Pat. (1993). Speech to the Christian Coalition.
- Choueiri, Youssef M. (1990) Islamic Fundamentalism. Twayne Publishers, a division of G.K. Hall & Co., Boston, Massachusetts.
- Collins essential English Dictionary, 2nd edition 2006, Harper Collins Publisher.
- DeLay, Tom (House Majority Whip; Republican from Texas). (2002). Speech at the First Baptist Church of Pearland, Texas, on April 12, 2002.
- Fallaci Oriana (n.d.) retrieved from http://en.wikiquote.org/wiki/Oriana_Fallaci
- Fallaci Oriana (2002) The Rage and The Pride, Universe Publishing.
- Fugate, Jeff (2002). Speech at Clays Mill Road Baptist Church, Lexington, KY on July 3rd 2002.
- [al]-Ghathami, Abdullah. (2009) al qabeelah wal qaba'elyyeh (hawweyat ma ba'd el hadatha). [Tribes and Tribalism; or, Post-Modern Identities]. Casablanca, Morocco, Al Markus al Thalami el Arabi.
- Goldberg, B. (2002). Bias. Washington, DC: Regnery Publishing, Inc.
- Khomeini, Ayatollah Ruhollah. (1942). Islam Is Not a Religion of Pacifists.
- Miller, Matt. (2009). The Tyranny of Dead Ideas. New York, NY. Times Books/ Henry Holt and Company, LLC.
- North, Gary. (1982). Intellectual Schizophrenia of the New Christian Right, in Christianity and
- Civilization: The Failure of the American Baptist Culture, No. 1, p. 25.
- North, Gary. (1989). Political Polytheism: The Myth of Pluralism.
- Terry, Randall. (1992). Speech in Jackson, Mississippi, April 1992.
- Terry, Randall. (1993). The News Sentinel, (Fort Wayne, Indiana), August 16, 1993.
- Webster's Comprehensive Dictionary. (1991). New York, NY: American International Press.
- http://buchanan.org/blog/address-to-the-heritage-foundation-182

البقـــــاء للـــــه و حـــــده

إنـــا للـــه و إنـــا إليـــه راجعـــون

بلغنا بمزيد الحزن والأسى (في فترة متزامنة) نبأ نعي ثلاثة من أبرز وجه الإختصاص في الوطن العربي:

الأستاذ الدكتور مصطفي كامل

استاذ علم النفس التربوي - بكلية التربية - جامعة طنطا

الدكتور بلعيد هربان

استشاري الطب النفسى -العضو المؤسس للجمعية الجزائرية للطب النفسى بالممارسة الحرة

د. محمد ابراهيم سحلول

استاذ الطب النفسى بجامعة الزقازيق مصر-الاستشارى السابق بمستشفى الامل بدبى

في هدا الظرف الأليم لا يسعنى إلا أن أتقدم باسمى و باسم كافة أعضاء الهيئة العلمية الإستشارية لـ**"شبكة العلوم النفسية العربية"، بخالص التعازي و المواسات** إلى أسرهم الكريمة و إلى كافة أخصائيي العلوم النفسية، سائلا الله العلي القدير أن يتغمدهم برحمته الواسعة و أن يسكنهم فراديس جناته وأن يرزق أهلهم وذويهم و الأسرة العلمنفسية المصرية والعربية و الطبنفسية المصرية و الجزائرية والعربية جميل الصبر و السلوان و إنا لله و إنا إليه راجعون.

" يا أيتها النفس المطمئنة إرجعي إلى ربك راضية مرضية فأدخلي في عبادي و أدخلي جنتي"

د. جمال التركي

قــواعد النشــر بمجلــة شبكــة العلــوم النفسيــة العربيــة

تعمل "مجلة شبكة العلوم النفسية العربية" على الإحاطة بمستجدات الاختصاص في كافة فروع العلوم النفسية، محاولين بذلك الاستجابة لحاجات المختصين والمهتمين خصوصا بعد تداخل تطبيقات الاختصاص مع مختلف فروع العلوم الإنسانية. وذلك من خلال اطلاع المتصفح على اتّجاهات البحوث العالمية وتعريفه بأخبار ومستجدات هذه البحوث عبر بعض الترجمات للأبحاث الأصيلة. أمّا بالنسبة للبحوث العربية فإن المجلة تسعى لتقديم الدراسات والبحوث الرصينة المسايرة للمستجدات وللحاجات الفعلية لمجتمعنا العربي .

تقبل للنشر الأبحاث بإحدى اللغات الثلاث العربية، الفرنسية أو الإنكليزية.

1- الأبحاث الميدانية والتجريبية
2- الأبحاث والدراسات العلمية النظرية
3- عرض أو مراجعة الكتب الجديدة
4- التقارير العلمية عن المؤتمرات المعنية بدراسات الطفولة
5- المقالات العامة المتخصصة

المجلة مفتوحة أمام كل الباحثين العرب من أطباء نفسانيين و أساتذة علم النفس داخل الوطن العربي و خارجه وهي ترحّب بكل المساهمات الملتزمة بشروط النشر التي حددتها الهيئة العلمية للموقع على الشكل التالي:

■قواعد عامة

- الالتزام بالقواعد العلمية في كتابة البحث.
- الجودة في الفكرة والأسلوب والمنهج، والتوثيق العلمي، والخلو من الأخطاء اللغوية والنحوية
- إرسال البحث بالبريد الإلكتروني APNjournal@arabpsynet.com أو بواسطة قرص مرن (لا تقبل الأبحاث الورقية) .
- إرسال السيرة العلمية المختصرة بالنسبة للكتاب الذين لم يسبق لهم النشر في مجلة الشبكة.

■قواعد خاصة

1- كتابة عنوان البحث واسم الباحث ولقبه العلمي والجهة التي يعمل لديها مع الملخصات و الكلمات المفتاحية باللغات الثلاث العربية، الفرنسية أو الإنكليزية.
2- يراعي في إعداد **قائمة المراجع** ما يلي : تسجيل أسماء المؤلفين والمترجين متبوعة بسنة النشر بين قوسين ثم بعنوان المصدر ثم مكان النشر ثم اسم الناشر.
3- استيفاء البحث لمتطلبات البحوث الميدانية والتجريبية بما يتضمنه من مقدمة والإطار النظري والدراسات السابقة ومشكلة البحث وأهدافه وفروضه وتعريف مصطلحاته
4- يراعى الباحث توضيح أسلوب اختيار العينة، وأدوات الدراسة وخصائصها السيكومترية وخطوات إجراء الدراسة
5- يقوم الباحث بعرض النتائج بوضوح مستعينا بالجداول الإحصائية أو الرسومات البيانية متى كانت هناك حاجة لذلك
6- تخضع الأعمال الطبنفسية المعروضة للنشر لتحكيم اللجنة الاستشارية الطبنفسية للمجلة، كما تخضع الأعمال العلمنفسية لتحكيم اللجنة الاستشارية العلمنفسية و ذلك وفقا للنظام المعتمد في المجلة ويبلغ الباحث في حال اقتراحات تعديل من قبل المحكّمين.
7- توجّه جميع المراسلات الخاصة بالنشر إلى رئيس الموقع على العنوان الإلكتروني للمجلة.
8- الآراء الواردة في المجلة تعبّر عن رأي كتّابها ووجهات نظرهم.
9- لا تعاد الأبحاث المرفوضة لأصحابها .
10- لا تدفع مكافآت مالية عن البحوث التي تنشر .

قواعـد التوثيق:

عند الإشارة إلى المراجع في نص البحث يذكر الاسم الأخير (فقط) للمؤلف أو الباحث وسنة النشر بين قوسين مثل (عكاشة، 1985) أو (Sartorius, 1981) وإذا كان عدد الباحثين من اثنين إلى خمسة تذكر أسماء الباحثين جميعهم للمرة الأولى مثل (دسوقي، النابلسي، شاهين، المصري، 1995)، وإذا تكررت الاستعانة بنفس المرجع يذكر الاسم الأخير للباحث الأول وآخرون مثل (دسوقي و آخرون، 1999) أو (Sartorius etal., 1981) وإذا كان عدد الباحثين ستة فأكثر يذكر الاسم الأخير للباحث الأول و آخرون مثل (الدمرداش، و آخرون، 1999) أو (Skinner, etal., 1965)، وعند الاقتباس يوضع النص المقتبس بين قوسين صغيرين " " وتذكر أرقام الصفحات المقتبس منها مثل: (أبو حطب، 1990 : 43)

وجود قائمة المراجع في نهاية البحث يذكر فيها **جميع المراجع** التي أشير إليها في متن البحث وترتب ترتيبا أبجديا .دون ترقيم مسلسل. حسب الاسم الأخير للمؤلف أو الباحث وتأتي المراجع العربية أولا ثم المراجع الأجنبية بعدها وتذكر بيانات كل مرجع على النحو الآتي:

-عندما يكون المرجع كتاباً:

اسم المؤلف (سنة النشر) عنوان الكتاب (الطبعة أو المجلد) اسم البلد: اسم الناشر، مثال: مراد، صلاح أحمد، (2001) الأساليب الإحصائية في العلوم النفسية والتربوية والاجتماعية، القاهرة: الأنجلو المصرية

-عندما يكون المرجع بحثا في مجلة:

اسم الباحث (سنة النشر) عنوان البحث، اسم المجلة، المجلد الصفحات، مثل: القطامي، نايفة (2002) . تعليم التفكير للطفل الخليجي، مجلة الطفولة العربية، 12، 87 - 114

ج- عندما يكون المرجع بحثا في كتاب:

اسم الباحث (سنة النشر) عنوان البحث، اسم معد الكتاب، عنوان الكتاب، اسم البلد: الناشر، الصفحات التي يشغلها البحث

1- الإشارة إلى الهوامش بأرقام متسلسلة في متن البحث ووضعها مرقمة على حسب التسلسل في أسفل النص التي وردت بها مع مراعاة اختصار الهوامش إلى أقصى قدر ممكن، وتذكر المعلومات الخاصة بمصدر الهوامش في نهاية البحث قبل الجزء الخاص بالمصادر والمراجع

2- وضع الملاحق في نهاية البحث بعد قائمة المراجع

- **الدراسات والمقالات العلمية النظرية:**

تقبل الدراسات والمقالات النظرية للنشر إذا لمست من المراجعة الأولية أن الدراسة أو المقالة تعالج قضية من قضايا الطب النفسي أو علم النفس بمنهج فكري واضح يتضمن المقدمة وأهداف الدراسة ومناقشة القضية ورؤية الكاتب فيها، هذا بالإضافة إلى التزامه بالأصول العلمية في الكتابة وتوثيق المراجع وكتابة الهوامش التي وردت في قواعد التوثيق

- **عرض الكتب الجديدة ومراجعتها :**

تنشر المجلة مراجعات الباحثين للكتب الجديدة ونقدها إذا توافرت الشروط الآتية:

1- الكتاب حديث النشر، ويعالج قضية تخص أحد مجالات الطب النفسي، علم النفس، العلاج النفسي أو التحليل النفسي

2- استعراض المراجع لمحتويات الكتاب وأهم الأفكار التي يطرحها وإيجابياته وسلبياته

3- تحتوى االعرض على اسم المؤلف وعنوان الكتاب والبلد التي نشر فيها واسم الناشر، وسنة النشر، وعدد صفحات الكتاب.

كتابة تقرير المراجعة بأسلوب جيد

- **التقارير العلمية عن الندوات والمؤتمرات :**

تنشر المجلة التقارير العلمية عن المؤتمرات والندوات والحلقات الدراسية في مجال علم النفس و الطب النفسي التي تعقد في البلاد العربية أو غير العربية بشرط أن يغطى التقرير بشكل كامل ومنظم أخبار المؤتمر أو الندوة أو الحلقة الدراسية وتصنيف الأبحاث المقدمة ونتائجها وأهم القرارات والتوصيات

كما تنشر المجلة محاضر الحوار في الندوات التي تشارك فيها لمناقشة قضايا تتعلق بالاختصاص.

المعجم الإلكتروني للعلوم النفسية

قسيمة شراء سي دي المعجم الإلكتروني

www.arabpsynet.com/ePsyDict/subscribe.htm

Edited by CISEN COMPUTER Company (All rights reserved) - Copyright (c) 2010- Email : APNjournal@arabpsynet.com